الوكيل
في ظِلِّ الآخَر

عنوان الكتاب: الوكيل- في ظلّ الآخَر
الكاتب : سامر النجّار
الطبعة الأولى، 2026
ISBN 978-3-949551-72-7
حقوق الطبع محفوظة ©

نرد للنشر والتوزيع
NARD FOR PUBLISHING AND DISTRIBUTING
Daniel-Pöppelmann-Straße 14,06124 Halle (Saale), Germany
nardverlag1@gmail.com
004917656714857 /00905315965100

لوحة الغلاف: راما الدقاق
الغلاف: فايز العبّاس

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in any retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة، لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أيّ جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأيّ شكل من الأشكال من دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

الوكيل في ظلّ الآخَر

سامر النجار

الوكيل "في ظِلِّ الآخَر"

سامر النجار:

روائي سوري من مواليد مدينة حمص عام 1994

حاصل على إجازة في علوم اللغة الألمانية وإجازة في العلوم السياسية في ألمانيا 2022.

من أعماله:

رواية "وما زال النرد يدور" عن الدار العربية للعلوم ناشرون- 2020

مجموعة قصصية بعنوان "أحزان موسمية" عن مؤسسة بنيان للنشر والتوزيع- 2025

إضافةً إلى مؤلفات أدبية باللغة الألمانية.

تنويه:

جميع شخصيات وأحداث هذه الرواية هي نتاج خيال الكاتب، ولا وجود لها في الحقيقة. إن أيّ تشابهٍ بين شخصيات وأحداث هذا العمل وبين شخصياتٍ أو أحداثٍ واقعيّة هو مصادفةٌ بحتة.

الإهداء:

إلى أولئك الذين أُجبِروا أن يُنكروا ذواتهم،
وأن يعيشوا حياةً ليست لهم..
إلى أولئك المسحوقين الذين لا ظلَّ لهم؛
الذين عاشوا وماتوا في ظلِّ الآخر..
أهدي عملي هذا.

أنا الصرخةُ الحادّة في صوتي، والسمّ
الأسود في دمي.
أنا الجرح والسكّين/ أنا الخدّ والصفعة/ أنا
الجسد ودولاب التعذيب.
أنا الجلّاد والضحيّة/ أنا مصّاص دماء
قلبي، وأحد هؤلاء المنبوذين العِظام
الذين حُكِم عليهم بالضحك المؤبّد
ولكن امتنع عليهم الابتسام
*شارل بودلير - مُعذّب نفسه

الجلسة الأولى

(ألمانيا/ دوسلدورف 1997)

وجد فريد صعوبةً في إشعال سيجارته لشدّة ارتجاف أطرافه، ثمّ أسند ظهره إلى الخلف بعد أن نجح أخيراً بتثبيت الولاعة بكلتا يديه اللتين كانتا ترتعدان وكأنّه مقبلٌ على إحراق الكون برمّته.

كان جلوسه على تلك الأريكة الجلديّة السوداء أشبه باستلقائه على سريرٍ ذي عجلاتٍ يتمّ دفعه إلى داخل غرفة العمليّات لفتح دماغه، وكانت الحجرة بإضاءتها الخافتة لا تبعث الطمأنينة في نفسه، ورائحة القهوة تصعد من الفنجان على يساره، تشبه رائحة الخشب، أكثر الروائح التي يكرهها على الإطلاق.

-أخبرْني بما جرى إن أردت.

اخترقت الجملةُ جمجمةَ فريد الذي تردّد طويلاً، وحاول ضبط ارتعاش شفتيه بضمّهما إلى بعضهما بقوّة. سحب من سيجارته نفساً طويلاً، ثم راح يراقب اخترق الضوء الأصفر لدخانها الأبيض.

-بإمكانك الانتهاء من التدخين أوّلاً على مهل، اشرب بعض الماء، وحاول أن تسترخي، وابدأ بالكلام عندما تشعر أنّك قادرٌ على ذلك.

-عمَّ؟ عن الجريمة؟

سألَ فريد، وطفق ينظر إلى السقف متنهّداً.

-عن كلّ شيء، عن أيّ شيء، يمكنك البدء من حيث شئت.

-قد أبدأ القصّة من النهاية، عندما كنتُ في طريقي إلى هنا تبرّزَ طائرٌ فوقي، سقط برازه على رأسي مباشرةً.

-هل تشعر بالقرف؟

-على الإطلاق، بل أشعر بوضاعتي، وبالرضى كذلك، أنا أستحق أن يتبرّز الكوكب كلّه عليّ!

-الطائر كان ليتبرّز على أيّ أحدٍ كان في مكانك.

-لا، ليس هناك مصادفاتٌ في هذه الحياة.

هكذا حسم فريد الأمر قبل أن يبدأ بسرد قصّته.

1

برلين الشرقيّة

(أيّار- مايو/ 1985)

كان ضوء القمر يختنق بين السحب السوداء، وصفير الرياح يختلط بحفيف أوراق الأشجار التي تتطاير فتتلقّفها الأرض الطينيّة الرطبة. كل الاتّجاهات متماثلة، وأيّاً منها سلكَ كان يشعر بعواء الذئاب ولهاثها يقترب منه أكثر فأكثر. الهواء البارد يعبق برائحة الأرض وأشجار البلّوط.

ضغط على مقبض السكّين البارد التي يحملها في يده بقوّةٍ أكبر مع تصاعد وقع أقدامٍ من بعيد، يرتفع إيقاعها شيئاً فشيئاً، وفي اللحظة التي استطاع فيها تحديد مصدر الصوت؛ تسارعت أنفاسه وتجمّد في مكانه استعداداً للدفاع عن نفسه. بدأ جسمٌ أبيض بعينين مضيئتين يبرزُ من العتمة بين الأشجار الكثيفة، وانكشفت الغيوم عن القمر فارتمت ظلال الأشجار من حوله في كل صوب، تزحف وتغطّي الأرض كوحوشٍ متراقصةٍ تطارده، وانطلقت مجموعةٌ من الوطاويط الصغيرة هاربة، ترفرف مذعورةً كأنّها تنذرُ بشيءٍ قادم.

اقتربت لمى ببطءٍ وكانت تجرّ وراءها فستانها الأبيض صانعةً خلفها طريقاً خالياً من الوحل وأوراق الأشجار، وفي أسفل بطنها جرحٌ كبيرٌ يدفق دماً ساخناً تخضّبت به السكّين في يده وصار يقطر منها لامعاً.

-ماذا جرى؟ لماذا نحن هنا؟ هل أنا من جرحتك؟

قال لها قبل أن تصل إليه.

-هذا ليس جرحاً، هذه طعنة، طعنتُك أنت يا لؤي!

أجابت.

-لؤي؟! مَن لؤي؟ ثم إنّني لا أقوى على طعن أحد، فكيف لي أن أؤذيكِ وأنتِ أعزّ البشر على قلبي؟

-لؤي..

-لستُ لؤي!

صاحت بصوتٍ أعلى:

-بل لؤي! فريد مات يوم مِتُّ أنا، وصَحِبني إلى السماء، يداً بيد، كما كنّا نذهب إلى المدرسة صغاراً..

-بل أنا فريد! وما زلت حيّاً..

-بل أنت لؤي! أنت لؤي.. القاتل لؤي!

راحت تصرخُ في وجهه بينما يسدّد الطعنات إليها ويصرخ لاهثاً كالمجنون:

-أنا فريد.. أنا فريد.. فريد.. فريد..

أفاق مذعوراً ليجد تحته بركةً من العَرق البارد قد حوّلت ملاءة السرير الخضراء إلى سوداء، وشعر بجفافٍ في حلقه وكأنّما قد سَفّ حفنة من الرمل. كانت الساعة قد شارفت على السادسة صباحاً.

قبل ساعاتٍ قليلةٍ غادر فريد النسر، أو لؤي صالح -كما يفيد جواز سفره الجديد- من مطار (شونفيلد) في برلين الشرقيّة بينما يتعثّر بحقيبته التي اصطحبها معه من دمشق. انتصب أمام مخرج المطار وكان دوار الطائرة والإجهاد الشديد لقلّة النوم لا يزالان يفتكان به. طفق ينظر في كلّ اتّجاهٍ حوله لا يدري أين يذهب. كان في العراء، في عراءٍ مكثّف، عارياً من عائلته، من حبيبته، من نفسه، ومن أحلامه؛ عارياً من كلّ شيءٍ إلّا من ذاكرةٍ مثقلةٍ باللامعقول ومتّزرةٍ بالفظاعة. استعاد الشعور بجسده بعد شروده ذاك؛ عندما لامست وجهَه نتفٌ من رماد سيجارة جاره الخمسينيّ الذي يشبه (ستان لوريل)، راح ينفض الرماد عن وجهه وقميصه الأبيض الذي بات يبدو كأنّ كلباً جائعاً مضغه ثم بصقه، فحزم معطفه وقرّر أن يقصد أقرب فندق. تقدّم نحو سيارة أجرةٍ كان سائقها يُخرج قدمه منها نصف نائم:

-المعذرة..

قال ثم استطرد بعد أن نهض السائق وراح يحكّ مقدّمة رأسه اللامعة:

-فندق.. من فضلك.

كان هواء المدينة وشوارعها متخمة بسأمٍ يتسلّل من نافذة السيارة إلى أنف فريد؛ فصدرِه، فيمتلئ جوفه بمزيد من الإعياء. كانت برلين أوهنَ من أن تثير دهشته، ولم تكن أيّ مدينةٍ أخرى في العالم بأقدر منها على ذلك، إذ كان العجز ينطلق منه نفسه لينشر الرتابة حوله، ولو كان في مدينة أفلاطون الفاضلة. كانت دمشق، المدينة الفاسدة؛ ترمي بثقلها الفظيع في كل مكان كمسرح جريمةٍ لا محدود، يتوسّع ويتوسّع، حتّى يملأ الكون كلّه.

طوال الطريق لم تنفكّ الأسئلة تطرق جدار رأسه مطالبةً إيّاه بإجاباتٍ لها. "كيف صار الآن أمساً؟ كيف تحوّل الـ"هُنا" إلى "هناك" في غضون ساعات؟! ومَن أعطى الآخرين الحقّ في إحالة آنِه إلى أمس؟ وهُناه إلى هناك؟ من منحهم الحقّ في تصييره من ذاتٍ حرّةٍ إلى شيء؟ ثم لم تكن عملية التشيّؤ تلك التي مورست عليه تهدف إلى مكسبٍ ما. بل جعلت منه وسيلةً للتغطية على أبشع ما يمكن للإنسان أن يأتي به؛ "القتل".. إذ صار هو السكّين التي تذبح، بل أحقر منها بكثير، فالسكّين شيءٌ في أصلها.

كان الفندق الذي نزل فيه يبدو كأطلال بيتٍ من العشرينيات قد تم ترميمه كيفما اتّفق. رائحة الغرفة تشبه رائحة الحديد الصدئ، والعفن الذي فشلت محاولة تغطيته بطلاءٍ جديد؛ كان يمتد من الزاوية فوق الخزانة إلى منتصف السقف. نظر إلى صورته في مرآة الحمّام، إلى

الشامة على خدّه، تلك التي ورثها عن والده وكأنّه بصقها في وجهه بصقاً لتذكّره بأنّه نتاج نوم ذلك الوحش مع امرأةٍ مسكينة، ثم نظر إلى شعره الأجعد وإلى لحيته التي باتت تحتاج إلى تشذيب في أقرب وقت.

مسح وجهه ورقبته بالمنشفة، ثم اتّجه إلى الطاولة الحديديّة المجاورة للنافذة التي تطلّ على الشارع المظلم. فتح حقيبة ثيابه بعد أن سدَحها أمامه وسحب من بين الملابس دفتراً كان قد كتب فيه نصّاً طويلاً ليلةَ أمس، حيث كان ما يزال وحيداً في مخبئه في دمشق.

كان ما حصل له أشبه بسقوطٍ حرّ، أشبه بإعلان بداية حالةٍ دائمةٍ من الظلام الدامس. نهض بعد ساعةٍ من النحيب وأعاد الدفتر إلى مكانه لينجز مهمّته الأولى.

*****

أيمن هو الابن الوحيد لأحد شركاء والد فريد الكثُر، وقد اتّخذ الرجل من ألمانيا الشرقيّة ملجأً له منذ سنوات، معتمداً على صديقه المخلص في سوريا في تسيير الكثير من أعماله، من فوق الطاولة أو من تحتها. كان التواصل مع أيمن هو وصية والد فريد الوحيدة له، وقد أملاها عليه بنبرةٍ أقرب إلى التهديد، بينما لم يستغرب الولد أن يسلمه والده لمن لا يعرفهم ولا يمكنه الوثوق بهم، فقد فعل أمراً مشابهاً قبل سنوات. وفي هذه المرّة أيضاً، كان على فريد أن يلبس عباءةً أكبر من مقاسه بكثير، وأن يلعب دوراً لا يطيقه؛ بمنتهى الإتقان والدقّة.

كان والد فريد (الحاج موفّق) أو (الحجّي) كما يسمّي نفسه وكما يدعوه الناس بعد أن أدّى فريضة الحجّ للمرّة الأولى، والتي يؤدّيها كل

عام؛ كان أقسى من أن يكون بشراً، والسؤال الذي كان يحيّر فريد بشكلٍ دائمٍ منذ تعلّمَ التفكير "هل جبَلَ الله والدَه بكل تلك الغطرسة أثناء خلقه، أم أن الحياة كانت تسلبه مع كلّ نفسٍ يتنفّسه شيئاً من إنسانيّته؟". كان ثقيلاً في حضوره وفي غيابه، وكان صوت خشخشة مفاتيحه أمام باب الشقّة الحديديّ والضجّة التي تثيرها قدماه عند دخوله؛ يكفيان ليداهم الضيق صدر الصبيّ.

الحبّ الذي كانت تبديه الأمّ تجاه زوجها كان من أكثر الظواهر التي عجز المراهق عن تفسيرها، وقد كان مجرّد تحمّلها وجوده المضني يثير ذهوله. وإن كانت سنوات طفولة فريد قد علّمته مقت والده، فقد حملت سنين المراهقة الأولى معها شعوراً بالاشمئزاز تجاه أمّه تعذّرَ عليه دفعه.

أقامت العائلة سابقاً في شقّةٍ من غرفتين متلاصقتين تمّ بناؤهما بشكلٍ مخالفٍ ليس للقانون وحده؛ بل للمنطق كذلك، على سطح إحدى العمارات الواطئة في منطقة عشوائيّاتٍ تمّت إزالتها لاحقاً في دمشق. حاول المراهق كلّ ليلةٍ هشَّ النوم بعيداً عن جفنيه، وكأنّه يريد حراسة أمّه من وَحشَين اثنين يتّحدان لافتراس براءتها وطهرها؛ الظلام الدامس ووالده. ولكن، وما إن يُوصد باب غرفة نوم الوالدين، والذي يفصل فريد عن أمّه ويحرّم عليه تجاوزه، وتحلّ العتمة القاتمة في تلك الغرفة؛ حتّى يبدأ الحارس بالتقلّب في فراشه الممدود على الأرض الباردة، وشعور العجز ينهش قلبه. كان يستطيع التقاطَ بعض القبلات والتأوّهات الهاربة من ذلك العالم المظلم عبر المساحة الضئيلة بين الأرضيّة وباب غرفة التعذيب تلك، أو هكذا كان يتصوّرها هو على الأقل، ثم ما يلبث أن يخرج الجلّاد منتشياً إلى الحمّام من دون هوادة،

ثم تتسلّل الضحيّة بثوبها الأحمر الذي يكشف نصف جسدها المترهّل، وبشعرها المبعثر، تترنّح في مشيتها من دون أن تبدو عليها أيٌّ من ملامح الأسى على نفسها. وفي الصباح يحاول فريد كتم غيظه وإخفاء نفوره من أمّه بصعوبةٍ عندما يراها تقدّم كأس الشاي بكلّ حبّ لزوجها الوحش أثناء تناول الفطور.

تحوّل والد فريد خلال أعوامٍ قليلةٍ من شخصٍ عاديٍّ يعيش في بيئةٍ شعبيّةٍ بسيطةٍ إلى شخصيّةٍ مرموقةٍ في دمشق، وبدأ يخلع عنه ماضيه ويتنكّر لحياته السابقة بكلّ ما أوتي من قدرة. ما من أحدٍ يعرف شيئاً عن كيفيّة جَمعه لثروته بكلّ تلك السرعة، ولكنّ فريد كان يعرف ذلك بالطبع، وقد بدأ الوالد يجمع حوله العديد من التجّار الصغار والمتملّقين، من باب "كلبٌ ينبحُ معنا خيرٌ من كلبٍ ينبح علينا". كان رجلاً ذا شاربيَن مفتولين وفكٍّ عريضٍ وذقنٍ بارزةٍ بجلافةٍ إلى الأمام، أصلع الرأس، عظيم الأنف والأذنين، تتدلّى شحمتيهما وتكادان تتأرجحان في أثناء حركته، على خدّه شامةٌ سوداء لامعة، مذكورةٌ في بطاقته الشخصيّة كعلامة مميّزة، حنطيّ البشرة، عَبوس الوجه، ضخم الجثّة، ويعرج في مشيته بشكلٍ بسيط بسبب طلقٍ ناريٍّ قديم. يتبختر في أسواق الشام بعكّازه الغليظة المصدّفة، وبمجرّد دخوله إلى السوق يفسح الناسُ الطريق له ليعبر بينما يتلقّى التحيّات من الباعة والتجّار، ويا سَعْد مَن يقبل "الحجّي" دعوته إلى شرب الشاي أو القهوة، فنافذة الثروة ستفتح له لو قَبِلَ هذا الأخير مشاركته في استثمارٍ ما.

فريد بدوره كان لا يطيق الهالة التي صنعها والدهُ حول نفسه وحول حياة الأسرة بشكلٍ مفاجئ، وكان يتوقّع له سقطةً تكثر بعدها السكاكين حول رقبته، فمن المعروف أنّ الدولة الأخطبوط تلك كانت تقطع بين

الفينة والأخرى أحد أذرعها لتغطية اختلاساتٍ وقضايا فساد أكبر من "الحجّي" ومن سبعة حجّاجٍ مثله، فيكونون بذلك كبش الفداء لتبرئة ساحة أحد النصّابين ذوي النفوذ الأكبر، وعليه لم يكن "الحجّي" ليأمن على نفسه بشكلٍ مطلقٍ في سوريّة، وكان يحافظ على نفسه متأهّباً للفرار بعائلته في أيّ لحظة، ممّا دفعه لتكوين علاقاتٍ عديدةٍ بأناسٍ متنفّذين وأغنياء خارج البلاد، وسمّمَ جوّ الأسرة بتوتّر وتأهّبٍ مستمرّين.

*****

-تحياتي.. هل أيمن موجود؟

-صباح الخير.. أيمن معك تفضل.

-صباح الخير أيمن، أنا لؤي..

قال فريد متلعثماً وقد نطق اسمه الجديد للمرة الأولى.

-أهلاً لؤي! أنتظر اتصالك منذ يوم أمس، لحسن حظّك أنّي لم أنم بعد، أين أنت؟

-نزلت حالياً في فندق في برلين.

-ما هو عنوان الفندق؟ سأوافيك حالاً.

أبدى أيمن حماساً تجاه تعرّفه إلى صديقه الجديد، وحاول هذا الأخير تصنّع الحماس بدوره. تكلّم الشابان عن الجامعة والحياة في برلين، وعبّر فريد لصاحبه عن رغبته في دراسة الفلسفة، فيما تحدّث أيمن عن دراسته للهندسة الزراعية في جامعة (هومبولد) ثمّ دعا صديقه الجديد إلى منزله وهو يشير إلى سيارته من طراز (رينو 9) وقد

وصفها بالأحدث بعد أن تبجّح بأنّها مستوردة من فرنسا وقلّ نظيرها في جمهورية ألمانيا الديمقراطية، ثمّ لم يلبث أن عرض على فريد مشاركته السكن حيث كان يقطن شقةً من غرفتيّ نوم إحداهما شاغرة، والتي استأجرها فريد بالفعل ورأى فيها فرصةً سريعةً للحصول على مأوىً يغنيه عن فنادق برلين الشرقيّة.

كان أيمن يكبر فريد بثلاث سنوات، متوسّط الطول، ضخم الجثّة، أبيض البشرة، لطيف الملامح وكثيف شعر الرأس، يتدلّى شعره على كتفيه، وقد نبتت لحيته بشكل طفيفٍ ومتفرّق، وجنتاه بارزتان قليلاً إلى الأمام، رقبته العريضة تَغرق بين كتفيه ولا تلائم طول قامته، كرقبة كلب (بتبول) تطوّقها سلسلة فضيّة، يرتدي (تي شيرت) أخضر اللون، وجاكيت جينز فضفاض، ويضع نظارةً شمسيّةً (راي بان) لا ينزعها إلا نادراً.

جلب فريد أمتعته من الغرفة وصعد السيّارة متوجّهاً مع أيمن إلى منزله الجديد. راح أيمن طوال الطريق يقصّ على فريدٍ مغامرته مع النساء وكأنّه يعرفه منذ سنوات، وأخبره بزهوٍ أنّه سيعرّفه على كثيرٍ منهنّ وسيحظى فريد بالكثير من المرح والمتعة معه، "شابٌ في مثل وسامتك سيحصد واحدةً جديدةً لكلّ ليلة"، قال أيمن ضاحكاً وهو يسحب سيجارةً من علبة سجائره من نوع (كلوب) الذي يعتبر غالي الثمن مقارنةً بالأنواع الأخرى في ألمانيا الشرقيّة. أثار التعليق على وسامته ريبةَ فريد، وطفق يفكر في مهربٍ له من هذا الشابّ، "لست هنا من أجل النساء والمرح، بل للدراسة"، قال فريد من دون أن ينظر إلى صاحبه، فأطلق أيمن ضحكةً عاليةً وراح يضرب على المقود بيده وهو يقول: "أنت ظريف! هذا ما يقوله الجميع، سنرى!" غيّرَ فريد الموضوع

وبدأ يسأل أيمن عمّا عليه فعله ليبدأ دراسته، وظهر له جليّاً أن هذا الأخير لا يعير الجامعة أيّ اهتمامٍ، ويصف زملاءه بالأوغاد والحمقى.

ركن أيمن السيّارة قرب المبنى في (ليشتينبيرغ) وسط قطاع برلين الشيوعي. لم يأبه فريد بكون المبنى قديماً ومملًّا، لكنه لم يستطع تجاهل شعورٍ طافحٍ بالغرابة، وراح يتلفّت حوله بحذلقةٍ وقلق. فور دخولهما إلى المنزل المكوّن من ثلاث حجرات شرع أيمن يحدّث فريد أنّه لم يحتمل أيّاً من أصدقائه الذين شاركوه السكن في الماضي، فكان يطردهم لأن أسلوب حياته لم يلائم أحداً منهم، ممّا أثار حفيظة فريد.

كانت غرفة الجلوس مفروشةً بسجادةٍ كبيرةٍ خمريّة اللون "أعجميّةٍ" من النوع الفاخر كما وصفها أيمن، وكانت الجدران مزينةً بأنوارٍ ملوّنةٍ وبصورٍ متنوعةٍ لنجماتٍ سينمائيّات؛ صورةٌ لـ(دوريت دوم) وهي تغطي صدرها المكشوف بذراعها وتضغط بها على ثدييها، وأخرى بملابس السباحة لـ(فيرونيكا كارلسن) تجلس فيها في الماء الذي يغطّي فخذيها بينما تبرز حلمتاها المنتفختان من حمّالة صدرها الرقيقة، وصورةٌ كبيرةٌ لـ(مارلين مونرو) مرتديةً فستاناً أحمرَ بينما تشدّ خصلةً شقراء من شعرها وتفتح فمها بشكلٍ مثير، وبجانبها صورةٌ أخرى أصغر لـ(بريجيت باردو). لفت نظر فريد على الحائط المجاور رفٌّ خشبي فوق الأريكة السوداء إلى الزاوية؛ عليه مجسمٌ لجندي يرفع رشاشه الحربيّ وإلى جانبه قبعةُ ضابطٍ عسكريّةٍ رماديّة اللون تحمل شعار الجيش الأحمر.

في غرفة أيمن كان السرير مزدوجاً، الأمر الذي علّق عليه أيمن بنبرةٍ جديّة: "لا أستطيع النوم وحدي في السرير، فأطلب من النساء اللاتي أعاشرهن أن يبِتن في سريري". كان هناك كذلك شرفةٌ صغيرةٌ جدّاً تطلّ على ساحةٍ كبيرةٍ تملؤها حاويات القمامة والخردة خلف المبنى وترتع فيها

الجرذان بِحرّيّة، أمّا غرفة فريد فكانت تحتوي على سريرٍ صغيرٍ وطاولة مكتبٍ خشبيّة، إضافة إلى شمّاعةٍ بيضاءٍ لتعليق الملابس، ونافذةٍ كبيرةٍ تطلّ على الشارع مباشرةً.

-لا بدّ وأنّك تفتقد عائلتك كثيراً، أرى أنّك حزينٌ جدّاً.. قال أيمن.

لم يعرف فريد إن كان الضيق الذي دهمه متعلّقاً بما جرى له في دمشق، أم بسبب شخصيّة أيمن التي أثارت فيه رغبةً مفاجئةً في الهروب.

2
الجلسة الأولى

تنهّد فريد ثم استجمع قواه بعد أن أطفأ السيجارة واستأنف:

كان يمكن ليوم الجمعة ذاك، يوم الثالث من أيّار 1985 أن ينقضي كأيّ يومٍ آخر. ولكنّه أبى إلّا أنّ يتميّز عن باقي الأيّام ويتسيّد عليها كلّها كأقبح يومٍ عرفه التاريخ، وأظنّ أنّ لكلّ إنسانٍ في هذا العالم "ثالثٌ من أيّار" خاصٌّ به. حاول السائق أبو عدنان منعي من الدخول عند وصولي إلى الفيلّا عند الواحدة بعد منتصف الليل، قال وهو يلهث:

-فريد، الوالد منزعجٌ بعض الشيء، دعنا نشرب الشاي في غرفتي ريثما يهدأ قليلاً..

ظننتُ أنّه غاضبٌ لتأخّري في العودة إلى المنزل وكنت أصلاً قد هيّأت نفسي لشيءٍ كهذا مسبقاً، ولكنّني لم أكن ضحيّة تلك الليلة. قبل وصولي بقليل كان والدي قد أدخلَ أختي لمى لتوّه إلى غرفتها بمساعدة أبو عدنان..

*****

-تريدين الهروب من المنزل يا بنت الكلب؟!

صرخ والدي وهو يمسك بكتفي لمى بعد أن أقفل باب الغرفة ثم دفعها على الأرض. كنتُ أراقب ذلك من فتحة مكشوفة في نافذة غرفتها، بينما تضرب أمّي على الباب بكلتا يديها وتتوسّله أن يعفو عنها.

انتحبت لمى فانهال عليها ضرباً وهو يصرخ:

-تريدين أن تنكّسي رأسي أمام الناس؟ تهربين مع ذلك (الإخونجي ابن الإخونجي) ؟

لم تنبس أختي ببنت شفة، وراحت تبكي فزعةً فاقترب والدي منها وأمسك بكتفيها من جديد وعاود الصراخ:

-أتريدين أن تلوّثي شرفي بالوحل؟ وتهربين مع من؟ مع إبن واحدٍ من ألدّ خصومي.. أعدكِ بأنّني سأخفيه وأباه وراء الشمس.

-(شبّيح! شبّيح!)

راحت لمى تزعق وهي تحاول التخلّص من قبضتَيه.

-ألا تعرفين من أنا؟

ردّدَ والدي وكأنّه بُهت.

-بل أعرف، أنت الحاج موفّق. الحجّي الذي يسجن ابنته ويرسل وراءها العيون لتراقبها، لقد مللتُ حياتك هذه وأنت تعتبر نفسك إلهاً، أجل سأهرب ولن أحمل معي من هذا المنزل سوى الكثير من الذكريات السيئة، الكثير من القسوة والتكبّر.. خلاص! لن ترهبني سطوتك بعد اليوم!

صرخت به وقد ألزمَتْه كلماتُها مكانه.

هرعت لمى إلى باب الغرفة محاولةً فتحه، بينما أمّي ما تزال تضرب عليه من الخارج متوسّلة، فإذا بوالدي يهوي على رأس لمى بالمزهرية التي كانت بجانب سريرها، فتناثرت شظاياها المدمّاة في الغرفة كنجومٍ تبعثرت في الفضاء بعد انفجارٍ عظيم. تهاوت لمى على الأرض وارتطمت بها مثل ماريونيت تقطّعت آخر خيوطه، وتجمّد والدي في مكانه للحظةٍ قبل أن يدرك ما صنع لتوّه. مال على ابنته وأمسك رأسها بكفّيه المرتجفيَن فعرف أنّه قتلها وأنّها فارقت عالمه الذي دخلته قبل واحدٍ وعشرين عاماً أمضتها كلّها تحلم بالحبّ لتجده في النهاية خنجراً في

صدرها. هربت دمعةٌ من عينه أزالها سريعاً كمن يُنكر إنسانيّته للمرّة الألف، ونهض ليفتح باب الغرفة لزوجته التي كادت تكسره.

دخلتُ مسرعاً بعد أن تناهى نواح أمّي إلى مسمعي، ورأيت والدي يقف بقرب سرير ابنته المطروحة بجانب باب الغرفة الذي تلوّث بدمائها، بينما تجثو أمّي على ركبتيها وقد كتمت الصدمة صوتها. كان الدم يخضّب حجاب لمى الأبيض الذي اعتمرته بخوفٍ واضحٍ ويغطّي جزءاً من وجهها. جحظت عيناي ثم انحنيت فوق الجثّة محاولاً تحريك الحياة فيها. أطلتُ النظر في وجهها مشدوهاً، في عينيها اللتين أغمضتهما القسوة للمرّة الأخيرة، في ملامحها الخائفة التي ستحملها حتّى تفنى آخر خلايا وجهها، في الدمعة اللامعة التي تعلّقت برموشها، قبل أن أفلت رأسها بمنتهى الحذر وكأنّما أخشى عليها أن تستيقظ.

تماسكت أمّي واستجمعت قواها وراحت تصرخ في زوجها القاتل الذي ظل منتصباً في مكانه ولم يأتِ بحركةٍ واحدة.

انتفض ومشى إلى غرفة المعيشة وبدأ يسحب السيجارة تلو الأخرى بينما يملأ العويل المنزل. لم يكن يحتاج إلى أكثر من دقيقةٍ لاجتياز حزنه، كيف لا وهو لم يكن يرَ يوماً بكلّ من يحيطون به أكثر من أدواتٍ يستثمرها في الحين المناسب. كانت دقيقة الحزن تلك كفيلةً برسم معالم حياتي القادمة بأدقّ تفاصيلها. جريمةٌ كهذه كانت كافيةً ليلقي به خصومه في السجن إلى الأبد، وهم من كانوا يتربّصون به كما كان يزعم، وقد كانت تجارته في تراجع والوضع السياسيّ والأمنيّ ليس في أفضل أحواله.

دخلت الغرفة مرتعشاً على ذلك الرجل الجبّار، أنرت الضوء فانقشع الظلام عن وجهٍ بشعٍ لمسخٍ رهيب:

-لماذا فعلت ذلك؟

سألته للمرّة الأولى في حياتي وأنا أنظر في عينيه، كنتُ أريد أن أرى فيهما ولو ذرّةً من الحسرة.

حملقَ بي متفاجئاً فتابعت باكياً:

-هل أغضبتك نبرة صوتي؟ ما من أحدٍ مذنبٌ الليلة على هذا الكوكب أكثر منك! لماذا فعلت ذلك؟ أجبني..

-لستُ من فعل ذلك..

أجابني ودنا بالسيجارة من شفتيه المرتجفتين.

-من كان إذن؟

-اذهب إلى أمك وقل لها أنّني أريدها.

-وهل هناك في العالم من يستطيع التكلّم الآن مع أمّي؟ وتعطيني الأوامر؟ يا لك من متغطرس!

-ماذا تقول يا ولد؟!

صرخَ بي متعجّباً وقد امتقع وجهه.

نهضتُ وتوجّهتُ إلى غرفة أختي الضحية معانقاً أمّي التي كان تشدّ شعرها وتنوح. تخلّصتْ من ذراعيّ وركضتْ نحو غرفة الجلوس، وقفت أمام زوجها كلبؤةٍ تستعد للانقضاض على فريستها، قبل أن تنهار أرضاً مغشيّاً عليها.

لحقتُ بها وانكببتُ فوق جسدها الطريح وأنا أصرخ، لقد خشيتُ عليها الموت، بل ربّما خشيتُ على نفسي أن تتركني وحيداً مع الوحش. نهض والدي ودفعني عنها بقوّة، حملها ومدّدها على الأريكة وتناول كأس الماء وبدأ يرشّه على وجهها.

-حتّى في حالتك تلك، أنت كما أنت، وحش، وحشٌ حقيقي.

-أطبق فمك واحترم والدك.

قال لي دون أن ينظر نحوي.

-أين احترامك لروح ابنتك التي أزهقتَها قبل دقائق؟ ابكِ قليلاً لأشعر بأنّك إنسان! لأشعر أنا الآخر بأنّني لست وحشاً لكوني خرجتُ من صلب وحش، لأشعر أنّك من لحمٍ ودمٍ مثلنا!

بدأت أمّي تستفيق رويداً رويداً، وحالما فتحت عينيها ونظرت إلى زوجها راحت تبكي.

-الله يعوضك يا هدى.

قال لها فطفقت تبكي بحرقةٍ أكبر..

خيّم الصمت لبضع دقائق، كنتُ جالساً على الأرض قرب باب الغرفة، أنظر من دون حراكٍ نحو غرفة أختي لمى، إلى مسرح الجريمة.

-فريد.. عليك أن تختفي اعتباراً من الآن.

قال لي والدي بحزم.

-ماذا؟!

-ستذهب مع أبو عدنان في الحال إلى مكانٍ آمن.

-لن أذهب إلى أي مكان! ولن أتلقّى الأوامر منك.

-فريد، أنت تثير غضبي.

-هل تريد قتلي أنا الآخر؟ افعل ذلك!

-ما جرى كان رغماً عني. اسأل أمك.

راح فريد ينظر نحو والدته باستغراب.

-قولي له يا أمّ فريد.. أخبريه بحالتي.

-عن أيّ حالةٍ تتحدث كرمى لله؟!

انسلّتْ الكلمات من فمها مختلطةً بأنفاسها السريعة وصوت بكائها المرير.

-حالتي التي تعرفين.

صمتت أمّي وراحت عيناها تسبح في فضاء الغرفة الممتقع بلون الموت.

-أقسم لكم أن ما جرى لم يكن بإرادتي، قلبي يعتصره الألم، ما جرى كان حلماً.

-عمَّ تتحدثان؟

تدخّلتُ مستفهماً.

-أنا.. يا بنيّ.. أنا أمشي في نومي.

صرختُ مستنكراً:

-ومن يمشي في نومه يذهب إلى غرفة ابنته عامداً، يحشرها في الداخل ويقوم بضربها ضربةً قاتلة؟

-هذا ما جرى، لن أطيل الكلام، لن أترجّاكما، ستفعلان ما أراه مناسباً فحسب.

-لن نف...

لم أكد أفتح فمي حتى صرخ بي:

-هذا يكفي! ماذا تظن نفسك فاعلاً؟ أتعتقد أنني سأسمح لما حدث اليوم أن يقتلنا جميعاً؟ أتدرك ما معنى أن يعرف الناس ما جرى؟ ستكون هذه نهايتي ونهاية الأسرة ونهاية كل ما قمت به في حياتي لأجلكم، أعدائي يتحيّنون فرصةً لدفني، لن أمنحهم هذا ولو على حساب حياة أولادي، كما أنّني لن أسمح لكم أن تصبحوا أعداءً لي، ولو اضطررت لقتلكم كلّكم، مفهوم؟

-حياتنا ليست مالاً في رصيدك تتصرّف بها كما تشاء!

-ستفعل ما أقوله بالضبط، أتفهم؟ عندما عانيتَ في صغرك من المرض أنا من وهبتك الحياة بمعالجتك في أفضل مشافي البلد، ولم يكن يومها في جيبي ما يكفينا يوماً وليلة، لم أفعل ذلك إلّا ليومٍ كهذا، واليوم تريد تَركي للنار تأكلني وحدي؟ أن أظهر مجنوناً أمام الجميع؟ لا، لن تفعل ذلك. بل تردّ الدَّين إليّ ببساطة، هذه هي الحياة، وهذا ما عليك تطبيقه الآن!

-لطالما سألت نفسي إن كنتَ تملك مشاعرَ، واليوم أملك الجواب.

-وهل تبني المشاعر هذه المملكة التي تراها؟

قالت أمّي منتحبة:

-لقد قتلتَ أميرةَ هذه المملكة اليوم.

فردّ بعنجهية:

-لن أدع ما جرى يقتلني ويقتلكم معي، ما جرى قد جرى وانتهى الكلام.

صرختُ به:

-وماذا تريد منّي أن أفعل الآن بالضبط؟ أن أترك دم أختي على الأرض وأستجيب لأوامر قاتلٍ مثلك؟ ولمَ تريد منّي الاختفاء؟

-ستتحمّل مغبّة ما حدث بدلاً مني، أنا لا أطلب منك ذلك، بل آمرك!

-تريد تعليقي على حبل المشنقة الذي يجب أن يلتف حول عنقك أنت؟

-لن يحصل شيء كهذا، ستواصل حياتك بأفضل حال، ولن أسمح بدخولك السجن ولا حتّى لساعة. سنقول أنّك اكتشفت علاقة أختك بأحد الشبّان، فقتلتها بدافع الشرف.

صرخت أمي محاولةً النهوض وإمساك وجه زوجها الذي ابتعد سريعاً:

-يا عديم الشرف!

"لقد فهمتُ الآن كلّ شيء، لمى.. أختي!"..

هكذا رحتُ أهذي بعد أن فكّرتُ للحظةٍ أدركتُ فيها أنّني شاركتُ بقتل لمى، وركضتُ باتّجاه غرفتها لأعتذر إليها.

3

برلين الشرقيّة

(تشرين الأوّل – أكتوبر/ 1985)

مرّت أشهرٌ على إقامته في برلين، وكان قد بدأ لتوّه بدراسة الفلسفة في جامعة (هومبولد) في برلين الشرقيّة. كان يوم أحدٍ مملٍ جداً، فريد وحده في المنزل، حيث رافق أيمن إحدى الفتيات إلى منزلها في الليلة الفائتة بعد أن التقى بها في الحانة التي كانا يسهران فيها معاً، وودّع فريداً ملوّحاً له بيده، والفتاة تشدّه من ذراعه نصف ثملة؛ بينما يقهقه ويستهزئ باللغة العربية كالأبله:

-أنا سأرافق هذه الجميلة، وارجع أنت الآن إلى دروسك يا بطليموس، ولا تنسَ تنظيف المطبخ غداً صباحاً.. اتفقنا؟!

ظَلّ فريد يحملق في سقف الغرفة ويتذكّر طفولته، تلك التي أمضاها مع شقيقته لمى التي لم يسمح له القدر حتّى أن يبكيها كما يجب، ابتلّت عيناه قبل أن يبدأ بالنحيب ويدفن رأسه في الوسادة.

كان فريد قد باح لأخته بسرّه قبل رحيلها؛ أو ترحيلها بأيامٍ قليلة، أخبرها عن علاقة الحبّ التي تجمعه ونايا، والتي كانت لمى تعرفها أيضاً. عرف فريد نايا لعدّة أشهرٍ قبل أن يعتمل غرامها في قلبه، ثم تردّد أشهراً إضافيةً قبل أن يعترف لها بإحساسه، فأخبرته هي الأخرى أنّها تبادله ذات المشاعر.

في تلك الليلة المشؤومة، وقبل وقوع الحادثة بساعاتٍ كانا معاً، واتفقا أن يسافرا إلى سان بطرسبرغ للدراسة والعيش معاً هناك، كون والدة نايا روسيّة الأصل والمولد، وتودّ العودة إلى بلادها مع ابنتها بعد أن توفّي زوجها السوريّ، بينما كان فريد بدوره يرغب في دراسة الهندسة المعماريّة في الاتحاد السوفياتي. كانت فترة ما بعد وفاة والد نايا فترةً صعبةً في حياتهما، حيث كانا لا يزالان مجرّد أصدقاء، ولكن فريد دعم صديقته ووقف إلى جانبها إلى أن تجاوزت الصدمة.

نهض أخيراً بعد أن استيقظ وتكاسل ساعتين في سريره. اتّجه نحو المطبخ المتّسخ جداً، قام بغلي القهوة وعاد مسرعاً إلى غرفته، سحب الكرسي الخشبي وجلس خلف المكتب وأشعل سيجارة، ارتجفت يده كثيراً قبل أن يفتح الدرج اليميني ويخرج دفتراً كان لم يفتحه منذ مغادرته دمشق. في ذلك الدفتر كان فريد يكتب الرسائل إلى نايا، ثم ينقلها إلى ورقٍ خارجيٍ لإعطائها إياها. فتحه بشكلٍ عشوائيٍ وبدأ يقرأ:

"أفتحُ عينيّ عند كل صباحٍ لأفتّش عن وجهك، أبحث عن ابتسامتك على الوسادة، تحت الوسادة، على سقف الغرفة، على كل الجدران وبين كل الأوراق الصفراء التي أمضيت الليلة الفائتة في كتابتها عنكِ، لا يواسيني في بُعدكِ عني سوى الكتابة، ولا أرى أي وسيلةٍ أخرى غيرها تُخمد قليلاً من نار الشوق المتّقدة في صدري. هكذا تمضي الأيام التي لا أراكِ فيها، فلا شمس تشرق في اليوم الذي لا يبدأ بكلمة "صباح الخير" منكِ، ولا يعوّل على يومٍ لم يبدأ بكِ، ولم ينتهِ بك. لقد صرتِ الشمس والقمر، الغرق والنجاة، التيه والطمأنينة، معنى الصباح والمساء، رائحة القهوة الصباحيّة وصوت فيروز الذي يقفز من المذياع كل صباح، ذكرى الطفولة العتيقة وأحلام المستقبل الورديّة، مطر كانون الغزير وشمس آب الحارقة، ريح الشمال الباردة ونسمات الجنوب التي تحمل معها عبق الصحراء، صوت الكمان الحزين ونغمة القيثارة المُبهِجة، كلّها أنتِ، وكل تناقضات هذا العالم تتجلى في عينيكِ، تتجسّد في ابتسامتك ودموعك، تبدأ من ثغرك وينمحي فحواها عندما تديرين لي ظهركِ مبتعدةً عني، مودّعةً إياي، فإذا بي أبدأ بعدّ الدقائق والثواني حتى اللقاء التالي. اعذريني يا حبيبتي إن غلبت بساطتي يوماً الشاب المتعقّل في داخلي، وإن هزمت حسّاسيتي المفرطة قدرتي على التماسك أمام

وضوحكِ الكبير. اعذريني إن طغى حبّي على رشدي، وإن راحت الحدود تتلاشى أمام روح الثائر المشتعلة في صدري. اعذريني إن صارت القوانين مداساً لعشقي، والخطوط الحمراء أهدافاً لا تصمد للحظةٍ أمام عفويتي، اعذريني إن خانني التعبير يوماً، واعذريني كثيراً إن لم أستطع أن أخنق الكلمة في قلبي وأقتلها، وإن لم أستطع أن أجلد روحي بسياط الكتمان الغليظ، اعذريني إن لم أستطع أن أقبض على جمر الرغبة في البوح، وإن لم أستطع ألا أبتر يد التكلّف بفأس سجيتي، واعذريني كثيراً، وكثيراً؛ إن لم أستطع يوماً أن أقول لكِ: أحبك!"

22 آذار/ مارس 1985

في ذلك اليوم كان فريد قد أعطى تلك الرسالة لنايا، والتي بدورها لم تستطع الصبر ففتحتها وقرأت كلمة أحبّك منه للمرّة الأولى، فعانقته باكية وهي تقول له: "لستَ أجمل عاشقٍ عرفته البشريّة فحسب، بل أنت أفضل من يكتب في هذا العالم!".

وضع الدفتر بتأنٍّ على المكتب ثم أشعل سيجارةً أخرى وراح يتأمّل قطرات المطر من النافذة الزجاجية المبتلّة، "أين هو ذاك الثائر اليوم؟" سأل نفسه وشرع يجيل نظره في الغرفة من حوله: "ماذا بقي منّي؟ ماذا تبقّى من حقيقتي؟ أين ذلك العاشق؟ أين هو وقد صار أداةً للظلم والجريمة؟ أين هو وقد صار ستارةً يختبئ خلفها قاتل؟".

لم يصدّقٍ فريد رواية والده حول حادثة المشي أثناء النوم، إذ كان يعرف تماماً بقصّة لمى وبسبب مقتلها.

اتّصل هاتفيّاً بأمّه في ذلك اليوم وتمنّى أن يكون والده خارج المنزل:

-كيف حالك يا بني؟

هتفت الأم بمجرّد سماعها صوت ابنها على الخطّ.

-بحالٍ جيدة يا أمّي.

راحت الأمّ تنتحب على الهاتف فهُزم تماسك الولدِ تحت وطأة حيرته التي يخفيها منذ يوم الفاجعة:

-أمّي.. أكاد أجن هنا وحيداً، لقد أودى الأمر بلمى وانتهى بها في القبر، أمّي، لقد شاركتُ بقتل أختي، أنا السبب! أنا السبب! أرجوكِ يا أمّي قولي لي أن ما جرى كان كابوساً وأنّنا سنفيق ونجد لمى بيننا! أرجوكِ يا أمي، قولي لي أن والدي لم يفعلها! أرجوكِ قولي شيئاً!

-حسبنا الله ونعم الوكيل.

قالت الأم بصوتٍ باكٍ ملتاع قبل أن تنهي المكالمة سريعاً.

*****

عاد أيمن بعد ساعتين إلى المنزل وفور دخوله بدأ بالصراخ والزعيق:

-أين أنت أيها الطالب المجدّ؟ لقد فوّتَّ سهرةً لا تنسى.

قال ذلك وراح يقهقه قبل أن يشقّ باب غرفة فريد كاللصّ، ثم همس:

-أما تزال نائماً أيها التلميذ الشاطر؟ الفتاة التي قامت بمغازلتك بالأمس كانت رائعة وكنت لتُمضي معها ليلةً من العمر. آه، كم تمنّيتُ أن أضاجعهما سوياً، على الرغم من ذلك كانت ليلتي مشتعلة حتى الصباح، لقد كانت فتاتي مثل اللبؤة في السرير، ولكنني واثقٌ أنّك استمتعت كذلك برفقة الكتب.

دخل إلى الغرفة وجلس على حافة السرير بجوار مكتب فريد وقد أبدى بعض الاهتمام، الأمر الذي فاجأ فريد قليلاً:

-لا تبدو لي في أفضل حال! ما الأمر؟

سأل أيمن وملامح التعاطف تنطلق من وجهه.

-لا شيء.. أبداً.. بعض السأم فحسب.

ردّ أيمن مقهقهاً:

-هذا حال من يأبى صحبة النساء يا هذا..

-أخبرتكَ مرّاتٍ عديدةٍ بأنّني هنا لأهتمّ بدراستي ولست مهتمّاً باللهو ولا بالنساء.

أجابه فريد بلهجةٍ أكثر حدّة.

-هل تهتمّ بالرجال إذن؟

سأل أيمن وضرب بيده على كتف صاحبه فرمقه هذا الأخير وهو يكزّ على أسنانه، أبعد يده عنه بهدوء وراح يحاول تهدئة أعصابه قبل أن ينهض أيمن مغادراً الغرفة وهو يضحك بصوتٍ عالٍ.

4
الجلسة الثانية

ركن والدي دراجته أمام باب المنزل المتواضع الذي كنا نقطنه في أحد الأحياء المحدثة على أطراف دمشق بعد ظهيرة يومٍ لا يُطاق حرّه صيف عام ١٩٧٧. على الرصيف كنت أنا، الطفل ذا العشر سنوات، أجلس على باب المنزل بقميصي وبنطالي القصير والغبار يغطيهما. هرع إليّ:

-فريد! ما هذا المظهر؟ من فعل بك هذا؟

لم أجبه، فأمسك بيدي وشدّها إليه بقوّة، انحنى وأخذ يتفحّص الخدوش على ركبتيّ بسخط:

-من فعل بك هذا؟ ماذا جرى؟

تابعت صمتي وأنا أنظر إلى عينيه الغاضبتين.

-إن لم تجب فسأكمل عليك يا ولد.

-تعاركت مع الأولاد وضربوني ودفعوني أرضاً.

قلتُ بتردّد.

-من هم هؤلاء الأولاد؟ أبناء من؟

-لا أعرفهم، ليسوا من حيّنا، ولكنّهم اعترضوني ورموني بالحجارة وحاولتُ تجنّبهم فتبعوني.

نهض وانتصب أمامي كالجبل وسحبني بعنفٍ من عضدي:

-قم يا ولد..

لم أستجب وحاولتُ مقاومته فما كان منه إلّا أن شدّني من ذراعي بضراوةٍ كادت تفصلها عن كتفي:

-أنت ولدٌ عفريت وغير مطيع، بدل أن تعمل في العطلة لتصبح رجلاً وتجني بعض المال وتعتاد العمل؛ تتعارك مع أولاد الشوارع.. تعال معي.

جرّني إلى دراجته بينما أبدي مقاومةً ضئيلة، فصفعني على خدّي شاتماً إيّاي، ثبّتني خلفه على الدراجة وانطلق بي.

*****

-أتيت إليك برجاءٍ يا (أبو دياب) وأتمنّى ألّا تردّني خائباً.

قال والدي بعد أن ارتشف رشفةً كبيرةً من كأس الشاي.

-لا عاش من يردّك يا أبا فريد! طلباتك أوامر.. تفضّل.

قال الرجل.

-جئت إليك بولدي الوحيد فريد، كما ترى، فهو بدينٌ بعض الشيء وضعيف البنية وناعم مثل الفتيات، وأريد له أن يصبح على يديك رجلاً وأن يعمل عندك في المنشرة خلال العطلة الصيفيّة. ما هذا الجيل يا (أبو دياب)؟ هل تذكر عندما كنّا في مثل سنّه؟ كان كلٌّ منّا قد تعلّم حِرفةً تكفيه الجوع.

حدّق فيّ أبو دياب الذي كان يجلس على صندوقٍ خشبيٍ صغير؛ وأنا أنظر حولي باستغرابٍ واتّجه بعينيّ خلسةً إلى داخل المنشرة حيث ألواح الخشب الكبيرة مصفوفةٌ بعضها فوق بعض، والآلات موزّعة على جميع الزوايا.

-كم عمرك يا فريد؟

توّجه أبو دياب بالسؤال إليّ.

-عشر سنوات عمّو..

أجبته على الفور.

-لا لا لا.. أولاً يجب أن تخفض صوتك عندما تتحدّث مع الكبار، ثانياً؛ بعد أي إجابةٍ تقول لي معلّم، هنا يوجد معلّم ولا يوجد عمّي وصديقي وابن صديقي، ثم ما صوت الفتيات هذا؟ يجب أن يكون صوتك عريض مثل الرجال!

قال أبو دياب وهو ينظر إلى والدي رافعاً حاجبيه وراح الاثنان يضحكان.

سأله والدي:

-ومتى يستطيع فريد أن يبدأ بالعمل يا أبو دياب؟

-غداً إن شئت.

-توكّلنا على الله.

وهكذا تم توظيفي بعمر العشر سنوات بينما أرمق المحيط بامتعاضٍ والضيق يتملّكني مصحوباً بألمٍ متصاعدٍ في بطني.

أيقظني والدي في صبيحة اليوم التالي عند السادسة صباحاً، لم أستطع الاستيقاظ على الرغم من صراخه المتكرّر، فما كان منه إلّا أن انقضّ عليّ باهتياج وحملني من سريري ونصبني أمامه:

-أقول لك استيقظ يا ولد..

صرخ بي وأمسك بكأس الماء ورشّه على وجهي الذي شهق بين يديه.

-هيّا إلى الحمّام.

تابع صراخه.

-لا تقسُ على الولد!

قالت أمّي وخطفتني من بين يديه وأخذتني إلى الحمّام.

-سيصبح رجلاً شاء أم أبى!

قال والدي وهو يغادر الغرفة.

-وهل عليك تعذيبه لكي يصبح رجلاً؟

نادت أمّي من الحمام.

-وهل تريدين تربيته بنفسك ليصبح امرأةً مثلك؟ أنا أدرى بمصلحة ولدي..

قال وهو يعبر باتّجاه المطبخ.

*****

كنتُ واقفاً أمام باب المنشرة المقفل عند الثامنة بعد أن أجهدتُ نفسي لتذكّر الطريق، الشمس تلسع رأسي لسعاً ويكاد يغمى عليّ من شدّة الحرّ، فكّرت عدّة مراتٍ في العودة إلى المنزل، ولكنّني لم أجرؤ. عند العاشرة أطلّ أبو دياب من بعيد.

-أحسنت يا فريد.. أتيت باكراً.

-أجل

أجبته وكلّي أملٌ بأن يفتح الباب سريعاً لأحتمي في الداخل.

رفع أبو دياب باب المنشرة ودخلنا إليها، كانت باردةً من الداخل ورائحة الأخشاب تثير الغثيان، تلك الرائحة التي أكرهها إلى يومي هذا. كان أبو دياب رجلاً في منتصف العمر، طويل القامة نحيل البنية، تغوص عيناه عميقاً في جمجمته، اجتاح الصلع رأسه مبكراً، خفيف الشاربين مما يزيد من كبر حجم أنفه وإذا ما ترك لحيته ليومين من دون حلاقة تظهر الفراغات الخالية من الشعر على خدّيه، سنّه الأمامي المكسور يجعل من النظر في وجهه عندما يضحك أمراً مزعجاً، يرتدي دائماً قميصاً مقلّماً فضفاضاً جداً وبنطالاً قماشياً زيتي اللون.

-تعال يا ولد.. هاك عشرة قروش، اركض الآن إلى المخبز واجلب لنا رغيفَي خبز مشروح ساخنيَن بخمسة قروشٍ ثم اجلب بالخمسة قروشٍ المتبقّية جبناً وزيتوناً أسود من دكّان (أبو صابر).

نظرتُ إلى العشرة قروش ثمّ إلى وجه ربّ العمل باستغرابٍ فصرخ بي:

-ما بك؟ هل تجمّد عقلك؟ تحرّك!

خرجتُ من المنشرة إلى لهيب الحرّ من جديدٍ دون وجهة، فلم أجرؤ حتّى على سؤال معلّمي عن مكان المخبز، مشيت في الشارع جيئةً وذهاباً محتمياً بجدران المنازل المتقاربة قبل أن أسأل امرأةً عجوزاً ترتدي عباءةً سوداءً وخماراً:

-مرحباً! هل تعلمين أين هو المخبز يا خالة؟

-في الشارع التالي على اليمين.

قالت وأومأت بيدها باتجاه المنشرة.

-شكراً يا خالة..

هتفتُ ممتنّاً ومضيت إلى المخبز.

قلت للفرّان:

-عمّو أريد رغيفَي خبز مشروح بخمسة قروش.

-ابن من أنت؟

سألني وهو يدسّ الرغيفين في كيسٍ بلاستيكيٍ شفّاف.

-ابن (أبو فريد)..

-أبو فريد.. ممم..

دمدم الفرّان ونظر إلى الأعلى، ثم استطرد:

-ماذا يعمل والدك؟

-بابا يعمل في التمديدات الصحيّة.

-ممم.. لا أعرفه.

قال الرجل ومدّ الكيس إليّ وتناول من يدي الصغيرة القروش الخمسة.

كان والدي في ذاك الوقت لم يبدأ عمله في التجارة ولم يبنِ أعمدة مملكته المزعومة بعد، إنّما كان مجرّد عامل تمديداتٍ صحيّةٍ ذي دخلٍ ضئيلٍ، ولم تبدأ الأموال تنهمر عليه حتّى زاره أحد أصدقائه من أيّام الخدمة العسكريّة من مدينة الضمير المحاذية للحدود اللبنانية؛ وعرض عليه العمل معه في التهريب، واستمرّ في عمله هذا مع صديقه من عام ١٩٨٠ حتى عام ١٩٨٢. بالكاد كنا نراه خلال تلك الفترة، يأتي كل شهرٍ أو اثنين بزيارةٍ إلى المنزل حاملاً لنا الكثير من الحلويات والألعاب غير المتوفّرة في سوريّة. كان الحذر يكتنفُ شوقي لعودته إلى المنزل في كلّ مرّة، ويحدوني الأمل بأنّه قد تغيّر بطريقةٍ ما، إلّا أنّه كان يجهز على آمالي تلك في غضون ساعاتٍ معدودة، حيث كان لا يلبثُ حنان البدايات ينضب، ويخرج المارد المتعطّش للضرب والقسوة العبثيّة من داخله، فلا يسلم من عنفه المنفلت أيٌّ منّا.

عدّتُ إلى المنشرة بعد أن ابتعتُ الجبن من الدكّان المجاور.

-بردَ الشاي ولم تأتِ! أين كنتَ حتّى الآن يا ولد؟

-لم أجد الفرن فوراً.

قلت وأنا أضع الخبز والجبن على الطاولة الخشبية أمام ربّ العمل.

اقترب أبو دياب منّي وأمسك بشحمة أذني وشدّها إلى الأعلى فوقفتُ على رؤوس أصابع قدميّ مكشّراً وجهي:

-هذه لكي لا تنسى مرّةً أخرى أن تناديني "معلّم".

ثم صفع رقبتي من الخلف صفعةً ليست بالعنيفة وقال:

-وهذه لكي لا ترمي الحاجيات هكذا على الطاولة.

-أمرك معلّم..

قلتُ ناظراً إلى الأرض.

-هكذا أريدك أن تكون، مطيعاً ومؤدّباً دائماً.

أمضيتُ يومي في مساعدة (أبو دياب) الذي كان يحمّلني فوق طاقتي في محاولةٍ لإجباري على أن أصبح رجلاً، ولو كان الثمن كسر ظهري.

عند الساعة الخامسة جاء الفرج بأن أخبرني معلّمي بأن عليه إقفال المنشرة باكراً.

وصلتُ إلى المنزل فاحتفت والدتي بقدومي أيّما احتفاء:

-أهلاً بالرجل الصغير. كيف كان العمل؟

-لا بأس..

أجبتها لها باغتمامٍ وعلى مضض.

-هيّا إلى الحمّام واخلع ثياب العمل وعلّقها خلف باب المنزل.

كنتُ حين وجبة العشاء على موعدٍ جديدٍ مع محاضرةٍ مملّةٍ في المسؤوليّة والأدب من والدي، تلقّيتها ناعساً تعباً أحتمل آلام ظهري التي تسبّب بها حَملي قطعَ الخشب الكبيرة بصمتٍ كما تقتضي الرجولة. كنتُ أضع ألواح الخشب الخشن على كتفي فتكشط جلدي حتى يكاد يُرى اللحم.

نهضتُ في اليوم التالي عند السابعة وكنتُ عند الثامنة والنصف في المنشرة حيث كان أبو دياب قد وصل مبكراً:

-صباح الخير معلّم..

قلتُ لـ(أبو دياب) الذي كان يجلس خلف مكتبه منتظراً.

-نحن نفتح المنشرة عند الثامنة على ما أظن.

-نعم يا معلّم، ولكن بالأمس أنا...

-هذا لا يهم، أنا المعلّم وآتي متى أشاء، وبغضّ النظر عن ذلك، عليك أن تكون دائماً قبلي هنا، هل فهمت؟

صرخ أبو دياب بي وجمّدني من الخوف.

كان الرجل كلّما نجح في إثارة رعبي بصوته الغليظ يبتسم وكأنّه انتصر على عدوٍ له، ويغتبط بالقدر الذي يظهر فيه الخوف جليّاً في ملامحي.

-تعال واجلب لنا الفطور ولا تتأخّر.

صرخ بي ومدّ إليّ بالعشرة قروش.

كنّا نعمل ظهيرة ذلك اليوم وكنتُ أساعده في تقطيع ألواح الخشب الثقيلة وأعدّها لوحاً لوحاً، حيث كان كل لوحٍ منها يزيد من آلام ظهري ويترك خدوشاً على كفّي لا يزال بعضها يؤلمني حتّى اليوم. بعد أن انتهينا من الألواح الواجب تقطيعها نادى عليّ أبو دياب وهو يطفئ آلة تقطيع الأخشاب الكبيرة:

-ضع إبريق الشاي على البابور* لنشرب الشاي ونستريح.

دلفتُ إلى القسم الخارجي للمعمل حيث مكتب (أبو دياب) وقربه البابور وعلبٌ فيها سكّر وشاي وقهوة. بعد محاولاتٍ متكرّرة، نجحتُ أخيراً في تشغيل البابور. وضعتُ إبريق الشاي عليه وأنا أشعر بشيءٍ من الفخر، كأنني أنجزتُ مهمّةً عظيمة. في أثناء انتظار الماء ليغلي تسلّل صوت البابور المرتفع إلى أعماقي، فاستيقظت داخلي قشعريرةٌ غريبةٌ وشردتُ بعيداً. أحسستُ بشوقٍ جارح إلى أمّي وأختي لمى، وكأنّ آلاف الأميال تفصلني عنهما.

نظرتُ حولي، أحبس غصّةً في حلقي، وراودتني رغبةٌ جامحةٌ بالهرب. فكّرتُ: لو أنّني أستطيع الفرار من هذا السجن الآن، قبل أن أُحضّر الشاي لمعلّمي حتّى، لكنتُ فعلتها بلا تردّد.

-معلّم، الشاي أصبح جاهزاً.

قلت له بصوتٍ خفيضٍ وبمنتهى الحذر.

-هاته إلى هنا يا فريد وتعال لنشربه معاً.

جئت بالإبريق والكؤوس ووضعتها على صندوقٍ خشبي أمامه ثم وقفتُ بقربه:

-ألا تريد الجلوس يا فريد؟ هيا استرح

قال لي بنبرةٍ لطيفةٍ لم أعتدها.

-بلى

أجبتهُ وهممتُ بإحضار كرسيٍ فناداني الرجل:

-تعال واجلس هنا

قال وهو يطرق على فخذه.

ارتبكتُ ولم أدرِ ما عليّ أن أفعل فأومأ لي بنبرةٍ أكثر صرامة وقطّب حاجبيه:

-تعال ولا تخف! أنا مثل والدك

قال ذلك بعبوسٍ ثم أفلت ابتسامةً محاولاً طَمْأنتي بينما أنظر إلى مكان سِنّ الرجل الناقص في مقدّمة فكّه، وأسأل نفسي: "أيّ ابتسامةٍ قبيحةٍ هذه!".

اقتربتُ بحذرٍ وخوف وجلستُ على فخذه وراح هو يمسّد على ظهري. رويداً رويداً جعل الرجل يعدّل جلستي في حضنه فبدأتُ أشعر بشيء غريب، وكأنّما جسمٌ ما تحتي يزداد صلابة. حاولتُ الإفلات أكثر من مرّةٍ بصمت، ولكن الرجل كان يمسكني في كلّ مرّةٍ بقوّةٍ أكبر وبدأ بعد ذلك يحرّكني بين قدميه ويداعب ذلك الشيء المتصلّب بجسدي الصغير. حاولتُ الاقتراب من إبريق الشاي قائلاً:

-الشاي..

-دع الشاي الآن..

همس أبو دياب في أذني وأعاد تثبيتي بين ساقيه.

أفلتني بعد دقائق، وكان قلبي يكاد يتوقّف، ثم قال:

-صبّ لنا الشاي يا فريد.

شرعتُ أصبّ الشاي بيدٍ مرتعشةٍ بينما يرمقني أبو دياب بنظراتٍ غريبة. هرعتُ لجمع قطع الخشب الصغيرة المنتشرة في كل مكانٍ ثمّ كنستُ الأرض من نشارة الخشب.

بعد ربع ساعةٍ رُفع آذان الظهر فانتفض أبو دياب قائلاً:

-أنا سأذهب إلى المسجد للصلاة وأنت انتبه إلى المنشرة يا فريد ولا تغادرها.

تساءلتُ حتّى المساء ألف مرّةٍ ومرّة، كيف كان عليّ أن أتصرّف كرجلٍ في ذلك الموقف؟ هل عليّ إخبار والدي بأنّني لم أستسغ طريقة تعامل (أبو دياب) معي؟ لقد كان حنانه ذلك ولمساته أشدّ عليّ من قسوته بآلاف المرّات. كنت أفضّل أن يضربني بأثخن قطعة خشب في المنشرة؛ على أن يجلسني على تلك العصا بين رجليه، أَم تقول مقتضيات الرجولة أن أتقبّل الأمر وكفى؟ آثرتُ الصمت أخيراً والحيرة والخوف يلتهمان قلبي.

اليوم التالي كان يوم جمعة، أي أنّي أمضيته في المنزل، وكنتُ أتعلّق بأملٍ واهٍ وأنتظر معجزةً تُجنّبني العودة إلى المنشرة يوم السبت. أمضيتُ النهار كلّه برفقة أختي لمى، نلعب ونضحك كما لو أنّ شيئاً لا يعكر صفو حياتنا. لكن، وسط كلّ تلك اللحظات العابرة، كان ذلك الشعور الغريب في حلقي يزداد ثقلاً. كأنّه يحرقني من الداخل، يخنقني ببطء مع مرور الساعات.

-كيف هو العمل لدى (أبو دياب)؟

سألني والدي على مائدة الغداء.

فكّرتُ مطوّلاً وأنا أمضغ اللقمة ببطءٍ شديد، فحملق والدي بي منتظراً الإجابة.

-لم أحبّ هذا العمل يا أبي

قلتُ بعد أن استجمعتُ قواي وابتلعت اللقمة.

-وماذا تريد أن تفعل إذن؟

قلتُ متردّداً:

-لا أدري، ولكنّني لا أحبّ هذا العمل

وضع والدي الملعقة على طرف الصحن:

-هل تريد إذاً أن تبقى في الشوارع لكي تضرب الأولاد ويضربوك؟ عليك أن تصبح رجلاً وتتعلّم تحمّل المسؤوليّة، أبو دياب رجلٌ عصاميّ يأكل لقمته بالحلال وبإمكانك التعلّم منه

-دعني في المنزل ولن أخرج إلى الشارع أبداً، أعدك بذلك

-لا أريد المزيد من الجدال! ستستيقظ غداً للذهاب إلى العمل!

انسدحتُ مساءً أمام الملحق الذي كنّا نسكن فيه على الحصيرة ناظراً إلى السماء المكتنزة بالنجوم اللامعة، شعرتُ بالدوار وكأنّ السماء تميل نحوي ببطء، توشك أن تنهار فوقي وتطحن جسدي الهزيل. نهضتُ ورحتُ أسهب في النظر إلى الشتلات التي يداعب الهواء وريقاتها. كان عليّ احتمال ذلك الحال وهو ما قمتُ به بالفعل. أمضيتُ شهرين في العمل لدى (أبو دياب) من دون أن أجرؤ مرّةً واحدةً على الامتناع عن الجلوس في حضنه أو منعه من شدّ أذني أو الصراخ عليّ عند كل مناسبة. كانت دورة تجهيزي لأصبح رجلاً؛ جحيماً عذّبني لشهرين كاملين، وصنعت منّي -

إلى جانب ما تبقّى من قصّتي- هذا الإنسان الممزّق الذي يجلس الآن أمامك.

5

برلين

(تشرين الأوّل - أكتوبر/ 1986)

بعد منتصف تلك الليلة، وبينما كان فريد يستعد للخلود إلى النوم دخل أيمن المنزل مثيراً ضجّةً كبيرةً وبدأ يطرق على باب غرفة فريد، حيث اعتاد هذا الأخير إقفاله من الداخل:

-افتح الباب يا لؤي، لقد جئت لك بدمية لتلعب بها الليلة

صاح وهو يضحك بصوتٍ عالٍ، وكان من الواضح أنّه لم يدخل المنزل وحيداً.

اتّجه فريد بحذرٍ إلى الباب وفتحه، فإذا بأيمن يدفع فتاةً ثملةً تماماً باتجاهه، قبل أن يرافق فتاةً أخرى إلى غرفته بينما يضحك الاثنان معاً. نظر فريد كالأبله إلى الفتاة التي كانت بالكاد تستطيع الانتصاب على قدميها وأدخلها غرفته. لم يعرف الشاب ما عليه أن يفعل، فما كان منه إلا أن اقتاد الفتاة إلى سريره، ثم عاد إلى طاولته وأشعل سيجارة. أغمضت الفتاة عينيها من فورها بينما يراقبها هو بحذرٍ والخوف يملأ قلبه وفكّرَ "ماذا لو أنّها قد تعاطت مادةً ما وحدث لها مكروهٌ بينما هي في سريره؟" أمضى فريد نصف الليل يتأمّل وجه الفتاة التي كانت تتنفّس أثناء النوم بعمقٍ وبصوتٍ مسموع وكانت رائحة الكحول تنطلق من فمها المفتوح وتملأ جوّ الغرفة، الأمر الذي دفع فريد لفتح الشبّاك على الرغم من برودة الطقس في الخارج.

استغربَ فريد! كيف لأيمن أن يعتقد أنّه قد يضاجع فتاةً ثملةً فاقدةً لوعيها؟ "الحيوان!" ردّد في داخله طوال الوقت. كان فريد بعيداً عن النساء كلّ البعد، ولم تكن تجذبه فتاةٌ واحدةٌ منهنّ، كانت رغبته الجنسيّة معدومةً تماماً، بل ويحتقر الجنس ويرى فيه فعلاً مقرفاً، الأمر الذي كان يثير قلقه في بعض الأحيان.

كانت الفتاة تبدو صغيرةً ورقيقة، ولا تشبه الفتيات اللاتي يصحبهنّ أيمن في الليل عادةً، ولكن هندامها كان يوحي بعكس ما تفصح عنه تلك الملامح اللطيفة، إذ كانت ترتدي (باندو) لا يغطّي إلّا صدرها وبنطالاً فضفاضاً من الجينز، ويبدو أنّها نسيت معطفها في مكانٍ ما. استيقظتْ قبل شروق الشمس، رفعت رأسها عن الوسادة مغمضةً عينيها وممسكةً رأسها بكلتا يديها، قبل أن تهوي برأسها مجدداً على السرير.

-صباح الخير

قال فريد.

رفعت الفتاة رأسها مجدداً ثم فركت عينيها وهي تنظر حولها بذعر.

-من أنت؟! أين أنا؟!

-لا تخافي، اسمي لؤي، لقد جاء صديقي بكِ في الليلة الفائتة وكنتِ ثملة.

-صديقك؟

-أيمن..

-آه.. أيمن، صديق لورا..

قالت الفتاة قبل أن تستجمع قواها وتسأل فريداً بصوتٍ أشد رصانة:

-هل...؟ ما الذي حدث؟

-لا تخافي، لم أقترب منكِ مطلقاً، هل ترغبين ببعض القهوة؟

-أجل، ولكن أرجوك خذني إلى الحمّام

قالت الفتاة بينما تنهض واضعةً يدها على جبهتها.

توجّه فريد إلى المطبخ لإعداد القهوة، هيّأ الماء ثم اتّجه إلى غرفة أيمن الذي كان لا يزال يغط مع فتاته في نومٍ عميق. طرق على الباب من

دون جدوى، ثم راح يضربه بقوةٍ ونفاد صبر، خرج أيمن من الغرفة بعينين شبه مغمضتين يفرك رأسه بيده وقال لفريد الذي أدار ظهره إليه عائداً إلى المطبخ:

-ماذا تريد أيّها المزعج؟ لحسن حظك أنّني لست فوق الفتاة، وإلا لكنت كسرت فكّك.

-علينا التحدّث

قال فريد وتابع سيره.

تبع أيمن صاحبه إلى المطبخ بعد لحظات:

-والحمّام مشغولٌ أيضاً! يبدو أنك أبليت بلاءً رائعاً، وأنا ظننتك الأبلهَ الذي لا يفقه شيئاً.

هتف أيمن وأطلق ضحكةً قوّيةً وهو يضرب كتف فريد.

-لديّ رغبةٌ بضربك أقاومها بصعوبة

-بضربي؟ عليك طبع قبلة شكرٍ على خدّي لأنّني جعلتك تفقد عذريتك أخيراً أيّها الراهب الزاهد

قال أيمن ورفع ذقن صاحبه بسبابته.

أمسك فريد بإصبع أيمن وشدّ عليه:

-لا تلمسني! حيوان!

-حسناً.. حسناً اترك إصبعي فأنا بحاجة إليه

ردّد أيمن وهو يقهقه.

أفلت فريد إصبع صاحبه وأدار ظهره له لمتابعة تحضير القهوة:

-هل لك أن تفسّر لي ما فعلته بالأمس؟

سأل قبل أن يسمع باب الحمّام يُفتَح، فاستطرد هامساً وهو يمطّ رأسه لمشاهدة الخارج:

-حسناً، ليس الآن، ولكن حسابنا عسير

أكمل تحضير القهوة ثم حملها إلى غرفته فوجد الفتاة تمسك بورقةٍ كانت على مكتبه وتحدّق فيها:

-أي خطٍّ هذا؟

سألت الفتاة وتابعت التمعّن في الورقة بفضول.

-هذا خطّ عربي

قال فريد ووضع إبريق القهوة والفنجانين على المكتب.

-هل أنت عربي؟

-نعم، أنا من سوريّة.

-آه من هناك! وهل صديقك عربي أيضاً؟

-ألا تعرفين؟

-أنا لا أعرف شيئاً عنه وكنت بالأمس في حالةٍ يرثى لها، أردت احتساء أي شيءٍ يجعلني أفقد الذاكرة.

-لماذا؟

-مشاكل عائلية، جدّي مريضٌ وأنا قلقةٌ عليه. الخطّ يبدو جميلاً جداً! ماذا كتبت على هذه الورقة؟ هل يمكنك ترجمتها لي؟

-صعب.

-لماذا؟

-لا أستطيع الشرح

قال فريد وقدّم فنجان القهوة إلى الفتاة.

-حسناً، لن أتطفّل عليك.

-ما اسمك؟

-هانّا

-اسم جميل

-ليس كثيراً

-ألا يعجبك اسمك؟

-ممم...

-لا عليكِ، انسي الأمر

قال فريد وسحب الكرسي من خلف الطاولة ليجلس.

جلست الفتاة بدورها على حافة السرير وشرعت تنظر حولها في جميع الاتجاهات:

-غرفتك تبدو جميلة! لو أنّك تعيد ترتيبها بشكلٍ مختلفٍ قليلاً.

-شكراً!

-على ماذا؟

-على الإطراء.

-ألن تخبرني ما المكتوب في الورقة؟

-إنها أبيات شعرية.. هراء.. لا عليكِ.

-ألا تستطيع قولها بالألمانية؟

-ربّما، لا أدري.

-إذن؟

-حسناً، سأحاول..

همهمَ فريد وسحب الورقة مجدّداً:

"كل شيء هنا ينقصه أنتِ

كل شيء يصرخ: "لمَ لستِ هنا؟"

ألم نتعاهد العهد الأبديّ

أن نظل معاً ما دامت الشمس تشرق وتغيب
والقطارات تذهب وتجيء
والناس تعشق وتكره
والقلوب تخفق؟"
-جميل!
قالت هانّا بينما تحدّق في الجدار المقابل كأنها تنظر إلى شيءٍ ما. كانت شاردةً تردّد: "جميل جداً!".
بعد صمتٍ قصيرٍ أخذ فريد يمزّق الورقة. تنبهت هانّا وبدت وكأنها عادت لتوّها إلى الواقع بعد أن كانت تائهةً في عالمٍ بعيد:
-لماذا مزّقتها؟!
قالت بعينين جاحظتين.
-لا يهم.
-حسناً.. يبدو أنّك تشتاق إليها كثيراً إلى درجةٍ جعلتكَ مرتبكاً إلى هذا الحد.
-لا، ليس كذلك، إنني أترجم للمرّة الأولى شيئاً من العربية، وعندما ترجمته بدا ركيكاً جداً.
قالت هانّا بحزم:
-لا. ليس كذلك.
-بلى.
-أقول لك لا، الألمانية هي لغتي الأم، ما قلته ليس بالركيك.
-حسناً، لقد مزّقته على أيّ حال
قال فريد بينما يرمي بفتات الورقة في السلة تحت الطاولة.
-وإذا قلت لك أن بإمكاني إعادته عليك، هل ستعيد كتابته؟

-لا، افعلي ذلك أنتِ إن أردتِ ذلك.

قال فريد باغتمامٍ وبنفاد صبر.

نهضت هانّا وسحبت ورقةً بيضاء من كدسة الأوراق والقلم الذي كان على الطاولة.

ارتبك فريد قبل أن يتناول سيجارةً من العلبة ويغادر الغرفة من جديد متوجّهاً إلى المطبخ، مجَّ السيجارة بعمقٍ ونفث دخانها في الجو قبل أن يركض باتّجاه غرفة أيمن ويشرع بالطرق على الباب كأنّه قد أصابه مسّ. فتح هذا الأخير الباب على مصراعيه وصرخ في وجه فريد بغضب:

-ألن ننتهي اليوم؟

تأمّل فريد وجه صاحبه بينما تنظر صديقته من داخل الغرفة بقلقٍ ملتفّةً بالغطاء، قبل أن يسدّد لكمةً إلى وجهه رمته أرضاً.

أمسك أيمن بفكّه وهو يضحك مغمضاً عينيه:

-لقد كان هذا جيّداً يا هذا! لو كنت أدري أنك تمارس الملاكمة لكنّا تسلّينا معاً أكثر

قال أيمن مقهقهاً.

خرجت هانّا من غرفة فريد وركضت نحوه ساحبةً إيّاه في الوقت الذي كان أيمن يستعد للانقضاض عليه. نهضت لورا صديقة أيمن وأدخلته إلى الغرفة مجدّداً.

في تلك اللحظة التقت عينا فريدٍ بعينيّ لورا، تجمّد الشاب بين ذراعي هانّا لبرهة، لم يرَ فريد في حياته كلّها إنساناً أكثر شبهاً بحبيبته نايا من تلك الفتاة.

*****

-لماذا ضربته؟

سألت هانّا بينما تحاول تهدئة فريد الذي كان يرتجف.

عندما لم تتلقَ هانّا ردّاً من فريد أمسكت بيده ونادت:

-لواي!

حملق فريد في عينيّ الفتاة عندما سمع ذلك الاسم ثم دمدم بصوتٍ خافت:

-ليس هذا هو فريد!

-ماذا قلت؟

-أقول إنّني لا أَضرب أحداً، ولكنّه يستحق، الحيوان.

-ربما كان يستحقّ، ولكن ما كان عليك فعل شيءٍ كهذا! أنت شاعر!

ضحك فريد بينما يردّد ساخراً:

-شاعر!

-نعم، أنت شاعر، دع الضرب لمرتادي الحانات ومقارعي الخمر!

-شكراً لك، لا تبدين لي أنّك وصلتِ إلى هنا من الحانة

-حسناً، سأسامحك على ما قلته أيها الشاعر اللطيف

قالت هانّا بينما تشدّ على يد فريد.

-أنا أعتذر، أنتِ لا تبدين كذلك فعلاً. ولم يسبق أن ضربت أحداً من قبل..

قال ذلك ثم ندم لأنّه كذب.

-أنا لا أرتاد هذه الأماكن كثيراً. أمّا لورا فلن أسامحها على رمي هنا ليلة أمس، أشكّ في أنّها كانت في وعيها حينها.

-ولكنّها ليست مخمورةً الآن، ومع ذلك لا تزال في سرير ذلك الحقير! لو كنتُ مكانكِ لما كلّمتها بعد اليوم أبداً.

-لا أستطيع، إنّها صديقتي الوحيدة، بل أكثر من ذلك بكثير. أعتقد أن الذنب ذنب صديقها الجديد ذاك، ولكنّني سأتحدّث معها عن فعلتها تلك.

-وأنا، لن أترك ذلك الوغد من دون حساب

-دعني أساعدكما في إصلاح الأمر

-لا أريد ذلك!

قال فريد وسحب يده من بين كفيّ هانّا باستحياء، وكأنّه انتبه لتوّه فقط أنّها تمسك يده.

-أرجوك، دعني أصلح هذا الأمر، أنتما تسكنان معاً ولا يجب أن تكونا على خلافٍ بسببي! أرجوك! ربّما كان ثملاً. سأسامح لورا لأنّني تعرّفت بسببها على شاعرٍ مثلك، وسامح أنت صديقك أيضاً! من أجلي.

-حسناً

قال فريد وقد فكّر في أن هذا أفضل له الآن.

توجّهت هانّا بصحبة فريد إلى غرفة المعيشة واستدعت أيمن وتصافح الصديقان هناك، غير أن أيمن لم يستطع الابتسام في وجه فريد، وراح يبرّر الأمر بأنّه كان متأكّداً أنّه لن يؤذي الفتاة، وهو ما أكدّه لصديقته لورا. بينما كان فريد يريد تفادي المشكلات والحفاظ على حياته مستقرّةً قدر الإمكان فحسب.

برلين

(شباط/ فبراير1989)

بعد أن تعرّف فريد على برلين الشرقيّة ولم يألفها؛ اعتاد لعدّة أشهرٍ ارتياد مقهى (سيبولي) في ساحة كارل ماركس كل يوم أحد، وفي التوقيت نفسه تقريباً. كان قد شارف حينها على إنهاء دراسة الفلسفة كيفما اتّفق ومن دون بذلِ مجهودٍ كبيرٍ في ذلك. علاقته بأيمن كانت بدورها قد تحسّنت نوعاً ما، فقد عدّل هذا الأخير سلوكه بعض الشيء بعد مروره بفترةٍ صعبةٍ نتيجة هجر صديقته لورا له والتحاقها بوالدتها في ألمانيا الغربيّة. بعد زوال الصدمة تحوّل أيمن إلى شخصٍ أكثر هدوءاً، يتغيّب عن المنزل لعدّة أيّام أحياناً، ويرتاد الحانات بشكلٍ أقل. ولكن هذا الحال لم يدم طويلاً، فقد عاد بعد فترةٍ إلى طباعه القديمة، وبشكلٍ أكثر حدّة.

كان فريد يستيقظ كل يوم أحد عند الظهيرة، يشرب قهوته ويتناول قطعة خبزٍ بالجبن، ثم يتوه في شوارع برلين الشرقيّة الحزينة، ويصل بين الساعة الثانية والرابعة إلى مقهى (سيبولي). في تلك الفترة كانت علامات السقوط قد لاحت منذرةً ومبشّرةً بقرب انتهاء حقبة الاتحاد السوفياتي. بينما يتداعى أحد القطبين المتنازعين على السيادة العالميّة، بدا أنّ نصف الكرة الأرضيّة يحدّق في فراغ المستقبل، متأهّباً لما قد يحمله هذا السقوط من سيناريوهاتٍ قاتمة. راقبَ فريد كلّ ما يجري ولا يدري ما هو قادم، يكزّ على شفته السفلى كلّما تخيّل أحد الاحتمالات التراجيديّة المطروحة، وهو الممنوع من دخولِ وطنه أو حتّى عيادةِ والدته التي كانت تحتضر ببطءٍ شديد، أو التي كان "عزرائيل يمضغها كل يومٍ مضغةً ثم يبصقها" على حدّ تعبيرها عندما هاتفت ولدَها للمرّة الأخيرة.

كان الشأن العام قد غدا يشغل الناس بعد أن تراخت قبضة الدولة الحديديّة وعصفت بها رياح الموت المحتوم. الثورات والانتفاضات راحت تجتاح بلدان الكتلة الشرقية من البلقان إلى البلطيق وحتّى أوروبا

الوسطى والشرقيّة، بينما كان من الواضح أن ألمانيا الشرقيّة ليست بمعزلٍ عن كل ما يجري، فالفقر حوّل معظم أحياء القطاع الشرقيّ في برلين إلى بؤرٍ للبؤس والجوع والجريمة، إلّا أن الثورات المحيطة - وبخاصّة في بولندا والمجر- كانت دافعاً رئيسيّاً لتحرّك المواطنين البائسين في برلين الشيوعيّة.

كانت ليلة السبت السابقة تلك موحشةً جدّاً بالنسبة له، وكان قد أمضى معظمها في الكتابة. كان طيف نايا لا يغادره، أمضى تلك الليلة يكتب ويمجّ سجائره بقوّةٍ واضعاً إصبعه على جبينه ومسنداً يده اليسرى على سطح المكتب؛ كان يشعر بأنفاسها قربه، حتّى أنّه كان يشعر بالهواء المنبعث من رئتيها يلامس شحمة أذنه، بينما يسمع صوت لمى يناديه من بعيد، حتّى راح يضرب رأسه بيده وكأنّه يحاول إخراج شيءٍ ما عالقٍ في داخله.

عند الرابعة فجراً قرّر أخيراً التوجّه إلى السرير مرغماً، أطفأ مصباح مكتبه الأصفر ثم دفن رأسه تحت الغطاء وأغمض عينيه بقوة.

نهض في الصباح بعد نومٍ متقطّعٍ زاده إرهاقاً، أخذ ملف أوراقه ودسّه في حقيبته الجلديّة السوداء وغادر المنزل. وصل إلى مقهاه المفضل ورمى الحقيبة على الكرسي المجاور، كان قلبه يخفق في صدره فيشعر بضرباته وكأنها طبلٌ يُدَقّ في دماغه، وضع إصبعيه السبّابة والوسطى على رقبته وضغط قليلاً ليلحظ أن قلبه ينبض بسرعةٍ كبيرة، أغمض عينيه وأسند رأسه إلى الخلف فشعر كأنّما الكرسي ينتفض بجسده من شدة غليان الدم في عروقه.

أمسك بالقلم وشرع يكتب ويكتب..

كانت روايته تلك التي يحاول كتابتها من دون أي هدفٍ لا تحمل عنواناً بعد، كان يكتب ويصنع المزيد من المشاهد والأحداث ويلفّ ويدور حول الحدث الأساسي الذي لا يريد له أن يقع، كلّ ما كتبه من أحداثٍ في روايته كان يمضي باتّجاه ذاك المصبّ المحتوم، لا بدّ من وصف الجريمة بالتفصيل، وإلّا سيكون كلّ ما كتبه عبارة عن هراء لا أكثر. رمى القلم ونظر نحو السماء متأمّلاً المسافة من الأسفل إلى الأعلى، قبل أن يلتقط قلمه ويواصل الكتابة. قاطعته النادلة وسألت بلغة ألمانيّةٍ تشوبها لكنةٌ أوروبيّةٌ شرقيةٌ عمّا يريد أن يشرب: "قهوة، اثنان، لو سمحتِ" أجابها. "اثنان؟!" سألتْه؛ فأومأ لها بالإيجاب وأمسك بالقلم من جديدٍ مشيحاً بوجهه عنها.

راح يخطّ المشهد ما قبل الأخير، آخر فنجان قهوةٍ بين عاشقيَن، قبل أن تنتشلهما يد الإجرام والسطوة من حلمهما الرومانسيّ. شرب الفنجان الأوّل، ثم الثاني، وطلبَ الثالث، بينما يستهلك الكثير من النيكوتين الذي يتحوّل في دمه إلى مزيدٍ من الأدرينالين، فيستجيب قلبه لكلّ ذلك ويزيد من قوّة النبض.

وصل إلى مشهد الجريمة، اختفت برلين، ظهرت دمشق، ظهر الشرق، جحيم البنات والعشّاق، البشاعة كانت تحيط به من كل جانب، رائحة دم المحارم، رائحة أحلامٍ تحترق، رائحة مالٍ وبارود، رائحة روث. كانت البذاءة تحيط به، شتائمٌ تنتهي بالتاء المربوطة، تصدرُ بأصواتٍ متجهّمة، أنانيّة.

مضى بقلمه مسرعاً باتّجاه المشهد الأخير، حيث القاضي يبرّئ المتهم الذي يدّعي أنّه غسل شرفه بدم ابنته، ويقف مبتسماً في قفصه بينما الشرطيّ يخشخش بالمفاتيح ليطلق سراحه، يبتسم وقد انتصر على

الدم، سكينه كانت لا تزال في المنزل، ملطّخة وحادّة، وجاهزة لمزيدٍ من الدماء. والقبور كانت لا تزال تُفتح، جاهزةً لاستقبال المزيد من الأجساد الباردة. ومطرقة القاضي ستطرق يوماً وراء يوم، السجون مسرورةٌ بالتهام أعمار الشرفاء، وساحات البلد الكبرى وأبنيتها الرسميّة تكتظ بعديمي الشرف الطلقاء السعداء.

كان يكتب ويبكي، وهو يصف خروج المجرم ونور الشمس يلامس شاربيه المفتولين، وذات النور لا يجتاز التراب ليلامس بشرة الضحية النضرة، يصطدم بشاهدة القبر، بالاسم الحزين، يضيء على تاريخ الولادة الحزينة، والوفاة الحزينة، وتصرخُ بينهما سنواتٌ عشرون من الصمت، من الخوف، من الرغبة في الحبّ التي لا داعي لها.

أغلق فريد ملفّه، رمى قلمه جانباً ونظر إلى الصفحة الأولى؛ البيضاء، فكّر في العنوان، نظر حوله ليرى برلين الخائفة، برلين المضطربة، والتي تشي ملامحها بأن شيئاً ما عظيماً سيحدث.

عبَرَ آلاف الكيلومترات، كانت دمشق ساكنة وهادئة، يسودها الجنون بصمتٍ مطبق، كانت خرساء.

عاد بعد دقائق إلى الصفحة البيضاء ودوّن العنوان: "الحياة (في) مستشفى مجانين"، نزل قليلاً.. هل سيكتب اسمه؟ وأيّ اسمٍ أصلاً؟ أغلق الملف.

مضى باتّجاه المنزل وكانت قدماه بالكاد تستطيعان حمل جسده المثقل بالحزن. مشى بفتورٍ شديد، ساهماً وكأنّما عقله بات محبوساً داخل نصّه الذي أتمّ كتابته للتو. وما الفرق طالما أن نصّه يطابق واقعه تماماً ولا يتعدّاه من ناحية التراجيديا والفظاعة؟

فكّر في أن الحياة هي كذلك بالفعل، والبشر الذين نخالهم عقلاء ليسوا إلّا مجانين طلقاء. كيف نأمَن على حيواتنا بينما أيّ إنسانٍ ممن يحيطون بنا قد يرمي قناعه عن وجهه جانباً ليظهر حقيقته اللاآدمية؟

راح السائق يشتمه وقد أخرج رأسه من نافذة السيارة بعد أن أطلق العنان للبوق الذي أثار انتباه كلّ من كانوا في الشارع، نظر فريد في وجه ذلك السائق لبرهةٍ قبل أن يومئ له بيده معتذراً ويتابع السير.

مع وصول فريد إلى المنزل كان أيمن يستعدّ للمغادرة:

-لؤي.. لقد تلقّيت اتصالاً هاتفياً من الشام.

ارتعد فريد، فهو لم يعتد أن يتلقّى الاتصالات من عائلته في دمشق، بل هو من كان يتّصل بأمّه دائماً تلافياً للمشكلات. امتلاك هاتفٍ في ألمانيا الشرقية كان رفاهيةً لا يتمتع بها معظم الناس، ولكن -بحسب أيمن- فإنّ والده استطاع تأمين خطّ هاتفٍ لابنه.

-ومن كان المتّصل؟

سأل فريد فزِعاً.

-كانت والدتك على الأرجح، ولكنّني أعتقد أن عليك الاتّصال فوراً، فالأمر يبدو طارئاً.

قال أيمن وهو يغادر المنزل.

أثار الأمر قلق فريد، ولكنّه من جهةٍ أخرى قد اطمئنّ في أعماقه قليلاً، كون المتّصل كان والدته، أي أن الاتّصال لم يكن يحمل الخبر الذي كان يثير رعبه.

بعد عدّة محاولات نجح في الاتصال وردّت والدته:

-فريد..

-أمّي! كيف حالك؟

-بخيرٍ يا ولدي..

أجابت الأم بصوتٍ متعبٍ جداً وكانت تصارع لالتقاط أنفاسها.

-هل صحّتك بخير يا أمّي؟

استطرد فريد سائلاً.

-يا ولدي، ليس هناك الكثير من الوقت، أريد منك أن تسامحني على كل شيء..

صمت فريد وبدأ شهيقه ينسل عبر سماعة الهاتف.

قالت الأم بصوتٍ مرتجف:

-أرادت لمى الهرب من المنزل، ولكن السائق (أبو عدنان) وشى بها قبل أن تبتعد كثيراً، كان عليّ أن أتدخّل، كنت ربما لأستطيع إنقاذ ابنتي، لكنّني لم أتوقّع أن يقتلها، ظننتُ أنّه سيضربها فحسب.

-وأنا كنتُ أعرف أنّ لمى أرادت الهرب مع حسن. سامحيني يا أمّي، كان يجب عليّ أن أفعل شيئاً، لربّما كانت لمى حيّةً الآن لو أنّني فعلت أيّ شيء.

أطالت الوالدة المحتضرة الصمت ثم قالت منتحبة:

-أرجوك يا ولدي كن بخيرٍ وانتبه لنفسك.

-أنا سأعود يا أمّي، أريد العودة إلى الشام، وإخبار الشرطة بكل شيء.

-لا تفعل أرجوك، هذه وصيّتي لك! لا تضيّع نفسك أكثر! اصنع لنفسك حياةً شريفةً تليق بك.

-حياةٌ شريفةٌ أول أعمدتها كان مجبولاً بدم أختي!

بكت الأم.. وبكت، قبل أن تغلق الخط.

وضع فريد كلتا يديه على وجهه وانفجر باكياً، راح يتذكّر المرّة الأولى التي حكت له لمى عن قصة حبّها مع حسن، الشاب الجامعيّ وابن الحاج عبد الرحمن (أبو حسن) التاجر المعروف وأحد شركاء الحاج (أبو فريد) السابقين. لم يكن الحاج عبد الرحمن مجرّد شريكٍ عاديٍ للحجّي، فقد جمعتهما علاقة صداقةٍ شخصيّةٍ استمرّت طويلاً.

بعد سلسلة هجماتٍ مجهولة المصدر استهدفت مبانيَ حكوميّة وشخصيّاتٍ رسميّة في العاصمة السوريّة دمشق؛ شنّت السلطةُ سلسلة اعتقالاتٍ طالت المئات. كان من بين المعتقلين الحاج عبد الرحمن، وقد وُجّهت إليه اتهاماتٍ بتمويل عناصرَ تابعةٍ لجماعة الإخوان المسلمين التي نسبت لها الدولة تلك الهجمات. حاول أبو فريد في بادئ الأمر التدخّل بحذرٍ لمساعدة صديقه من دون جدوى، ثم ما لبث أن انقلب ضدّه وخاصمه بعد إطلاق سراحه. كان الحاج عبد الرحمن قد خسر معظم أمواله وأملاكه في الغوطة الشرقيّة المحاذية لدمشق لصالح الدولة في عمليّة سطوٍ مكشوفةٍ قامت بها الحكومة. بدورها لمى كانت صديقة حسن وقد كبرا معاً ونشأت بينهما فيما بعد علاقة حبٍّ ممنوعة قد تكتّما عليها.

دمشق لا تخفي شيئاً، تنضح بكل شيءٍ لأيّ أحد. أين عساها فتاةٌ مسكينةٌ وابنة تاجرٍ مرموقٍ أن تلتقي بحبيبها في وطنٍ يتاجر بالفضائح؟ كيف عساها تنظر إلى عيني عشيقها الشابّ في بلادٍ تحارب الحبّ وترى فيه كبرى الرذائل؟ كان كشف أمرهما في تلك المدينة سهلاً ومعتاداً كاختفاء مواطن، كتسيير جنازة، كقطف زهرةٍ نبتت وحيدةً على طرف شارعٍ حزين.

6
الجلسة الثالثة

هتفت لمى فور دخولي إلى المنزل:

-فريد، تعال معي لو سمحت، أريد التحدّث إليكَ في موضوعٍ خاص، أرجوك لا تلفت انتباه أحد.

قالت ذلك وهي تسحبني من يدي إلى غرفتها.

كنت قد شعرت خلال الأيام التي سبقت تلك الليلة بتغيّرٍ في سلوك أختي التي أصبحت أكثر صمتاً وانطواءً، لكنّني اعتدت حينها أن أعزو كل شيء ألاحظه فيها إلى تغيّراتٍ طبيعيّةٍ تطرأ على الأنثى في ذلك السنّ كما أخبرتني أمّي، ممّا حدا بي إلى الابتعاد عنها شيئاً فشيئاً منذ بلوغنا بناءً على تعليمات أمّي، إلّا أنّ لمى كانت دائماً تحاول التقرّب منّي لأخبرها عن حياة الشباب التي يخفونها عن الفتيات، كما يفعلن هنّ كذلك.

علاقة لمى بأمّي لم تكن جيّدةً كما ينبغي، فكان الشغل الشاغل لأمّي أن تنجو ابنتها من براثن المجتمع وتجد عريساً يليق بها و"يسترها" على حدّ تعبيرها. وهكذا باتت علاقة المُراهِقة بوالدتها ليست كسابق عهدها، الأمر الذي كان يثير استغراب لمى في البداية، حتّى صارت حياتها اليوميّة مع أمّها عبارةً عن جولاتٍ لا متناهيةٍ من إثبات البراءة والطهر والسير على الصراط المستقيم، وإن لم تكن الحاجة تدعو إلى ذلك كلّه في نظر لمى؛ يتخلّل ذلك مناكفاتٌ لا حصر لها، وبخاصّة أنّ أمّي تُعتَبر الوسيط بين لمى ووالدي الذي كان يمارس وصايته بشكلٍ مباشرٍ تارةً، وعبر أمّي تارةً أخرى.

-ما الأمر؟

قلتُ بينما هي تقفل الباب بعد أن تأكّدتْ أن أمّي لا تزال في المطبخ. جلستْ على طرف سريرها وبدا التردّد واضحاً في نظراتها.

كرّرت استفهامي:

-أخبريني!

-لقد صفعني اليوم أبوك على وجهي، وهمّ بضربي لولا تدخّل أمّك.

-تتحدّثين كأنّهما والدايّ وحدي!

-اسمع يا فريد، أنا سأترك هذا المنزل، والشخص الوحيد الذي سيعرف مكاني هو أنت!

-ماذا تقولين؟!

-قلت إنّني سأهرب من المنزل! وعليك مساعدتي، وإلّا سأصنع بنفسي شيئاً لن يرضى عنه أحد، لم أعد أحتمل كل هذا، لقد منعني من الخروج وقال أنّ عليّ أن أترك الجامعة.

-سيهدأ بعد يومين، ما الذي جرى؟

-طلبني أبو حسن منه لابنه مرّةً أخرى، فرفض وطرده هذه المرّة.

نهرتُها غاضباً:

-وهل ستهربين مع حسن؟ هل جننتِ؟

قالت بإصرار:

-أجل سأفعل!

-هذا سيدمّر العائلة برمّتها!

-هذه عائلةٌ لا تستحق سوى الدمار صدّقني!

-كفّي عن هذا الكلام! تعرفين أن والدكِ قاسٍ معي كما هو معك!

-ولكنّك شاب، بينما أنا فتاة..

-دعكِ من هذه الأفكار يا لمى.

-سأهرب، برضاكَ أو من دونه!

-لن تفعلي..

قلتُ ونهضتُ:

-لا تجبريني على فعل شيءٍ لا أحبّه.. لن أسمح لكِ بالهرب وكسر قلب أمّك!

صرخت لمى وهي تدفعني إلى خارج الغرفة:

-اخرج من غرفتي ومن حياتي، أنت مثلهم جميعاً! كلّكم متشابهون! جبان! اخرج!

كانت المرّة الأولى التي تصرخ فيها لمى بي وتوبّخني بهذه الطريقة، ولكن يبدو أن خذلانها كان أكبر بكثير، كنت أنا الشخص الوحيد في عالمها الصغير الذي تعتقد أنّها يمكنها الوثوق به، وبموقفي ذاك كان قد تداعى آخر سقفٍ في ذلك العالم تشعر تحته بشيءٍ من الأمان، ممّا زاد إصرارها على الهرب في أسرع وقتٍ ممكن، إلى عالم الحرّيّة، حيث الحبّ وإرادتها التي لا يمكن لشيءٍ أن يقفَ في وجهها.

شعرتُ بثقل كلماتي التي حاولتُ أن أشرح بها موقفي، وكأنّها حجارة تسقط على أرضٍ مكسورة أصلاً. لم تكن لمى تُصغي، أو ربّما، لم تعد قادرةً على ذلك، فقد تحوّل صراخها إلى صمتٍ داخليٍّ مدوٍّ، كأنّها تقف على حافة هاويةٍ لا صوت فيها سوى ارتداد صدى خيبتها.

منذ ذلك اليوم بدا وجهها شاحباً، يفيض بالغضب والألم في آنٍ واحد، وعيناها التي لطالما وجدتُ فيها ملاذاً آمناً تحوّلت إلى مرآةٍ تعكس مزيجاً من الحزن العميق والرغبة على الخلاص مهما كلّفها الأمر. بدا لي أن لمى لا تهرب من عالم أبي وأمّي فقط، بل تهرب منّي كذلك، من خيانتي لتصوّرها المثاليّ عنّي.

رغبتُ في داخلي أن أمدّ يدي وأمسك بها، أن أوقف عجلة الانهيار التي كانت تدور مسرعةً، لكنّني عرفتُ أن أيّ محاولة منّي قد تُعتبر اعتداءً آخر على حرّيّتها وإرادتها، على ذلك العالم الذي قررتْ أن تبنيه

من رمادِ عالمها القديم البائس. كنت أعلم أن رحيلها كان حتميّاً بالنسبة لها، ولكنَّ جزءاً منّي تمزّق وهو يرى الفجوة بيننا تتّسع أكثر فأكثر، وكأنّ كلّ كلمةٍ نطقتها كانت تضع لبنةً جديدةً في جدارٍ لم يعد بإمكاني تجاوزه.

7

برلين

(شباط / فبراير 1989)

استيقظ فريد من النوم في وقتٍ متأخرٍ على أوجاعٍ في رأسه ورقبته ليجد أرضية غرفته متّسخةً بأعقاب السجائر ورمادها، كان قد استلقى على سريره بعد منتصف الليل بعد ساعاتٍ من البكاء الذي ترافق مع ضغطٍ رهيبٍ على صدره وآلامٍ في كتفه وذراعه اليسرى. نهض الشابّ وأمسك رأسه بكلتا يديه لدقائقَ ليستجمع قواه وينهض مرّةً واحدة، قبل أن يسقط جالساً على السرير على أثر الدوارِ والغشاوة التي غطّت على بصره. فرك عينيه وعاود النهوض بهدوءٍ أكبرٍ وتوجّه إلى المطبخ لصنع القهوة. شغّلَ إبريق تسخين الماءِ وجلس إلى طاولة الطعام. أمامه كانت جريدة مطويّة، فتحها من دون سببٍ وراح يتصفّحها بضجر، وقعت عينه على إعلانٍ صغيرٍ على هامش إحدى الصفحات؛ لا يكاد المرء يلحظه حتّى: (عجوزٌ متقاعدٌ يرغب في الحصول على شريكٍ يلعب معه الشطرنج كلّ يوم أحد).

لطالما كان فريد يحبّ الشطرنج وكان قد تعلّم اللعبة من زوج خالته الذي كان يعمل مهندساً معمارياً، لكنّ فريد لم يعد يمارس اللعبة منذ سنوات. أثار الإعلان اهتمامه وقرّر التوجّه إلى العنوان المذكور في يوم الأحد التالي. كان ما جذبه إلى الإعلان رغبة منه في استعادة شيءٍ جميلٍ عاشه في طفولته، وهو حبّه لمنزل خالته وعائلتها الصغيرة.

سمع فريد صوت فتح الباب فأغلق الجريدة على عجل:

-صباح الخير لؤي، يبدو أنّك استيقظت لتوّك.

قال أيمن بعد أن دخل إلى المطبخ ورمى مفاتيحه على طاولة الطعام.

-لم أذهب اليوم إلى الجامعة.

أجاب فريد وهو يسكب الماء في كوب القهوة.

-لؤي، لقد سمعت بكاءك أمس.. هل تحتاج إلى أيّ مساعدة؟

-سلمتَ يا أيمن.. كل شيءٍ على ما يرام.

راح أيمن ينظر إلى فريدٍ ويتفحّصه قبل أن يردّد وهو يربت على كتفه: "طيّب!"، فراح ينظر فريد إلى كفّ صاحبه وكأنّه يقول له: "لا تلمسني أرجوك".

حمل فريد القهوة وتوجّه إلى غرفته ليتبعه أيمن بعد دقائق ويطرق الباب:

-تفضّل..

دخل أيمن إلى الغرفة وسحب كرسيّاً خشبيّاً مركوناً في زاوية الغرفة وكأنّه منسيٌ هناك منذ الأزل، وجلس بالقرب من فريد الذي كان يسند ذراعه على مكتبه ويدخّن، وقال له بصوت أقرب إلى الهمس:

-دعنا نسهر الليلة سويّاً يا لؤي، لقد اشتقت للسهر.

-عليّ الذهاب غداً إلى الجامعة.

-دع الجامعة قليلاً.. عليك أن تروّح عن نفسك، ما بالك يا رجل؟ لمَ كلّ هذه الجدّيّة؟ نسهر في المنزل وحدنا إن أردت، كما أنني أريد أن أحدّثك في موضوعٍ مهم.. اتفقنا؟

-حسناً.. سأحاول أن أنجز مهمّاتي اليوم باكراً.

-لا تتعب نفسك، الحياة أبسط من هذا.

عاد فريد بعد تناول القهوة إلى السرير وأمضى معظم اليوم يحملق في سقف الغرفة، وكان كلّ ساعةٍ ينهض للتدخين. عند الثامنة مساءً عاد أيمن إلى المنزل، دقّ باب غرفة فريد وصاح من الخارج:

-تعال يا فريد، لقد أحضرت طعاماً لكلينا!

فتح فريد باب غرفته وسحب نفسه سحباً باتّجاه المطبخ، قال أيمن بينما يضع صحنيَن على طاولة الطعام:

-كنت أعلم أنّك لم تتناول أي طعامٍ منذ الأمس.

تناول الرجلان طعامهما ثم توجّها معاً نحو غرفة الجلوس.

-أنت لا تشرب الكحول، ممّا يصعّب علينا أن نقضي الليل معاً، ولكنّني أملك شيئاً قد يساعد بعض الشيء..

قال أيمن وأخرج من جيبه كيساً بلاستيكياً صغيراً وتناول كيس التبغ وأوراق السجائر التي كانت على الطاولة أمامه.

-ما هذا؟!

قال فريد باستغراب.

-لا تخف.. هذا حشيش.

-حقّاً؟ وتريد منّي أن أجالسك بينما تتعاطى الحشيش؟

-لا أبداً.. بل أريد منك أن تدخّن معي، أتدري؟ أعرف أنّك كنت ولداً مشاغباً يوماً ما، منذ تلقيت منك تلك اللكمة قبل ثلاث سنوات، تلك لم تكن لكمة شخصٍ مسالمٍ وودود، ثم إنّ هذا ليس مخدّراً، هل تعرف كم بذلت من الجهد لأحصل على هاتين القطعتين الصغيرتين؟ وكم دفعت من المال؟

-هذا طبيعي، لأن تعاطي هذه المادّة ممنوع!

-ها ها ها ها...

قهقه أيمن ثم استطرد وهو يتابع لفّ السيجارة:

-وأنت يا لؤي تريد الآن أن تقول إنّني أتعاطى الممنوعات في دولةٍ أخشى انهيارها وزوالها أكثر ممّا أخشى عزرائيل.

-ولمَ تخشَ ذلك؟ ألا تعتقد أن هذا بات أمراً محتوماً؟ نحن نعيش في دولةٍ فاشلة!

-ها نحن ذا! هل تريد أن تكرّر على مسامعي ما يقوله زملاؤك المشاغبون في الكلّية؟

-من تقصد بكلامك؟

-أقصد عصابة الألمان التي تمّ إلقاء القبض عليها الأسبوع الفائت! كريستيان وفيليكس والبقيّة.

-وكيف تعرف أسماءهم؟

-لقد رأيتك معهم عدّة مراتٍ وعليّ أن أعرف مَن يصاحب شريكي في السكن، أنا ابن هذه الدولة، ولن أتوانى عن الإبلاغ عن أيّ نشاطاتٍ تخريبيّةٍ قد يقوم بها بعض المراهقين.

-تتحدّث اليوم بلهجةٍ غريبةٍ جدّاً!

-وكأنّك تعرف كيف أتحدث! هل تستطيع أن تخبرني عن عدد المرات التي تكلّم فيها أحدنا إلى الآخر؟

-أيمن.. أنت تثير خوفي.

صمت أيمن ومدّ السيجارة إلى فريد قائلاً:

-خذ.. تنشّقْ بعض الدخّان من هنا، هذا سيساعدك على الاسترخاء.

-لا أريد، اعذرني.

-خذ أيها الأبله وكفّ عن لعب دور الولد الشاطر!

بلع فريد ريقه وتناول السيجارة من بين أصابع أيمنٍ بيدٍ مرتجفة، فعاجله أيمن بالقول:

-لا تخف، هذا حشيش وليس زرنيخاً!

وضع فريد السيجارة بين شفتيه بحذرٍ وتذكّر المرّة الأولى التي دخّن فيها سيجارة، ثمّ صوّب نظرةً ماكرةً إلى صورة مارلين مونرو المعلّقة على الجدار، سحب من السيجارة نفساً قصيراً ولم يستطع أن يحد بنظره

عن الصورة، شعر برغبةٍ تُبعَثُ في أعمق نقطةٍ في داخله، ولكنّها لا تجدُ طريقها إلى خارج ذلك البئر الغائر، تصرخ من هناك ولا يصل إليه من صرخاتها السحيقة سوى شذراتٌ من صدى. نظر فريد إلى السيجارة ومدّها سريعاً إلى أيمن من جديد، فامتنع أيمن قائلاً: "لا تكن طفلاً، دخّنْ كالرجال!". أعاد فريد السيجارة إلى فمه وسحب منها بعمقٍ أكبر وهو يُسهم في صورة المرأة الأجمل على الإطلاق محاولاً إلهاء نفسه عن التوتّر الذي يأكل أعصابه. تخيّل نفسه مرّة واحدةً يقبّلها، بل يقطّع شفتيها المنتفختين بعنف.

رمى أيمن صاحبَه بنظرة رضىً وراح في هذه الأثناء يلفّ سيجارةً جديدةً قائلاً:

-هذه لك، سألفّ واحدةً أخرى لي.

شرع فريد يسحب من السيجارة، وبعد كل نفَسٍ يراقب المحيط حوله وكأنّه يتأكّد من أنّه لا يزال واعياً. أشعل أيمن سيجارته وتراجع إلى الوراء وهو ينظر إلى فريد بابتسامةٍ غريبة.

أطفأ فريد سيجارته ولم يدخن أكثر من نصفها، ثم نظر إلى عينيّ أيمن الذي بدا له أنّه يتحرّك بشكلٍ بطيءٍ جداً، وبدأ يشعر بالدوار.

قال أيمن ببرود:

-لا تخف يا فريد، قد تشعر ببعض الإعياء لأنّها المرة الأولى.

نظر فريد إلى أيمنٍ بعينين جاحظتين وهو يفرك عينيه، بينما تابع أيمن كلامه بهدوء وخبث:

-لا تتعجّب يا فريد، أنا أعرف كلّ شيء، ألم تلاحظ مناداتي لكَ باسمك الحقيقي عندما أحضرت الطعام؟ لقد كان تصرفاً غريباً منّي وكان ليكلّفني البوح لكَ بمعرفتي بقصّتك باكراً، لكنّك لم تنتبه، لأنّك

فريد ولست لؤي! هذا تأكيدٌ كبيرٌ كنت بحاجةٍ إليه. يبدو أن فريد لم يخرج منكَ بعد، رغم مرور السنوات.

بدأ فريد ينظر حوله بارتباكٍ ويتحسّس وجهه، كان الخوف والشعور بضعف وعيه بمحيطه يحاصرانه، ثم تُجهِز عليه كلمات أيمن الذي اكتشف أمره.

قال أيمن:

-لا.. هذا ليس تأثير الحشيش عليك، بل هي الحقيقة، أنا أعرف كلّ شيء!

-عمَّ تتحدّث؟

-عن فريد الذي تريد أن تخفيه وراء لؤي، ولكنك أضعف من أن تلعب هذه اللعبة بإتقانٍ صدّقني، منذ اليوم الأول الذي التقيتكَ فيه؛ ومنذ اللحظة الأولى التي نطقت فيها اسمك المزيّف أمامي كان هناك شيءٌ مبهمٌ عليّ اكتشافه.

-ولمَ تريد اكتشاف شيءٍ كهذا؟

قال فريد مرتجفاً.

-لأنّني لا أحب دور المغفّل، بالأمس فقط؛ عندما تلقّيت ذلك الاتصال من دمشق، بدأت الصورة لدي تكتمل، هل تصدّق أنّني كنت أتوق إلى تلك الحقيقة أكثر من حرصك على إخفائها عنّي؟

-أنت إنسانٌ تافه!

قال فريد بينما يحاول النهوض والسواد يغشى عينيه.

-اجلس ولا ترتكب الحماقات يا فريد النسر، آه! لقد قرأت روايتك أيضاً، إنّها رائعة! أنت عظيمٌ يا رجل!

تجمّد فريد في مكانه ولم ينبس ببنت شفة، فتابع أيمن:

-أخبرَني والدي عنك سابقاً، مدّعياً أنّك ابن صديقه من دمشق وأنّك هنا للدراسة. بالنسبة إليّ يكفي أن يكون والدي هو من أخبرني بهذا لكي أُنزل القصّة برمّتها موضع الشّك، فوالدي هو آخر من أستطيع الوثوق بكلامه في هذا العالم، هذا يجب أن ينطبق عليك أيضاً يا فريد، ولكنّك أدركت ذلك بعد فوات الأوان على ما يبدو. الجميع يكبرون، ولكنّهم لا يكبرون في السن نفسه، كم استغرق منك الأمر لتعرف أنّ الحقيقة لا تصبح حقيقةً لمجرّد أنّ والدك هو من أخبرك بها؟ لعلّك لم تدرك هذا إلّا بعد مقتل شقيقتك..

انهار فريد على الأريكة مجدّداً..

-اسمع يا فريد، أنت لا تدرك بعد في أي عالمٍ نحن نعيش.

-وأنت الذي يدرك ذلك؟

سأل فريد بوجهٍ شاحبٍ.

-أعرف عن الحياة أكثر ممّا تعلّمت أنت عنها في دمشق، أنت تكاد تبكي الآن، وهو ما لن أفعله أنا مهما كلّف الأمر، سأجعل الجميع يبكون، ولكنّني لن أسمح لنفسي أن أبكي.

-أنت لم تعِش نصف ما عشته أنا، ثم تأتي لتلقي عليّ المواعظ والمحاضرات! لقد قرّرتُ منذ زمنٍ بعيدٍ أن أعيش على الهامش.. ماذا تريد منّي أنت الآن؟

-أريد أن أسحبك إلى معترك الحياة، إلى ساحة المواجهة، الحياة على الهامش للضعفاء.

-وكأنّني من اخترتُ ذلك! لقد قاموا بتفصيل واقعٍ لا يلائم مقاسي، ثم حشروني في داخله حشراً، وعندما أدركتُ أنّني لست إلّا بيدقاً ضعيفاً على رقعتهم النتنة؛ آثرتُ اتخاذ دور المتفرّج.

-المتفرّج الحزين الباكي، أليس كذلك؟

-هم من أرادوا لي ذلك!

-هم.. هم! كفّ عن التباكي كالنساء المطلّقات، ثمّ مَن هم؟ ألا تجرؤ أن تسمّيهم بأسمائهم؟ اسمع يا فريد.. أيّاً كان ما أوصلك إلى هنا فأنت هنا الآن، وعليك أن تعيش، الطاقة التي تهدرها بالدموع كفيلةٌ بجعلك الأقوى، أن تجعل منك سيّداً! الحياة ليست أمّك لتطبطب عليك عندما تحزن، بل على العكس؛ الحياة ستستغل فرصة انحنائك أمامها باكياً لتوجيه مزيدٍ من الضربات والإجهاز عليك، هذه الحياة معركة، هل تعلم ما قد يحدث للجندي إن أراد الفرار من ساحة المعركة؟ يُقتلُ من قبل رفاقه أو مرؤوسيه، لأن الهرب ممنوع.

-لا أعرف كيف يصدر كلامٌ كهذا من شخصٍ مثلك، من أنت؟ أنت إنسانٌ فاشلٌ، ولا تملك من المؤهلات شيئاً، متحجّر المشاعر ولا تملك أيّ أصدقاء، ثم تُحاضر بدروس الحياة؟

-أنت تستخفّ بي يا صديقي، وهذا ليس من خصال الشطّار. هل تعلم أنّ هذا الفاشل الذي تتحدّث عنه كان بإمكانه إيصالك إلى السجن؟ لقد زكّيتك لكي لا يتم استدعاؤك للتحقيق في قضية المخرّبين في الجامعة، وأتستّر كذلك على هويتك الحقيقية، ثم تقول عنّي متحجّر المشاعر يا رجل؟ هذه لم تعجبني منك.

-كيف ذلك؟

-هذا أمرٌ لا يعنيك، لكنّني وقفتُ في صفّك من دون أن تدري، وقمت بحمايتك، وها أنتَ الآن تعرف ذلك، ألا أستحق ردّ الجميل منك؟ لا أظنّك جاحداً يا فريد.

قال أيمن ذلك وابتسم ابتسامةً صفراء.

سأل فريد:

-ماذا تريد منّي أيضاً؟

-لا عليك يا صديقي، بما أنّنا هنا الآن فلا خيار لديكَ سوى المضيّ قدماً، قد تعتقد أن معرفتي بحقيقتك قد تؤذيك، وأنني قد أشي بك في أيّ وقتٍ أو ما شابه، لكنّني سأقول لك أنّ شيئاً كهذا لا يحقّق لي أي نفع، وأنا لا أنظر إلى الأمور بهذه الطريقة الطفوليّة، فلا داعي لأن تخاف منّي أبداً.

-ها؟ ثمّ تقول أنّك غير متصلّب المشاعر!

-لا يهم، ما أريده بسيطٌ جدّاً وسيجلب المنفعة لكلينا.

-وما هو؟

-أريد روايتك!

قال أيمن وهو يمدّ سيجارةً جديدةً إلى فريدٍ الذي صمت وتجمّد في مكانه.

-ولم قد أعطيكَ روايتي وهي ملكي؟ وماذا سيصنع شخصٌ مثلك برواية؟

قال فريد من دون أن يتناول السيجارة من يد صاحبه.

-لأنّك لا أحد! ليس لك وجود! أم تريد أن تثير الشكوك حول هويتك الحقيقية؟ هذا ليس في مصلحتك، هذا ليس طلباً أو أمراً، بل هو عرضٌ واتفاقٌ بيننا، بما أنّك لا تستطيع الظهور للعلن، فقد ينفعك أن تعيش في ظلّ أحدهم!

قال أيمن وهو يدسّ السيجارة بين شفتيه قبل أن يشعلها.

دخل فريد إلى غرفته وأخرج روايته من الدرج، نظر إلى العنوان: "الحياة (في) مستشفى مجانين".

وطالما أن الحياة كذلك كما يراها وكما صوّرها هو في روايته، فلا عجب أن يعطي روايته لأيمن فعلاً، على الرغم من جهله بما يريد هذا الأخير أن يفعل بها، لقد فكّر في أن خساراته في الحياة لن يزيدها سلب روايته منه، وما قيمة بعض الكلمات المكتوبة على أوراقٍ صفراء أمام كل ما جرى له؟

نزل فريد بالقلم بضعة أسطرٍ وكتب تاريخ اليوم:

(برلين الشرقيّة– 17 شباط / فبراير1989).

نزل قليلاً ودوّن:

(مجنونٌ آخر قد سلبني شيئاً آخر).

رمى الرواية جانباً، أشعل سيجارةً وفكّر في أمّه، خرج من الغرفة باتجاه الهاتف وضرب رقم منزل العائلة في دمشق من دون جدوى.

عاد إلى مكتبه، فتح دفتر مذكراته وكتب:

"إذا بدأ الشوق يلتهم قلبك، وبدأ يظهر الحزن على شكل حنين؛ فاصبر..

اصبر، فهذه الحياة لم تُخلَق لك.. أنت هنا لتتعايش..

أنت هنا لا أحدٌ في ظل الآخر..

أنت هنا لتعيش وتموت مُحتقراً في ظلالهم..

أنت هنا مجرد اسم تتلوه صفةٌ كاذبة..

عليك الصمود بين حشدٍ كبيرٍ من المختلّين..

ثم عدْ إلى ملجئك، أغلق على نفسك أبوابها، وابكِ كما الأطفال..

كن أنتَ كما أنتَ ولو أمام نفسك على الأقل..

اظهر بضعفك وحيرتك وانكسارك ورغبتك في الموت من دون ألم..

بالحبّ من دون ألم..

بالاختفاء من دون أن يلحظ أيّ أحد..

رغبتك الجامحة في أن تكون أنت، حزيناً، منكسراً..

في ألّا تقاوم حقيقتك التي ترفضها قوانين الحياة..

أن تجهر بها ولو في الخفاء وخلف الجدران..

كن أنت، ولو في الخفاء..

مزّق جواز السفر، الحقيقيّ والمزوّر، فكلّ الأسماء قبيحةٌ ولا تليق بك..

اخلع عنك رداءً حاكوه لك بمقاساتٍ تلائمهم، وبألوانٍ تلائمك..
فسلبوا منك اللبّ، ومنّوا عليك بالقشور..
فحسبكُ من حياتك التي صنعوها لك أن تنتشيَ بما تراه العين، وتصبرَ على ما يعانيه القلب..
عد إلى ملجئك وأغلق على نفسك بابها الصلب..
واكتب عن الصبر..
الصبر الذي لا تطيقه ولا تروق له..
الصبر الذي لا تحتمله أناكَ الطفولية..
أناك الصغيرة..
أناكَ الضحيّة..
الممحوقة..
ضحيّة الرجولة المبكّرة..
ضحيّة الإجبار على الرجولة المبكّرة..
ضحيّة أبٍ يعتدّ بشاربيه..
يعتدّ بسلطته المطلقة..
ضحيّة شهوة رجلٍ حقير..
ضحيّة الكذب والغرور والأنانيّة..
ثم اخلع أناكَ المجهدة عنك..
وكن أنت..
أو كن (لا أحد)..
كن ما يشاؤون ولا تشاء..
كن ذلك الذي سيسامح الجميع اليوم، ولن يكتب عن الصبر..

الذي سيستمرّ في البكاء، ثم سيخرج كصفحةٍ بيضاء إلى حياته القادمة الكاذبة..

كن من سيخلع من قدمه دور الضحيّة ويخرج وهو يتحامل على نفسه منتعلاً حذاءً ضيّقاً جداً، لا يفيد مع ضيقه اتساع العالم..

اخرج قويّاً، أو متظاهراً بالقوّة..

في ظلّ أحدهم..

الظلّ الذي يخنقك ويسلب منك الروح، ومن وجودك المعنى..

اخرجْ

بكلّ أملٍ، وأنت تبكي، وتحاول الصبر.."

دفع الدفتر جانباً ونظر حوله في كلّ اتّجاه، قبل أن يتناوله من جديد ويبدأ بتمزيق الأوراق بشكلٍ عشوائيّ ويحشرها في فمه محاولاً ابتلاعها، بينما تحجب دموعه رؤيته شيئاً فشيئاً. كان يريد ابتلاع ذاكرته، ابتلاع كل ورقةٍ خطّ عليها حرفاً، وترك الأوراق البيضاء ليملأها بزمنٍ جديدٍ في مكانٍ جديد.

نهض ومشى إلى سريره وراح يتخيّل مارلين مونرو وهو يداعب عضوه محاولاً قطع الطريق على حزنه، وفي داخله شعورُ خوفٍ كبيرٍ من والده الذي يبعد عنه عشرات آلاف الأميال لأنّه دخّن القنّب.

8

الجلسة الثالثة

كانت الفيلا التي نسكن فيها منذ عام ١٩٨٠ قصراً باذخاً بمعنى الكلمة، ولكنّني كنت أكرهها، كون الانتقال إليها قد أبعدني عن أصدقائي القدامى في المدرسة الثانويّة، وكونها تبعد عن المدينة عدّة كيلومترات. في إحدى زوايا حديقة الفيلا الكبيرة اعتدتُ التدخين خلسة. كنتُ أقرفص تحت إحدى الأشجار وأدخّن عدّة سجائر بسرعةٍ ثم أركض إلى الحمّام لأغسل يديّ، ثم إلى المطبخ لآكل أيّ شيءٍ يطرد رائحة الدخان من فمي، بعد أن أدسّ علبة السجائر تحت ثيابي. كان أجمل جزءٍ من الاستمناء بالنسبة إليّ هو الاستحمام بعد إنجاز الأمر من دون أن يلحظني أحد، ومن التدخين هو إكمال السيجارة وغسل يديّ سريعاً وكأنّ ذنبي ذاك كان يسقط مع الماء ويرحل غمّه بعيداً.

ذات ليلةٍ كنتُ أنفث دخان سيجارتي الثانية في الهواء عندما سمعتُ صوت والدي يناديني. ارتبكتُ ولم أدرِ ما عليّ أن أفعل.

-أنا هنا يا أبي..

صرخت وأنا أقترب بهدوء.

-أين كنت؟

-كنت أستنشق بعض الهواء.

نظر والدي إليّ وأنا أقف على مسافة ثلاثة أمتار منه بطرف عينه:

-اتبعني إلى الداخل

قال وأدار ظهره لي.

حاولتُ ترك مسافة بيني وبينه، لكنّه كان يبطئ من مشيته حتّى توقّف واستدار من جديد:

-اقترب يا فريد

قال بحزم.

اقتربتُ منه بحذرٍ فأمسك يدي بقوّةٍ وقرّبها من أنفه:

-هكذا إذاً! تدخّن؟!

صمتُّ وأخفضت نظري أرضاً فما كان منه إلّا أن سحبني ورماني أرضاً أمام باب البيت بغضبٍ وراح يفكّ حزام خصره قبل أن ينهال عليّ ضرباً وهو يصرخ:

-تدخّن يا ابن الكلب! تدخّن!

تدخّلت أمّي وأنقذتني بعد أن تلقّيتُ ضرباتٍ صبغت جلدي باللون الأزرق وتركت آثاراً على وجهي ورقبتي.

-دعيني أجهز على هذا الخنزير! إنه يدخّن!

-اترك الولد كرمى لله!

قالت أمّي وهي تحول بينه وبيني، بينما أرزح صامتاً تحت وابل صفعات حزام والدي الجلديّ.

بعد عناءٍ انصرف الحجّي وهو يشتم ويسبّ، فحملتني أمّي ورافقتني إلى غرفتي. جلستُ على طرف سريري ورحت أحاولُ حبس دموعي أمامها. ففي بيتنا كان البكاء مُعيباً للرجال.

-هداك الله يا ولدي.. ألا تعرف أنّ التدخين عيب؟ التدخين للزعران ولأبناء الشوارع.

قالت والدتي على الرغم من أنّني كنتُ أعلم أنّها تعلم بأنّني أدخّن منذ مدّةٍ ليست بالقصيرة.

تابعت صمتي قبل أن أُخرج علبة السجائر من تحت ثيابي وأشعل واحدةً متحدّياً والدي في عقر داره.

-أرجوك يا ولدي أطفئ هذه السيجارة ولا تجعل والدك يجنّ أكثر من ذلك.

-ماذا يريد أن يفعل بعد؟ هو يدخّن أيضاً.

-والدك رجل.

-وأنا ماذا؟

-وأنت كذلك.

تابعتُ تدخين سيجارتي قبل أن أرميها أيضاً وأدوسها بقدمي الحافية وأنا أغمض عينيّ بقوّة.

-أرجوك يا ولدي.. لا تؤذِ نفسك وتؤذني

قال أمّي وهي تأخذ علبة السجائر من يدي قبل أن تضمّني إلى صدرها وأنا أقاومها مبتعداً.

9

برلين

(شباط – فبراير/ 1989)

عند الحادية عشرة صباحاً بتوقيت برلين رنّ الهاتف، واستمرّ بالرنين حتّى نهض أيمن الذي استقبل المكالمة التي كانت تخصّ فريد. دقّ أيمن باب الغرفة قبل أن يفتحه:

-فريد.. لؤي.. استيقظ، لديك مكالمة من الشام.

لم يأتِ فريدٌ بأي حركة فاقترب منه أيمنٌ بحذر وراح يهزّه:

-استيقظ يا رجل.. أمّك تنتظرك على الهاتف.

هرع فريدٌ من سريره بعد أن أبعدَ يد أيمن عن كتفه بقوّة واتّجه نحو الهاتف.

-ألو!

-فريد حبيبي كيف حالك؟ هل عرفت صوتي؟ أنا خالتك ندى.

-أهلاً خالتي..

قال فريد بصوتٍ مرتجفٍ وكان قد فهم كل شيء ثم استطرد بعد صمت:

-لقد كنتُ أعلمُ أنّكِ من سينقل إليّ الخبر، لا والدي ولا أيّ أحدٍ آخر أستطيع تصوّره وهو يخبرني؛ فقط أنتِ.

-العمر لك يا بُنيّ.. حسبنا الله ونعم الوكيل.

قالت الخالة وهي تبكي قبل أن تتابع بعد أن استجمعت قواها:

-لم تكن هدى أختي فحسب، بل كانت أمّي، وأبكيها اليوم كما تبكي الفتاة والدتها.. تمّت اليوم مراسم الدفن.

-هل دُفِنت في قبر لمى؟

-رفض أبوك ذلك.

عجز فريد عن لفظ كلمةٍ واحدة. وبعد صمتٍ قصير قالت الخالة:

-لقد أعطتني أمّك رقم هاتفك وأكّدت أنّ عليّ استعماله لإخبارك فقط ومن دون علم والدك. لقد قال بالأمس أنّه سينقل الخبر إليك بنفسه عندما يفرغ من الدفن. ولكنّني لم أستطع ألّا أنفّذ وصيّة أختي الأخيرة. وأعرف أنّها كانت تملك المزيد لإخباري به حول هذه السرّيّة في التواصل معك، ولكنّها لم تكن تطيق الكلام، فقد أنهكها المرض في أيّامها الأخيرة.. رحمها الله.

أغلق فريد الهاتف وهو في حالة انهيارٍ تامّ، نظر صوب باب غرفة أيمن الموصد، ثم جرّ نفسه إلى غرفته جرّاً.

أجالَ عينيه في غرفته، جدرانها الصفراء، نافذتها المغلقة التي يبدو منها العالم في الخارج شديد الكآبة، مكتبه المتعب والأوراق المنثورة فوقه. لمسَ وجهه برؤوس أصابعه وقد فتح عينيه على آخرهما. الخواء كان قد داهم داخله، وكأنّ آخر شمعةٍ مضيئةٍ في قلبه كانت تخفت في الأيّام الماضية وها هي الآن تنطفئ. نهض إلى النافذة وفتحها، نظر إلى الخارج، إلى السماء التي كانت تحجبها الغيوم الرماديّة، وإلى الشارع البارد. تراكمت برك المياه على الإسفلت المتشقّق، وراحت الرياح تجرجر بقايا أوراق الأشجار اليابسة. الدنيا كلّها كانت تنضح بالحزن وتفيض به. كان وجهه لا يعكس أي مشاعر، كأنّ عضلات وجهه قد تصلّبت، أو أن دماغه قد فقد الاتصال بها. بدأ النصف الأيسر من وجهه يتشنّج، كأنّ الألم قرّر أن يعاقب جزءاً منه دون الآخر، ليتركه عالقاً بين الموت والحياة، بين الإحساس وعدمه.

تناول سيجارةً من العلبة وأشعلها وجلس على كرسيه. كان الدخان يلتف حوله مثل أشباحٍ غاضبة، وحرقة التبغ في حلقه لم تكن تختلف كثيراً عن شعوره بالنار تأكل داخله كلّه.

أخرجَ روايته من الدرج وراح يتأمّل الصفحة الأولى. طفق يضغط السيجارة على الورقة بحركةٍ بطيئةٍ، وهو يراقب الرماد يتساقط، كما تساقطت أحلامه على صفحة الصفراء. ضغط على الكلمة أكثر، عمّق الجرح في الصفحة البيضاء. لم يتمكن من السيطرة أكثر. انفجر. شهقاتٌ سريعة، دموعٌ غزيرة، وكأنّ كلّ شيءٍ قد تكسّر دفعةً واحدةً بعد أن تصدّع بطيئاً لسنوات.

دقّ أيمن الباب وفتحه بحذر. التفت فريد إليه نصف التفاتة، مشى أيمن إلى داخل الغرفة خطوتين قبل أن يسأل:

-ماذا جرى؟ بمَ أخبرتك والدتك؟

ازداد بكاء فريد فاقترب صاحبه ووضع يده على كتفه:

-ما الخطب؟

-لم تكن أمّي..

أجاب فريد وهو يبعد يد أيمن عنه.

-إذن؟

نفض فريد كتفه بقوّةٍ للتخلّص من يد أيمن:

-ولمَ لا تذهب وتسأل جهاز التنصّت الذي تخفيه في سمّاعة الهاتف؟

ارتبك أيمن بعض الشيء، مشى وجلس على سرير فريد.

-كانت خالتي.

دمدم فريد.

-حسناً.. لقد فهمت.. لك خالص عزائي!

-شكراً.

-يبدو أنّ خالتك باتت تعرف قصّتك الآن، أليس كذلك؟

-هل هذا ما تفكّر فيه الآن؟

قال فريد وهو يمسح دموعه عن خدّيه.

-حسناً.. أنت تعيش معي وأنا لا أريد إثارة المشكلات حول اسمي، حتّى في سوريا، من يعلم؟ الأوضاع هنا على كفّ عفريتٍ وقد أضطّر للجوء إلى هناك.

-ها أنت لا تفكّر إلّا في نفسك، في وضعٍ كهذا لن أجدَ أنا مكاناً ألجأ إليه، ولا يهمني ما قد يجري هنا أيضاً.

-ولكن لا! خالتك قالت لي أريد التحدّث إلى فريد، أي أنّها لا تعرف القصة على ما يبدو.

-لا يهمّني أي شيء بعد الآن، هذه اللعبة ليست لعبتي لآبه بها، وبالمناسبة؛ هاكَ روايتي، لا.. عفواً! هاكَ روايتك، تستطيع أخذها الآن.

-دعها لديكَ يا فريد، سنتكلّم في أمرها لاحقاً!

-ولمَ لاحقاً؟ هل سيختلف الأمر إن كنت حزيناً على موتِ أمّي أو لم أكن بالنسبة لك؟ أنا لا أعتقد أن الحزن سيتركني بعد اليوم، فخذها ودعني أستريح. وإن لم تأخذها الآن فسأحرقها على الفور، ولقد بدأت بذلك بالفعل.

قال ورمى ملفّ الرواية في حضن أيمن الذي لم يكفّ عن النظر إلى فريد قبل أن يستأنف هذا الأخير:

-ماذا؟ هل تشعر بالخزي؟ لستَ مضّطراً إلى ذلك، أقسم لكَ أنّني كنت أريد إحراقها، خذها واصنع بها ما شئت، والآن اتركني لوحدي لو سمحت.

نهض أيمن مغادراً الغرفة والملف في يده:

-سأقوم بالبحث عن منزلٍ جديدٍ قريباً..

قال فريد فتسمّر أيمن في مكانه، التفتَ إلى فريد للحظةٍ وتابع منصرفاً، توقّف عند الباب ثم استدار إلى صاحبه الذي كان قد يُتّم لتوّه:

-أعرف جيّداً ما تشعر به الآن، لقد اختبرتُ هذا الشعورَ قبل خمسة أعوام، أنا اليوم في المنزل إن احتجت إلى أي شيء.

-لم تخبرني قبلاً بأنّ أمّك متوفاة

قال فريد من دون أن يلتفت.

-وهل تعتقد أن الإنسان قد يتحوّل إلى حجرٍ وله أمّ؟

قال أيمن وأغلق باب الغرفة خلفه.

*****

كان فريد قد قرّر في الليلة الفائتة بعد جلسته مع أيمن أن يذوّب نفسه في الحياة الجديدة. اقتنع أخيراً بأنّه مسلوب القرار والإرادة بشكلٍ كلّيّ، وأنّ قراراً واحداً فقط يُسمَحُ له باتّخاذه؛ الاستسلام. اختار ذلك لنفسه على الرغم من إدراكه الداخلي التام بأنّ هذا ليس بقرارٍ يتّخذه ثم يقول في نفسه: "لقد انتصرت إرادتي". لكنّه أراد أن يخدع ذاته بذلك على الأقل، وإن لم يستطع أن يرضيَ ضميرهُ فقد أراد بهذه الخدعة إرضاء (فريد)؛ أو بقايا (فريد)، وإسكات صوته الداخليّ الذي يجلده بلا رحمة. كان يعرف أن الاستسلام ليس خياراً، بل حتميّة. كأنّ قصّة حياته بأكملها خُطّت منذ البداية على صفحةٍ لا يملك هو شقّها ولا تعديلها.

إلّا أنّ موت أمّه قد غمسه أعمقَ في وحلِ ألمه ولسعاتِ ضميره. كان كصفعةٍ باردةٍ على وجهه المتخدّر، كأنّ يد القدر انتشلته من وهمه للحظةٍ واحدةٍ فقط، ثم أعادته إلى دوامة الألم وقد تضاعفت قوّتها ألف ضعف. طفق يمعن في التفكير فيما كان يفعل عندما كانت أمّه تسحب آخر نفسٍ لها قبل أن تشهقَ مغادرةً هذا العالم. هل كان يأخذ سيجارة القنّب من أيمن بيده المرتجفة؟ أم يلاحق ظلّ حبٍّ وهميٍّ يتجسّد في هيئة مونرو؟ أم كان يبكي بينما يتبدّى له أنّ شريك سكنه اكتشف سرّه الذي قد يودي به؟ أم أنّه كان يفكّر في إعطاء روايته له أم لا؟ أم أنّه كان يجلس خلف طاولته يكتب نصّاً سخيفاً يواسي فيه نفسه ويغرقها بأوهام مقدرته على الاندماج في حياةٍ لا يريدها؟ أم كان يحاول الهروب من كل ذلك بمداعبة جسده في سريره؟

نظر إلى المرآة مع اشتداد دموعه وارتجافه. في المرآة كان شخصاً يشبهه إلى حدٍّ كبير، ولكنّ ملامحه أكثر حدّةً ونظراته أكثر ثقةً وثباتاً، لقد كان لؤي:

-ألن تكفّ عن النحيب يا هذا؟ بمَ كنتَ ستفيد أمّك أو تضرّها لو كنت عندها في الأمس؟ لستَ إلهاً يُعيد إلى الموتى أرواحهم بعد أن تنتثر في الفضاء، ولن تردّ لها السنين التي أبلت جسدها العجوز.

قال الانعكاس في المرآة.

حملقَ فريد مصدوماً في المرآة وراح يلمس وجهه بأصابعه، ولكنّ الانعكاس كان يشبك ذراعيه على صدره ويسهم في فريدٍ بوجهٍ بليد:

-أنتَ لا تقوى حتّى على قول (لا) لوالدك، ولا حتّى لذلك المراهق المتعجرف الذي يسكن معك هذا القنّ، فهل ستقول (لا) للموت؟ إنّه قاهر الجبابرة، حتّى والدك لن يستطيع حماية نفسه منه يوماً مهما

فعل. إنّه أقوى من الحاجّ، أقوى من (أبو دياب) وذراعيه الضخمتين، أقوى من أيمن وأشدّ مكراً منه. كان عزرائيل ليتخطّف روح أمّك ولو كنتَ تنام بقربها متشبّثاً بها، سينتشلها من بين يديك بينما تظن أنّك مطبقٌ عليها، سترحل وأنت ملصقٌ نفسك بها. ستنسلّ من حضنك بمنتهى السلاسة، بلحظةٍ واحدة.

قال الانعكاس وفقش بأصابعه قبل أن يلوّح بيده ويستطرد:

-الأمر أشبه بالسحر، مثير، أليس كذلك؟

نظر فريدٌ حوله برعبٍ وحاول أن يشيح بوجهه عن المرآة، ثم ما لبث أن عاد ينظر إليها:

-إذن؟ أمّك ماتت، وإنّه لأمرٌ حزين. ماتت بعد أن لعبت دورها في الحياة وقضت قسطها منها.

-كنت أودُّ لو قبّلت جبينها، لو حمّلتها السلام والعناق لأختي لمى، لو وقفتُ على قبرٍ يضمّهما معاً، لو استطعت البكاء فوق قبريهما..

قال فريد باكياً.

-هذا لن يفيد، إن كنت تظن أنّهما الآن في الأسفلِ فستقضي حياتك كلها هائماً مشتاقاً لوقوفك في مكانٍ قد لا تطؤهُ قدماكَ أبداً. وإن كنتَ تظن أنّهما الآن في الأعلى فأنت تحتهما، ارفع نظركَ وتحدّث إليهما، على الأقل في هذه الحالة، فأنا متأكدٌ أنّك ستصعد إليهما يوماً ما. الخلود هنا للكلمات، اسحب ذلك الملفّ واحتفظ به لنفسك، أَهدِ الخلود لنفسك، إن كان لا بد أن تكون لؤي، فكن لؤي الذي لا يموت. وانسَ أمر القبور والموتى، لا تكن غبيّاً، تلك جثثٌ تهترئ الآن وتأكلها ديدان بطنها ليس إلّا.

دفن فريد رأسه بين ذراعيه فوق الطاولة وانفجر باكياً وهو يدمدم: "أمّي".

*****

أمضى الأيام القليلة التالية لوفاة والدته غارقاً في صمته ولا يتناول من الطعام إلّا ما يبقيه على قيد الحياة، كما كان يستهلك الكثير من السجائر، وكلّما لفّ واحدةً تذكّر دفاع والدته عن أبيه بعد كل خلافٍ أو شجارٍ بينهما بقولها: "قلب والدكم أرقّ من ورق السجائر!" وهي وجهة نظرٍ لم يكن يفهمها فريد مطلقاً، إذ كان يرى قلب والده أكثر سماكة من جدارٍ فولاذيّ.

استيقظ صباح الأحد، وكعادته ظلّ يتأمّل سقف الغرفة لساعةٍ كاملة قبل أن ينهض نحو المطبخ ليعدّ القهوة، لاحظ الجريدة تحت الطاولة وتذكّر أنّه كان ينوي هذا الأحد الذهاب لمقابلة العجوز بعد الظهر. اشتدّت دقّات قلبه بلا سبب ومدّ يده المرتجفة وتناول الجريدة ليقرأ العنوان، ولم يكن يعرف إن كان حقّاً لا يزال يريد الذهاب أم لا. اتّجه ناحية الحمّام ونظر إلى وجهه في المرآة بعد أن تجنّب ذلك خلال الأيّام الماضية. كانت لحيته قد طالت كثيراً والشعر قد انتشر على خدّيه ورقبته حتى كاد يتّصل بشعر صدره الكثيف. لمس المنطقة تحت عينيه ودلّكها بنعومةٍ قبل أن يبدأ بفركها بقوّةٍ وكأنّه يريد إزالة السواد عنها، كما خسر الكثير من وزنه. أفرغ مثانته ثم غسل وجهه وعاد ليكمل صنع القهوة قبل أن يحملها إلى غرفته التي اصفرّت جدرانها من أثر التدخين وانعدام التهوية.

أمضى وقته ساهماً في التفكير في الذهاب أو عدمه، قبل أن ينهض ليرتدي ملابسه ويتّجه إلى المقهى في ساحة كارل ماركس من دون أن يتّخذ أيّ قرار، بيدَ أنّه دوّن عنوان الرجل على قطعة ورقٍ ودسّها في

جيبه قبيل مغادرة المنزل. وصل إلى المقهى عند الواحدة، قام بطلب القهوة وبتدوين مذكّرةٍ في كرّاسته التي كان قد هجرها منذ أيّام:

"أن تكره أنفاسك وتحقد على مجرى الهواء المفتوح في صدرك، على رئتيك وقلبك الذي يصرّ رغماً عنك على الاستمرار في الانقباض والانبساط".

كتب ذلك وسحب من السيجارة بقوّة. كان ينوء بثقل جسمه، يعاني من جسده بكلّ أعضائه ويكره كلّ شعرةٍ فيه. كانت سماء برلين لا تبعث على التفاؤل، ملبّدة بغيومٍ رماديّةٍ لا هي تحمل مطراً، ولا تنجلي فتسمح للشمس بإزالة هذا الحزن المخيّم على المدينة. تُغلّف المدينة بحزنٍ خافتٍ لكنّه دائم.

لملم نفسه وقام بدفع ثمن القهوة قبل أن يذهب للبحث عن عنوان الرجل العجوز. استدلّ في النهاية إلى مأوىً للمسنّين في شارعٍ فرعيٍ يكاد لا يلحظه أحدٌ في "مارتسان" شرقيّ المدينة. وقف أمام المبنى القديم المبني من خرسانة باردة، وراح يحدّق في قطعة الورق التي كتب العنوان عليها. تردّد للحظة، شعر وكأنّه يخطو إلى عالم لا ينتمي إليه. تساءل إن كان قد نسي كيف يتحدث إلى البشر. بل، تساءل إن كان قد نسي كيف يكون إنساناً. حسم أمره وقرّر دفع الباب الذي وجده مقفلاً، فقام بقرع الجرس وانتظر دقيقةً قبل أن تفتح له سيّدةٌ تبدو في أواخر عقدها الخامس، ذات شعرٍ قصيرٍ مجعّد مصبوغٍ بلونٍ ذهبيّ، وتنظر إليه باستغراب:

-المعذرة.. أنا هنا.. لقد قرأت إعلاناً..

قال فريد متلعثماً.

-آه! يبدو أنّك أتيت لرؤية دافيد.

-من أجل الإعلان الخاصّ بلعب الشطرنج...

-أجل أجل عرفت.. ادخل

قاطعته المرأة بفظاظة قبل أن تدير له ظهرها.

مشى فريد خلف المرأة مستغرباً من صرامتها، وكاد يقفل خارجاً من المبنى قبل أن تلتفتَ ناظرةً إليه بشفقة: "يا لك من مسكين!"، تابعت السيّدة طريقها نحو السلّم الخشبي الذي كان بالكاد يستطيع حمل جسمها الثقيل وحمله معاً، فكان يهتزّ مع كل خطوة، حتّى إن فريد تشبّث بالدرابزين وتبعها بحذر.

لدى وصول المرأة إلى الطابق الثاني توقّفت للحظةٍ لالتقاط أنفاسها وضغطت على صدرها مكشّرةً وكأنها تتعرّض لنوبة قلبيّة، تنهّدت وقالت: "دافيد، أيها اللعين! متى ستموت أيّها العجوز الأخرق"، ثم نظرت إلى فريد: "كم من المرّات عليّ أن أسلك هذا الطريق إلى غرفة هذا المعتوه؟!".

رمقها فريد بملامحٍ متوجّسةٍ ثم قلب شفته السفليّة. مشت السيّدة خطوتين باتجاه بابٍ خشبيٍ كبيرٍ من درفتين وسحبت درفته اليمنى فأصدر الباب صريراً قويّاً أقرب إلى الزعيق تردّد صداه في كامل الممر الخاوي المفضي إليه. عبر فريد من خلال الباب بينما تثبّته السيّدة ممسكةً بمقبضه بقوّةٍ مفسحةً له مجالاً للدخول.

-دافيد يقطن في الغرفة الثالثة إلى الجهة اليمنى.

قالت المرأة بعد أن أغلقت الباب بحذرٍ فصدر منه صوت صريرٍ أقل شدّةً، وسبقت فريد الذي عاد إلى السير خلفها.

وقفت أمام الباب البنيّ المقشّر ودقّت عليه دقّتين، فصدر صوت همهمةٍ من الداخل وفُتحَ الباب بعد عدة ثوانٍ:

-أيّها الرجل الهرِم، لا ألحظ تقدّمك في السن إلّا من خلال ازدياد طول المدّة التي تحتاج إليها لفتح الباب، ومن اشتداد صوت سعالك ليلاً.

-عمتِ صباحاً يا كارولينا..

قال الرجل ضاحكاً وهو يمشّط غرّته براحة يده ويضغط عليها ببلاهة مراهق، وكأنّ كلمات المرأة قد أيقظت غروره فراح الرجل ذو العينين الزرقاوين يُبدي لها اعتداده بأن الصّلع لم يجد بعد طريقه إلى رأسه بالكامل كما فعل الشيب.

-ها هو ضيفك الجديد، هل أنتَ سعيدٌ الآن؟

قالت كارولينا قبل أن تلتفت إلى فريد قائلة:

-لقد ألحّ مطوّلاً من أجل نشر الإعلان في الجريدة!

همهم فريد قبل أن يقترب خطوتين حذرتيَن باتجاه الباب:

-مرحباً سيّد دافيد، أنا قرأت الإعلان و...

-سيكون لديكما متسعٌ من الوقت للحديث، أنا عليّ الانصراف الآن. يا إلهي! البشر كائنات تثرثر كثيراً!

كذلك قاطعته كارولينا وهمّت بالانصراف قبل أن توقفها جملة دافيد:

-هذه السيّدة لطيفة، ولكن ليس عندما يتعلق الأمر بي..

قال ذلك وأفلتَ ابتسامةً متوجّسةً أراد أن يخفيها.

-يبدو أن أحلاماً كهذه كانت سبب نومك لوقتٍ متأخر اليوم.

قالت كارولينا بجدّيّة واستدارت مسرعةً نحو باب الممر وهي تتمتم بكلماتٍ غير مفهومة.

قهقه دافيد قبل أن يدعو فريداً إلى الدخول:

-ادخل يا صديقي واستمتع بتجربتك اللطيفة هذه، فأنت لم ترَ شيئاً بعد، إن قُدّر لكَ أن تأتي مرةً ثانيةً إلى هنا –وهو ما لا أرجّحه– فستتعرّض للتفتيش من كارولينا.

-لماذا؟

قال فريد بينما يدخل على مهلٍ وينظر حوله في كل الاتجاهات.

-لا عليك.. اجلس هنا إن أحببت.

قال العجوز مشيراً نحو كرسيٍ ملتصقٍ بالجدارٍ قرب طاولةٍ خشبيةٍ مهترئة، واتّجه نحو المذياع لإطفائه بينما يتحدّث المذيع بحفاوةٍ غير معتادةٍ عن زيارة وزير الخارجية الأميركي لموسكو في ذلك اليوم.

-لقد ذهب الهراء إلى الجحيم، لا أعتقد أنّك مهتمٌ بالسياسة، سأحضّر القهوة، رقعة الشطرنج والأحجار في الصندوق تحت الطاولة..

قال الرجل وغادر الغرفة إلى المطبخ.

راح فريد يتفحّص الغرفة الضيّقة التي لا تحوي إلّا سريراً صغيراً وطاولة، وخزانةً للملابس من درفة واحدة، بالإضافة إلى مكتبةٍ حديديةٍ. كانت الكتب البالية تُشبه أرواحاً مهجورة، كلّ منها يحكي حكايةً مجهولة، والأدوية بجانب السرير تبدو كتعويذات تحاول إيقاف عقارب ساعة الموت عن الدوران.

نهض فريد ومشى باتّجاه المكتبة وانحنى ناظراً إلى الكتب للحظة، ثم نهض وجالَ بعينيه في الغرفة قبل أن يدنو من الطاولة ويلتقط الأدوية متفحّصاً، من دون أن يفهم لأيّ الأمراض تُستعمل. سمع وقع أقدامٍ في الممر فعاد إلى الكرسي سريعاً، وبدأ ينبش العلبة باحثاً عن الرقعة.

-يبدو أنّك فضوليٌ يا صديقي، لم تخرج الرقعة حتّى الآن! آه من الجيّد أنّك أتيت اليوم.

قال دافيد بعد أن دخل إلى الغرفة، واستطرد بينما يضع كوب القهوة أمام ضيفه:

-آخر من جاء لزيارتي كانت حفيدتي الجميلة، لكنّها لا تحبّ الشطرنج، كما أنّني أحبّ أن ألتقي بها في الخارج، ولكنّها صارمةٌ معي أكثر من كارولينا.

جلس دافيد على الكرسيّ المقابل لفريد وطفق يُخرج الأحجار بحماسةٍ كبيرةٍ من العلبة الخشبية ويضعها على الطاولة:

-بالمناسبة، ما اسمك يا صديقي؟

سأل دافيد فريد الذي انتابه ذات الارتباك الذي ينتابه دائماً عندما يُسأل عن اسمه:

-لؤي.

-لواي؟

نطق دافيد الاسم ببطءٍ ونظر إلى فريد.

-تقريباً

أجاب فريد.

-ومن أين أنت؟ لا لا.. دعني أحزر.. هممم.. أنتَ مصريّ، أليس كذلك؟

-تقريباً

قال فريد مبتسماً.

-إذن لست مصريّ؟

سأل دافيد واضعاً سبابته على فمه ومغمضاً عينه اليسرى.

-لا

-هممم... ولكنك عربيّ!

-أنا من سوريا

قال فريد بنفاد صبرٍ مختصراً الحوار.

-لقد كنت سأقولها

هتف دافيد ونقر على الطاولة نقرتين بسبابته.

ساد صمتٌ قصيرٌ بدأ خلاله فريد بصفّ أحجاره على الرقعة.

-صديقي لواي، اعذرني لأنّني اخترت الأحجار السوداء من دون أن أسألك! إن كنت ترغب في اللعب بالأحجار السوداء فلا مشكلة لديّ.

-لا عليك يا سيّد دافيد.

راح دافيد يقهقه وتوقّف عن صفّ الأحجار:

-نادِني بدافيد، أو صديقي، أو شيءٌ من هذا القبيل، كما أفعل أنا، اتفقنا؟

-حسناً يا دافيد.

-منذ متى تلعب الشطرنج؟

-تعلّمت اللعب عندما كنت طفلاً، لكنّني لم ألعب منذ فترةٍ طويلة.

-حسناً هذه نقطةٌ لصالحي، وكوني قد استيقظتُ للتو في وقتٍ متأخّرٍ ولم أدخّن منذ يومين، فهاتان نقطتان لصالحك.

-هل أقلعت؟

-لا يمكنني قول ذلك، لقد مُنعِت من التدخين لأنّني تعرّضت لوعكةٍ صحيّة قبل سنتين، ومنذ ذلك الحين وأنا أسرق السجائر كالمراهقين وأدخّن في الخفاء كلّما سنحت لي الفرصة، ولكنّني أشتهي سيجارة. هل أنتَ مدخّن؟

-أجل.

-هل تحمل سجائراً؟

-بلى، ولكنّك لن تطلب منّي سيجارة، أليس كذلك؟

-يا لك من محتال! هل تريد أن تصرع فارساً جوادُه أعرج؟ أعطني سيجارةً ثم احصل على فوزٍ تستحقه!

-حسناً، سندخّن معاً إذن، سيجارةً واحدةً فقط لكي لا تفسد عليّ فرحتي بفوزي.

قال فريد مبتسماً.

-اتفقنا!

تناول دافيد السيجارة من يد فريدٍ بعد أن قام الأخير بلفّها له ووضعها أمامه على الطاولة، ثم نهض إلى الباب وفتحه بهدوءٍ شديدٍ ومدّ رأسه ينظر إلى جانبي الممرّ قبل أن يعود مغتبطاً ويلتقط السيجارة بين أصابعه وينظر إلى فريد طالباً منه إشعالها بصمت.

-أشعر بتأنيب الضمير

قال فريد وهو يشعل سيجارة صاحبه العجوز.

-لا عليك يا صديقي

أجاب الرجل وهو يسحب منتشياً أوّل نفَسٍ من السيجارة مغمضاً عينيه:

-ها هو صحن السجائر

تابعَ وسحبَ المنفضة من تحت الطاولة بصعوبة.

-هل تمنعك السيّدة كارولينا من التدخين؟

سأل فريد صديقه الذي كان غارقاً في التدخين تماماً والذي أجابه بعد أن نفث الدخان في فضاء الغرفة وهو يلهث:

-من تكون كارولينا لكي تمنعني؟ لا أحد يستطيع أن يمنعني من أيّ شيء، لكنّني لا أحبّ إثارة غضبها، هذا كلّ ما في الأمر.

-حسناً

ردّ فريد غير مصدّقٍ إجابة دافيد.

-على الرغم من أنّها صارمةٌ جداً، إلّا أنّ وجودها هنا يشعرني بالسعادة، الحياة من دون أنثى شاقّةٌ جدّاً. ألا تعتقد هذا؟ حفيدتي الصغيرة هي الشخص الوحيد في العالم الذي يزورني اليوم ويهتمّ لأمري، كارولينا تفعل أيضاً، ولكنّ كبرياءها يمنعها من إظهار اهتمامها بي، يا لها من محتالة.

-ربّما لديك الحقّ. أظن أيضاً أنّها تفعل

قال فريد مواسياً صديقه العجوز.

-أتدري؟ التدخين رائع! إنّه من أفضل ما اخترعته البشريّة على الإطلاق.

-لا أعتقد ذلك، التدخين يودي بحياة الكثير من البشر.

-وهل هناك في هذا العالم شيءٌ لا يودي بك إلى الموت؟ الحياة بحدّ ذاتها هي سبب الموت الأوّل! الموتى لا يموتون.

قال دافيد وهو ينظر إلى سيجارته ويضحك ثم استطرد هامساً وكأنّه يحدّث نفسه:

-ولكن بعض الأحياء يموتون كلّ يوم.

صمت فريد وضغط سيجارته في المنفضة فانبرى دافيد ليكسر الصمت:

-لقد جاء في السنوات الماضيّة عدّة أشخاصٍ للعب الشطرنج معي، منهم من كانت هزيمته سهلة ولم يجد في اللعب معي أيّ متعة، ومنهم من لم يحتمل رغبتي المفرطة في الكلام، كما تفعل كارولينا، فأخبرْني أنت، هل تودّ لعب الشطرنج فحسب؟ أم أنّنا نستطيع أيضاً أن نتحدث.

-لا مشكلة لديّ.

-تبدو حزيناً يا صديقي، ربّما ترغب في البوح؟

-لقد كانت الأيّام القليلة الماضية صعبةً عليّ..

اعترفَ فريد بعد صمت.

-يبدو هذا على وجهك بشكلٍ واضح، ما الخطب؟

سأل دافيد وهو يطفئ بدوره سيجارته.

-توفيت والدتي قبل عدّة أيّام.

-هذا يؤسفني جدّاً، رحمها الله.

قال دافيد وهو ينظر إلى فريد.

-ليس من السهل تقبّل أمرٍ كهذا.

-معك حق، الموت فظيعٌ جدّاً، ولكنّه حتميّةٌ لا بد منها، كما قال هيرمان هيسه: "ما من شيءٍ نستطيع التنبؤ به ومعرفته في هذا العالم أكثر من الموت". الحياة ورطة يا صديقي، ورطةٌ لأنّها تنتهي، وكانت ستكون ورطة أكبر إن لم تكن محكومة بالموت. لقد كان عليّ أن أودّع الكثيرين إلى الموت، وكنت في كل مرّةٍ أشعر أنّني أودّع جزءاً من وجودي وإنسانيّتي. ولكنّني في كل مرّةٍ كنت لا أعطي الفراق حقّه من الحزن والدموع، بل كنت أنصرف لألهي نفسي عنه بأيّ شيء من دون أن أدري أنّه كان يتجمّع تحت جلدي. كنت كمن يصنع لروحه رقعاً واهنة، لا تلبث أن تنفتق مجدّداً. على كلّ حال، لم يكن لدي الكثير من الوقت للحزن، فالحياة لم تمنحني تلك الرفاهيّة.

-رفاهية..

ردّد فريد الكلمة بعد صديقه العجوز.

-أجل، الحزن يكون في بعض الظروف رفاهيّةً أيضاً، ولكنّني في النهاية وبعد كلّ الخسارات صرتُ أتقبّل الفراق والموت كجزءٍ أساسيٍّ من وجودنا. قد يبدو موقفي غير إنسانيٍّ بالنسبة لشابٍّ مكلومٍ مثلك، ولكنّه ليس كذلك. بل هذه هي الحقيقة في نظري. نحن في هذه الحياة يا صديقي نعيش العبث، حياتنا عبث، وموتنا عبث، كلّ شيءٍ يخلو من الجدوى، توجّب عليّ لسنواتٍ طويلةٍ العمل كلّ يومٍ مثل الآلة، وعندما آثرتُ التمرّد تم اضطهادي من العائلة، ثم جاءت الحرب التي لم تبقِ ولم تذر، وقد نجوتُ منها بأعجوبة. وها أنا أعيش اليوم هنا بمفردي بعيداً عن حفيدتي التي أحبّها بينما يبحث ولدي الوحيد عن مخرجٍ من هذا البلد التعيس ويريد أن يأخذ ابنته معه، ولا أعتقد أنّني أدخل في مخطّطاته في هذا الخصوص. الموت ليس نقيض الحياة، بل هو تتمّتها. ويوجد بالتأكيد حياةٌ أخرى بعد الموت نعيش فيها ما لم يُقدّر لنا أن نعيشه هنا من سعادةٍ وعدالةٍ وأمان. حياةٌ ثانيةٌ ذات معنى، وإن لم يكن هناك واحدةٌ كهذه؛ فيا لتعاستنا وبؤسنا وسوء حظنا نحن البشرَ المعذّبين في الدنيا. ربّما هي الشيخوخة، أنت الآن شابٌّ وأمامك الكثير لتعيشه، لا تزال خلايا جسدك فتيّةً ولديك رغبةٌ في التجربة، تقابلها رغبتي في الراحة، وكلّما كبر رصيدك من الناس الذين فارقوك، وكلّما كانوا أقرب إليك أكثر؛ تعاظمت رغبتك في اللحاق بهم ولقائهم من جديد، وزاد احتقارك لهذه الحياة التي خلّفوك فيها وحيداً. يتسارع الوقتُ كلّما تقدّمت بك السنوات، حتّى تنسى كيف تحصيها. لماذا لا نلعب الشطرنج؟

تجمّد فريدٌ في مكانه وقد تملّكه الفضولُ وهو يستمع إلى دافيد الذي ذهب بعيداً في كلامه عن حياته حتّى كاد يكشف كل مكنوناتها لغريبٍ

يراه للمرّة الأولى، وراح يتفحّصه وهو يرتّب القطع على الرقعة واحدةً تلو الأخرى بمنتهى الدقّة والتأنّي ويفكّر في كلامه عن الحياة والموت، وقد كان يرى النقاء في عينيه وفي انحنائه الحزين على الأحجار وكأنّه نطق لتوّه بكلماتٍ حبسها ربّما طوال سنوات.

تردّد فريد قبل أن يحرّك بيدق الملك مربعين إلى الأمام، فحرّك دافيد بيدق الملك الخاص به أيضاً مربعين إلى الأمام بعد أن همهم وعدّل جلسته على الكرسي واشرأبّ بعنقه إلى أعلى الرقعة.

-مع من لعبت الشطرنج للمرّة الأولى؟ هل تذكر ذلك يا صديقي؟

-عندما كنت طفلاً كنت أمضي الكثير من الوقت في منزل خالتي، وكان زوجها مهندساً وهو من علّمني الشطرنج.

-وهل أتقنتها سريعاً؟

-أجل، كان زوج خالتي يصفني بالنّبيه والفطِن، ربّما كان الوحيد الذي وجّه لي إطراءً كهذا في حياتي.

-لمَ؟ هل عشت طفولةً سيئة؟

سأل دافيد وقد بدا الغم في عينيه.

-لقد كنت بديناً بعض الشيء، أكثر من الآن

قال فريد مبتسماً وتابع:

-وهذا الأمر كان كافياً لكي أتعرّض لمشكلاتٍ كثيرة، كما أنّ والدي كان متغطرساً.

-يؤسفني ذلك

قال دافيد وانحنى على الرقعة مجدّداً محرّكاً حصان الملك.

*****

-كش مات..

قال دافيد بعد نصف ساعةٍ من اللعب بصمت من دون أن يرفع رأسه عن الرقعة؛ بعد أن قام بترقية أحد البيادق إلى حصان.

-جميل

قال فريد ودفع حجر الملك ليسقط على الرقعة.

-أتدري يا صديقي ما كان خطؤك الأكبر في اللعبة؟

سأل دافيد بحذلقة واضحة وكأنه فاز لتوّه على بوبي فيشر.

صمت فريد ولم يجب، بل راح ينظر إلى صديقه الذي رفع رأسه عن الرقعة أخيراً وأردف بابتسامة مترددة:

-كان عليّ مراهنتك على سيجارة أخرى قبل بداية اللعبة

-ربّما تحصل منّي على واحدةٍ لقاء درسٍ في الشطرنج، إذا ما أخبرتني عن خطئي. حسناً يا صديقي..

قال دافيد وعدّل جلسته واستطرد بعدما تناول حجر الملك بيده ملوّحاً به:

-في الشطرنج يُعتبر هذا الحجر هو الأهم، ولكنّه ليس الأقوى، وهذا منطقيّ. والبيادق الثمانية، أي الجنود، هي الأقل أهمية، إلّا أنّها ليست الأضعف. ما يثير غضبي بالضبط ليس انخفاض قيمة الجنود على الرقعة، بل تثير غضبي طريقة تعامل بعض اللاعبين مع الجنود، كما فعلت أنت. لا مفرّ من التضحية بالجنود لتصل إلى غايتك النهائيّة وهي قتل الملك الخاصّ بي، هذا صحيح، لكنّك كنت مستهتراً بها وقدّمتها لي كطُعمٍ يسهل اكتشافه، بينما أنا حاولت الحفاظ على الجنود قدر الإمكان ووصلت بأحدها إلى نهاية الرقعة، وبهذا فزت.

-ولكنّك لم تقم بترقية الجندي إلى وزير كما كنت متوقّعاً منك، بل رقّيته إلى حصان.

-كانت اللعبة ستنتهي بالتعادل لو أنّني قمتُ بترقية الجندي إلى وزير، انظر إلى الرقعة!

إنّني بترقية الجندي إلى حصان قد فزت باللعبة على الفور لأنّ الحصان بموقعه هذا بعد الترقية سيهدّد الملك بشكلٍ مباشر بحيث لا يعود له أيّ خيارٍ سوى هذا المربع الذي ستهدّده القلعة في الحركة التالية وينتهي أمره، وهذا ما يجب أن نتعلّمه من هذه اللعبة العظيمة، القوّة المفرطة غير المقرونة بالحكمة قد تؤدي إلى الخسارة، وليس القوّي هو من يفوز دائماً. نعم؛ الوزير أكثر قوّةً من الحصان، لكنّه غير مفيدٍ في وضعٍ كهذا، بل على العكس تماماً.

-صحيح.. لقد أحسنت بترقية الجندي إلى حصان.

-آه! هذا أمرٌ حزينٌ آخر؛ كل الأحجار على الرقعة تستطيع التحرّك في جميع الجهات المتاحة لها، إلّا الجندي لا يتحرك سوى إلى الأمام، ثم إذا ما بلغ غايته ووصل إلى آخر مربعٍ في الرقعة، يتم استبداله بحجرٍ أكثر قوّةٍ منه، ألا يُذكّرك هذا بشيءٍ يا لواي؟

-لا أدري.

-أشعر أحياناً يا صديقي بأنّني هذا البيدق الضعيف، لقد فعلت المستحيل من أجل الآخرين، ثم ماذا؟ ها أنا خارج الرقعة أنظر إليها بصمتٍ وحسرة..

قال دافيد بصوتٍ مرتجف وبدأ يمسح دموعه قبل أن يتابع محاولاً إطلاق ابتسامةٍ خفيفة:

-أعتذر يا صديقي، أنت أتيت للحصول على بعض التسلية وليس لرؤية عجوزٍ أبله ينتحب أمامك.

-لا عليك، تكلّمْ وأنا أسمعك، فإن كنتَ أنت اليوم خارج هذه الرقعة وتأسف على نفسك، فأنا اليوم في وسطها ويتم تحريكي باستمرارٍ نحو الأمام إلى مصيري المحتوم، من دون سؤالي حتّى.

عمّ الصمت أرجاء الغرفة فشعر فريد بخطورة الوضع بعد أن راح دافيد يتفرّس في وجهه متسائلاً.

-هل نبدأ مباراةً جديدة؟

سأل فريد وراح يعيد ترتيب الأحجار على الرقعة بارتباك.

-لا بل أريد التدخين، لكنّني لا أريد التدخين في الغرفة لكي لا تشعر كارولينا، صحيحٌ أنّها عجوزٌ شمطاء، لكنّها تملك أنف كلبٍ في ريعان شبابه، ما رأيك بنزهةٍ يا صديقي؟

-نزهة؟ إلى أين؟

-سأصحبك إلى بيتي، فما رأيك؟

-بيتك؟!

سأل فريد ودهمه خوفٌ شعر به على شكل حرارةٍ في أحشائه.

-نعم، هل تعتقد أنّني لا أملك بيتاً؟ لكنّني لا أحب العيش وحيداً، لذا قرّرت القدوم والعيش هنا بعد أن أمضيت عامين في منزل ابني.

-حسناً، وماذا سنفعل هناك؟

سأل فريد متوجّساً.

-أريد زيارة البيت، منذ مدّةٍ لم تسنح لي الفرصة، كما أنّني لا أريد الذهاب بمفردي.

-حسناً..

ردّ فريد وقد تملّكه القلق.

-اسمع، خذ هذه

قال دافيد ونهض بخفّةٍ إلى الدرج قرْب السرير وأخرج منه حقيبةً صغيرة.

-ما هذه؟

-حقيبة التبغ الخاصّة بي، لقد رافقتني لسنين طويلة.

قال العجوز وقدّم الحقيبة الجلديّة البنيّة إلى صديقه الشابّ.

*****

شارفت الساعة على الرابعة عصراً. كانت الشمس، المتوارية خلف الغيوم والضباب، تودّع مسرعةً ذلك الجزء من الكوكب. لوّح دافيد بقميصه في الهواء محاولاً طرد رائحة السجائر وهو يدمدم: "ليس خوفاً منها، ولكن تلافياً لشجار يمكن تجنّبه".

خرج الرجلان من النزل ببطء. كان واضحاً أن دافيد يحاول ألا يلفت انتباه كارولينا، لكن قلقه كان يفضحه بلا رحمة أمام فريد، الذي اكتفى بمراقبته بصمت.

-سيحلّ المساء قريباً، علينا أن نسرع

همس دافيد وتناول مظلّته التي كانت مركونةً خلف باب النزل قبل أن يفتح الباب مسرعاً ليفسح المجال لفريد.

لم يكد الرجلان يصلان إلى نهاية الشارع حتى بدأت الأمطار تصفع الأرض صفعاً:

-لقد صدق المذياع هذه المرّة!

قال دافيد وهو يفتح مظلته، ثم أردف:

-لواي! اسم غريب! ما معنى هذا الاسم؟

تلعثم فريد واضطرب حتى كاد يتعثر أثناء نزوله عن الرصيف.

-لا أدري!

أجاب فريد بصدق، حيث لم يجد متّسعاً من الوقت ولا رغبةً في معرفة معنى ذلك الاسم.

-أنت أول شخص ألتقيه في حياتي ولا يعرف معنى اسمه! ألم تسأل نفسك يوماً عن معنى اسمك؟

-لا يروق لي هذا الاسم، ربما هذا هو السبب.

-آه هو لا يروق لي أيضاً، عذراً أقصد اسمي، ولكنّني أعرف معناه. حسناً.. في الحقيقة لا يروق لي اسمك أيضاً.

قال دافيد وقد كانت كلماته بالكاد مفهومةً مع تسارع أنفاسه.

صمت الرجلان واشتدت الأمطار قبل أن يصلا إلى محطة الميترو.

جلس فريد في الميترو بجانب النافذة أمام دافيد الذي استند إلى مظلته محاولاً التقاط أنفاسه. بعد رحلةٍ قصيرةٍ نزل الرجلان وكان هطول المطر قد توقّف، كأنّما أفرغت السحب كلّ حمولتها دفعةً واحدة. مشى الصديقان بضع دقائق قبل أن يتوقّف دافيد أمام صرحٍ كبيرٍ بقبّةٍ ضخمةٍ غير مكتملةٍ، وبرجين على يمينها وشمالها.

-لا يزال مدمّراً!

همس دافيد.

-ما هذا المبنى؟

سأل فريد صاحبه العجوز بتردّد.

-ممم.. إنّه معبد.

صمت فريد وراح يتأمل المبنى الذي كان يتمّ ترميمه.

-هل يزعجك كوني يهودياً يا لواي؟

-لم أكن أعرف ديانتك، لا أدري، لم أفكر في الأمر قبلاً.. هل يزعجك كوني مسلماً؟

-على الإطلاق، تستطيع القول إنّ الأمر لا يهمّني.

-حسناً إذن، لا يهمني كذلك كونك ما تكون.

-اتفقنا، لستُ متديّناً أبداً، لكن لهذا الكنيس بالذات قصة، بإمكاني إخبارك عنها إن أردت.

هز فريد رأسه بالإيجاب.

-لقد كنت أجيء بوالدي إلى هنا للصلاة أيّام السبت وأنا أدفع كرسيه المتحرّك، ومنذ وفاته لم أدخل أيّ كنيس، وقد دُمّر هذا الصرح جزئياً بفعل القنابل في أثناء الحرب كما ترى، وأُطلِقت عشرات الوعود لإعادة بنائه، لكنّني لا أعتقد أنّ ذلك سيتمّ قريباً.

-منذ متى لم تأتِ إلى هذا الحي إذاً؟

-منذ أشهر، لمَ عسايَ أفعل؟

-لا أدري.

مشى دافيد باستكانةٍ وكانت ملامحه تتغير مع كل خطوةٍ يخطوها.

-أتدري يا لواي...

استهلّ دافيد حديثه ورفع نظره عن الأرض إلى أعلى وهو يجد صعوبةً في التنفّس أثناء الكلام، ثم تابع:

-ما أبشعَ أن تُجبَر على كره مدينةٍ أحببتها بكل تفاصيلها! لقد كانت هذه المدينة بديعة، الأضواء تتراقص على حجارتها العتيقة، والموسيقى تنساب من نوافذ المقاهي لتختلط بأحاديث العابرين. كانت مدينةً

ترقص على قدمين قبل أربعين عاماً، تنبض بالحياة، قبل أن يرخي الموت سدوله فوقها. أربعون عاماً مرّت، عمرٌ بأكمله، مرّت كأنّها لحظة، لكنّها حفرت في قلبي ندوبًا لا تندمل.

قال دافيد ذلك وأطلق ضحكةً خافتةً كأنّها تنهيدةُ قلبٍ مُثقل، ذابت بين لهاثه وذكرياته الملطخة بالدخان والرماد.

-يؤسفني هذا..

أجاب فريد وقد ذكّره كلام صاحبه بدمشق، وقد شعر للحظةٍ أنّها مدينةٌ مظلومةٌ قد أُجبر هو على كرهها، حاله كحال دافيد هذا.

-ما الذي يؤسفك بالضبط يا عزيزي؟

سأل العجوز صاحبه.

-لا أدري، ولكن يؤسفني أنّك حزين!

-لربما يتملّكني الحزن عندما أفكّر في تلك الأيّام، لكنّ هذا أمرٌ طبيعي. هل تودّ الجلوس لكي يستريح صديقك العجوز للحظة؟

قال دافيد وأشار إلى منتزه على الطرف الآخر للطريق.

أومأ فريد برأسه فهَمّ دافيد بعبور الشارع إلى الجهة المقابلة:

-أُقيم هذا المنتزه فوق أنقاض قصرٍ ضخمٍ كان يدعى قصر (مونبيجو)، بجدرانه المذهّبة وحدائقه الغنّاء التي كانت يوماً موطناً للملوك، ومن بينهم فريدريش العظيم. لم يتبقَّ منه اليوم سوى أطلالٌ تذروها الرياح. آه! أتدري؟ كنتُ أمرّ أمام القصر عندما كنت طفلاً، ممسكاً بسلّتين ثقيلتين تفيضان بالأوراق النقديّة، أمشي بين الناس كأنّني مليونير صغير، بينما لم تكن تلك الأكوام الورقيّة تساوي ثمن كسرة خبز.

قهقه دافيد، لكنّها كانت ضحكةً جافّة، مثل صدى لأيّامٍ عبثية لا تُنسى بينما يستطرد:

-لقد فقدَت النقود قيمتها في ذلك الوقت، كنّا نملك المليارات من الأوراق البالية التي لا تسدّ جوعاً ولا تشتري رغيفاً. تخيّل! كنتَ بحاجة إلى عربةٍ يجرّها حماران سمينان لتذهب إلى السوق. وإن مرض الحماران؟ ستنام إلى جوارهما جائعًا، تحرسهما كأنّهما كنزك الوحيد!

طفق الرجل ينظر في الأرجاء ويحاول التنفّس بعمقٍ بالقدر الذي تستطيع رئتاه.

-لا أدري ما الذي قدّمته لي هذه المدينة تماماً لكي أحبّها حتّى اليوم! على العكس تماماً، ينبغي لي أن أكرهها، أو ربّما لا.. لا أدري. هل أثرثر كثيراً يا صديقي؟

-لا أبداً، أنت تؤنسني، فلا تقلق.

-نعم.. شكراً، لم أتحدّث مع أحدٍ منذ عدّة أسابيع، وهذا مرهقٌ لشخصٍ مثلي.

-ألم يخطر لك كتابة قصة حياتك؟

-فكّرت في ذلك مراراً، وحاولت أيضاً بالفعل، لكنّني لا أجيد الكتابة! هل تجيدها أنت؟

-لا أدري، لكنّني أكتب بعض القصص والقصائد أحياناً، أشياءٌ صبيانيّة لا تمتّ إلى الأدب بِصلة، وقد قمت مؤخراً بكتابة روا...

-ها؟ هل كتبت رواية يا لواي؟

-يمكنك قول ذلك، ولكنّها مجرّد خواطر ليس إلّا.

-لا تستهن بنفسك واعرض عملك على أحدٍ ليقرأه، من الصعب على الإنسان تقييم نفسه، فغالباً ما يقلّل من شأن عمله فيحبط، أو قد

يبالغ في تقدير نفسه فيُصاب بالغرور، فإن لم تعرف تقدير جودة عملك تماماً فالأفضل أن يصيبك الغرور، فهذا أفضل من الإحباط.

-أتعتقد ذلك يا دافيد؟

-كلّا.. على الإطلاق، ولكن انظر حولك جيّدًا... المغرورون والمتغطرسون يبنون عروشهم من المال والشهرة، يعتلون المنصات وتحيط بهم الأضواء والهتافات، بينما يتوارى آلاف الفنّانين خلف جدرانٍ باردة، يغزلون أحلامهم بخيوطٍ واهيةٍ من الصمت، ولا يعرف أحدٌ حتى أسماءهم. ألا تظنّ أنّ ثلاثة أرباع الإبداع على هذا الكوكب قد دُفن في أدراجٍ موصدة، وتلاشى بين رفوفٍ مغطّاةٍ بالغبار، وذُوِّب في زوايا الغرف الضيّقة؟ قبل أن يموت مع موت أصحابه.. صامتاً، منسيّاً. لكن، لنعترف، خشبة المسرح ضيّقة، ولا تتّسع للجميع. في ساحة المنافسة، لا يفوز الأجدر، بل يفوز الأجرأ.. يغلب التافهُ المبدعَ الخجول، والمغرورُ الواثقَ المتردّد، والجميلُ السطحيَ الموهوب. هذه هي اللعبة. والأضواء لا تُسلّط على من يستحقها دائماً.. آه! ما رأيك أن نكمل طريقنا إلى بيتي؟

تقدّم الرجلان شيئاً فشيئاً من المبنى الذي كان يسكنه دافيد والذي سكنه والداه قبله لسنواتٍ طويلةٍ وسط برلين، بينما يفكّر فريد بكلام صديقه العجوز.

-هل تلاحظ هذا يا لواي؟

سأل دافيد صاحبه فانتفض هذا الأخير كأنّما أُوقِظَ من غفوة:

-ماذا تقصد؟

-التوتّر على وجوه الناس.

-لا أدري.

-لا أعتقد بأن كثيراً من الوقت سيمضي قبل أن ينفجر الناس هنا.

هز فريد رأسه ونظر حوله بخوف.

-لمَ لا تجيب يا لواي؟

-لا أدري.

-آه! لديك الحق.. أتدري؟ أنا أخاف منهم أيضاً، من جميع الناس هنا، وهذا ليس بالأمر الجديد، فأنا أعيش الرعب في هذه المدينة منذ أكثر من خمسين عاماً، هل لك أن تتصوّر؟ خمسون عاماً من الخوف والترقّب! يا للهول! أيّ حياةٍ هذه؟ أعتقد بأن لعنةً ما قد نزلت عليّ يوم ولادتي، فكُتِبَ الخوف عليّ طوال عمري، ولكنّ خوفي يتقلّص عندما أدخل هذا الحي. كنت أجولُ هذا الحي والنجمة الصفراء على صدري من دون وَجَل.

نظر فريد إلى صاحبه باستغراب مُستفهماً..

-نجمةٌ صفراء.. كنّا ملزمين بوضعها على صدورنا ليتمّ تمييزنا عن غيرنا، بالطبع إنّ مجرّد وجود هذه النجمة على صدر أيّ شخصٍ كان كافياً لتعرّضه للضرب أو التوقيف الذي قد ينتهي به في أحد معسكرات الاعتقال، كي يتمّ تجويعه أو خنقه بالغاز، أو إجراء تجارب علميةٍ عليه كالفأر، لكنّني لم أكن أخاف الاعتقال أو الموت، كنت أعتقد أن وقوع أسوأ ما يمكن أن يقع سيكون أفضل الطرق للتخلّص من تلك التهمة التي حملتها عن طريق المصادفة البحتة، ولكن ما كان يؤلمني حقّاً هو تحوّل المدينة التي أحببت؛ والتي عشت فيها أجمل لحظات حياتي؛ إلى مستنقعٍ للقتل والخوف والفظاعة. هل أثرثر كثيراً؟

-لا أبداً.

-لا عليك يا صديقي، لقد وصلنا.

قال دافيد قبل أن يشير إلى مبنىً نصف مدمّر في نهاية الشارع.

فتح دافيد باب المبنى الذي لم يكن يبدو مهجوراً منذ وقتٍ طويل، وصعد الصديقان الدرج بصعوبةٍ قبل الوصول إلى باب الشقّة التي كانت تحتلّ وحيدةً الطابق الأول من المبنى، فيما كان الطابق الثاني غير مسكونٍ بسبب القصف الذي ألحق به ضرراً كبيراً.

-البلدية تطالبني منذ أشهرٍ بإفراغ البيت، فالمبنى آيلٌ للسقوط ويجب على الأغلب إعادة بنائه، تفضّل بالدخول.

ما إن دخل فريد المنزل حتى شعر وكأنّه انتقل إلى عالمٍ آخر، بعيدٍ تماماً عن ذلك المبنى الآيل للسقوط. بدا وكأنّ الجدران هناك تنبضُ بالحياة، تخفي خلفها ذكرياتٍ تأبى الزوال. كانت غرفة المعيشة تتوسّط المنزل بأناقةٍ غير متكلّفة، والجدران مكسوّةٌ بلوحاتٍ وصورٍ تروي حكاياتٍ صامتة، والأثاث يبدو وكأنّ كلّ قطعةٍ منه وُضعت بعنايةٍ فائقة، كما لو أن هذا المكان خُلق ليحتضنها قبل أن يُبنى حتى.

خشب الأثاث يلمع كمرآةٍ عتيقة، اعتادت طويلاً أن تعكس ضوء الشموع الكبيرة الموزّعة في الأركان. استقرّت في وسط الغرفة طاولة طعامٍ أنيقةٍ تحيط بها كراسٍ أربعة، ترتمي على أطراف الطاولة بصمت، كأنّها تنتظر وجبةً لم تُقدّم بعد.

تقدّم دافيد بخطواتٍ واثقةٍ نحو شجرة غاردينيا صغيرة في الزاوية، مدّ يده ببطء ليلامس أوراقها الذابلة برفقٍ كمن يواسي جريحاً. لحظة صمتٍ ثقيلةٍ خيّمت قبل أن يستدير الرجل نحو ساعة بندول قديمة معلّقة على الجدار. فتح غطاءها وسحب المفتاح الصدئ من داخلها، وأخذ يديره بحذر. عاد الرقّاص يتأرجح، صوته العتيق ملأ المكان كأنّما استيقظت الروح في ذلك البيت، وعاد الزمن يسير من جديد.

راح دافيد يخطو بثقلٍ كمن يمشي فوق حبلٍ معلّقٍ في الفراغ، متأرجحاً بين ماضٍ يرفض أن يُنسى وحاضرٍ يتوارى خلف قصصٍ لن تتكرّر.

عاد ووقف وسط غرفة المعيشة ونظر حوله للحظات، قبل أن يسقط جالساً على الأريكة المغطّاة بالملاءة التي نفضت غبارها من حوله:

-في كل زاويةً في هذا المنزل الذي يهدّده الزوال ذكرى لقبلة، لأغنية، لرقصة، لشجارٍ ما.. لقد مرّ وقتٌ طويلٌ على المرّة الأخيرة التي اجتمعت فيها روحان في ذات الوقت هنا.

نظر الشابّ إلى صاحبه العجوز وزمّ شفتيه معبّراً عن تعاطفه وحزنه.

-أتدري ما الذي يُبكيني يا بني؟

قال دافيد بحرقة.

صمت فريد منتظراً ما سيقول صاحبه الذي صمتَ قليلاً ثم أردف:

-ما يبكيني هو فشل محاولاتي طوال سنواتٍ في تقبّل أكثر الحقائق بديهيّةً وبساطةً في هذه الحياة، حقيقة أن ما مضى لن يعود أبداً.

جلس فريد بقرب دافيد على الأريكة ببطء وتنهّد مقاوماً دموعه قبل أن يستسلم لرغبتها الملحّة بملامسة خدّيه:

-أنا أيضاً أتمنّى أن يعود بي الوقت إلى الوراء، ولو لدقائق.

-تخيّل قلباً كبيراً قد امتلأ حبّاً، وفي لحظةٍ واحدةٍ تحوّل الحبّ كلّه إلى ألم! كلّ كمّيّة الحبّ التي لا يُقاس حجمها قد تحوّلت دفعةً واحدةً إلى حزنٍ مديد..

صمت دافيد وراح يمسح دموعه قبل أن يستطرد:

-لقد أحببتَ من قبل بكلّ تأكيد يا بني، أليس كذلك؟

سأل دافيد صديقه الذي انتبه أنّه لم ينادِه بـ "بُنيّ" قبل دخولهما إلى ذلك المنزل، وكأنّه شعر هناك فقط بكهولته.

-بلى... قبّلتها مرّةً واحدة فقط. على درجٍ حجريّ قديم، منتصف ذات ليلة، على درجٍ تشقّقت حجارته من ثقل السنين. لم أفكر كثيراً في تلك اللحظة مؤخّراً. ربّما جرفها سيلُ ما حدث لي بعدها، طمسها كما يمحو المطر آثار أقدام المارّة، حتى صارت ذكرى باهتة تتلاشى. لكن الآن، الآن أريد تلك اللحظة أن تعود. أريدها بشوق العطشان للماء. أريد تلك الشفاه المرتجفة، أريد القبلة التي تشقّ الهواء، أريد برودة الحجارة تحت قدميّ! أريد أن أعود إلى ذلك الدرج الآن. ربّما صارت هي الآن في مكانٍ أبعدٍ في هذا العالم الكبير، في زاويةٍ على هذا الكوكب لا أستطيع بلوغها، لكنني أتمنّى فقط أن أعود إلى ذلك الدرج. أن أجلس هناك، أن أترك رأسي ينحني، أن أبكي، ولو لمرّةٍ واحدة فقط.

قال فريد ذلك كأنّه قد رفع الراية البيضاء أخيراً في وجه الكتمان الذي فُرضَ عليه.

-يا بُنيّ.. صدّقني إن أعادوك إلى الدرج وجلست تبكي هناك لساعاتٍ محاولاً استحضار اللحظة والشعور فلن تفلح، ستنقصك رائحتها، طعم شفتيها، الإحساس بأنفاسها، ونظرة عينيها. ستكون هناك مثلي تماماً هنا، كانت زوجتي تعيد ترتيب أثاث المنزل كل شتاءٍ بشكلٍ مختلف عن الشتاء السابق، وهكذا كان عشّنا هذا حصناً منيعاً ضد الملل، فقد كانت سوزان متجدّدةً دائماً، تعشق التغيير وتمقت الروتين، كما كانت تحبّ الأزهار والنباتات. بعد وفاتها بأشهرٍ قرّرتُ المضيّ على سنّتها من جديدٍ وكأنّها لا تزال تعيش معي، ولكن من دون جدوى. بعد عامٍ على وفاتها صرتُ أعيد ترتيب الأثاث عند بداية كلّ شهر، ثم كلّ أسبوع، حتى

باتت إعادة الترتيب شغلي الشاغل يوميّاً مع الوقت. بيدَ أن الملل كان يعشّش بين الأثاث وشبح السأم كان لا ينفكّ يظهر لي في كلّ زاويةٍ من زوايا البيت. استسلمتُ في النهاية وأعدت ترتيب المنزل على النحو الذي اتخذَتْهُ هي للمرّة الأخيرة قبل وفاتها، كما هو الآن بالضبط، وبعد تعرّض المبنى للأضرار التي رأيتَها قمتُ بذلك ثانيةً. لقد أدركتُ أن إعادة ترتيب الأثاث لم تكن تصنع شيئاً، إنّما كانت سوزان تقتل الملل بيديها، بوجودها، بابتسامتها. هل ترى كلّ المقتنيات التي تبدو ثمينةً والتي استمرّيت لسنواتٍ بتقديسها ورعايتها؟ لقد بهتتْ ومات معناها بموت سوزان. وهكذا مات مع الوقت هذا المنزل في عينيّ فآثرتُ الهربَ بعيداً عن ألم الذكرى الذي يأكل روحي. ولكن حتّى في الخارج اكتشفتُ أنّ كلّ شيءٍ يسقط بالتقادم، إلّا الحبّ الذي يتدخّل فيه الموت. لقد كانت سنة وفاتها سنةً سوداء، وقد كانت سنةً كبيسةً فوق ذلك، تخيّل كم كانت السنة طويلة بالنسبة إلي؟ لقد ازدادت عن نظيراتها من السنوات يوماً إضافيّاً. كم أكره السنوات الكبيسة!

-ولكن رأيك في الموت كان مختلفاً عندما أخبرتك بوفاة والدتي في غرفتك قبل ساعات!

-لقد كنت أثرثر يا بُنيّ كما أفعل دائماً، أتحدّث عن أمورٍ أكبر منّي وقناعاتٍ أتمنّى لو أعتنقها حقّاً.. الموت حدثٌ فظيع!

كان فريد يجول بعينيه في أرجاء المكان، قبل أن يسقط نظره على صورةٍ كبيرةٍ معلّقةً فوق (غرامافون) ذي بوقٍ نحاسيٍّ يبدو غير صالح للاستخدام. في الصورة كان دافيد -الذي بالكاد استطاع فريد إدراك أنّه ذات الشخص الذي يجلس بجانبه- يرتدي طقماً رسميّاً كاملاً، وإلى جانبه امرأةٌ شابّةٌ بفستانٍ باهرٍ أزرق اللون يكشف كتفيها وأعلى

صدرها، تلفّ نفسها بشالٍ كحليٍّ من الفرو تحمله على ذراعيها المكشوفتين. كانت المرأة في غاية الجمال إلى درجةٍ أراد معها فريد أن ينهض ليتأمّل وجهها عن قرب.

-ألن تحكي لي قصّتك يا بني؟

كسر دافيد الصمت الذي خيّم على المكان.

-أيّ قصّة؟ قصّتي مع الفتاة؟

-قصّتك كلّها، لا أعتقد أن وجودك في هذه البقعة من الأرض وفي هذا الوقت قد جاء مصادفة. هذا الجزء من المدينة اليوم لا يجذب إلّا من لم يجد مكاناً آخراً يلتجئ إليه.

-قصّتي..

ردّد فريد قبل أن يستأنف بعد صمتٍ قصير:

-لا أعتقد أن لديّ ما يمكنني إخبارك به.

-تستطيع إخباري حتّى بما لا يمكنك إخباري به، أعني أنّك تستطيع الوثوق بي، أنت تعرفني منذ عدّة ساعات، ولكنّني رجلٌ عجوزٌ يقتات على قصص الآخرين لغياب أي أحداثٍ في حياته. كارولينا تحكي لي دائماً عن حياة أبنائها بينما ترتب المطبخ، أقوم بمساعدتها في ذلك، على الرغم من تعجرفها إلّا أنّها تروق لي، كما أنّني أحبّ أن أثير إعجابها، تلك المرأة مثيرةٌ للاهتمام، على الرغم من أنّني واثقٌ بأنّني كنت لأصفعها على وجهها لو قابلتها في شبابي، حينها كان استفزازي سهلاً، أمّا الآن ففظاظتها تسلّيني. لقد عاشت مع زوجها غريب الأطوار لسنوات، وطبعاً؛ بلادتُه ولا مبالاته هما ما دفعتاه إلى الصبر عليها حتّى توفّي في الخامسة والخمسين، يبدو أنّه كان قدّيساً، لك أن تتخيّل كم كان ذاك المسكين يكظم غيظه قبل أن ينفجر ميّتاً. أنا أمزح طبعاً، قد تكون وفاته هي ما جعلت منها

امرأةً قاسية. ستوبّخني بالتأكيد عندما أعود اليوم، وسأضحك في وجهها قبل أن أتركها تصرخ فيّ كما تشاء، لا بد أنّها تخفي حبّها لي خلف غضبها المتكرّر عليّ. ومن يستطيع فهم النساء أصلاً؟ قد تعيش ألف سنةٍ، لكنّك ستكتشف أن لغز حياتك الأكبر كرجلٍ كان سبرَ أغوار امرأةٍ واحدة، هل أثرثر كثيراً؟

-لا على الإطلاق

قال فريد ضاحكاً.

-يا لك من محتال، والآن ألن تحكي لي قصّتك؟

-ربما في المرّة القادمة يا صديقي، أحتاج إلى بعض الوقت.

-متى؟

-سآتي إليك الأسبوع القادم للعب الشطرنج، ثم نخرج للتنزّه وأحكي لك قصتي، أعدك بذلك.

-هذا ليس عدلاً، لكنّني سأقبلُ بشرطٍ واحد، أن تعطيني سيجارة هتف دافيد.

-هذا سيعطيني شعوراً مزعجاً في نهاية اليوم!

احتجّ فريد.

-إذن دعنا نعقد اتفاقاً، تعطيني سيجارةً أدخّنها بينما تختار أنت من مكتبتي كتاباً أهديك إياه، اتفقنا يا لواي؟

-يبدو هذا عرضاً مغرياً! ولكن، إن أردت رؤيتي في الأسبوع القادم، فلا تنادِني بهذا الاسم مرّةً أخرى.

-بمَ تحبّ أن أناديك؟ سأناديك (رونالد ريغان) إن أردت ذلك

همس دافيد اسم الرئيس الأميركي همساً واضعاً يده بشكلٍ أفقيٍ أمام فمه.

-نادني بـ "فريد" لكي أستطيع أن أسرد لك قصّتي، أنا أحبّ هذا الاسم.

قال فريد وشعر بقوّةٍ كبيرةٍ تداهم أوصال روحه.

قدّم فريد السيجارة والولّاعة لصاحبه قبل أن ينهض إلى المكتبة التي كانت تغطي نصف الجدار، بينما نهض دافيد إلى الغراموفون وأدارهُ سريعاً على أغنية „Verzeih mir und sei wieder gut" لـ (آوستن إيجين)، وبينما كان الرجل الثمانينيّ يسحب من السيجارة بيدٍ مرتجفةٍ وأعينٍ منطفئة؛ عاد فريد من المكتبة حاملاً كتاباً صغيراً لـ (فرانتس كافكا) بعنوان "رسالة إلى الوالد".

-أتعرف كافكا؟

سأل دافيد.

-بالتأكيد، لكنّني لم أقرأ أيّاً من كتبه بعد، ثمّ إنّ اسم الرواية قد شدّني، لا أعرف لماذا.

هكذا كذب فريد.

-هذه ليست رواية، بل هي رسالةٌ من الكاتب إلى والده، رسالةٌ لم تصل! ثم إنّه كتابٌ نادرٌ جدّاً. لقد أحسنت الاختيار، سأنتظر رأيك في الكتاب يوم الأحد القادم.

*****

-انظر كم هي جميلةٌ صداقتنا يا صديقي، وكأنّنا الماضي والحاضر يمشيان جنباً إلى جنب، الشرق والغرب، الندّ وندّه، الموت والحياة، نمشي بخطواتٍ واحدة!

قال دافيد لفريد بعد أن غادرا المبنى وقد قرّرا الافتراق وسط المدينة بعد حلول الظلام:

-إذن، لقاؤنا يوم الأحد القادم في ذات التوقيت.

هتف دافيد متنهّداً.

-بالطبع.

أجاب فريد.

-إذن، هل نتعانق؟

سأل دافيد.

تجمّد فريدٌ وشعر بحرارةٍ تسري في عروقه وكأنّه قد لُدغَ من عقرب:

-هل لك أن تعذرني؟

أجاب فريد متلعثماً.

كانت شوارع برلين الشرقية خاويةً على عروشها، والجو يوحي بأنّ حظراً للتجوّل قد دخل حيّز التنفيذ للتو، أو هذا ما فكّر فيه فريد على الأقل، كونه كان قد شعر بأنّه انقطع عن العالم خلال الساعات الأخيرة، أو لعلّه كان فقط خلال تلك الساعات في خضمّ العالم، يعيش صراعاته وتناقضاته.

*****

بينما كان فريد يعبر الشوارع المقفرة ساهماً في طريقه إلى المنزل؛ أيقظه صوت امرأةٍ عجوزٍ كانت تجلس على الرصيف المتكسّر الذي كان يسير بمحاذاته:

-أحتاج إلى المساعدة! أرجوك أعطني نقوداً!

انتفض فريد فزِعاً لدى سماعه صوت المرأة التي كانت ترتدي ثياباً غجريةً مهلهلة بألوانٍ متنوّعة، وراح يركض بذعرٍ مبتعداً عنها، بينما الأمطار تنهمر من جديد.

10
الجلسة الرابعة

كان ذلك في شتاء عام ١٩٧٤ على ما أذكر..

-يا أمّي، هناك عجوزٌ مسكينةٌ عند الباب تحتاج إلى العون.

هتفت أختي لمى وهي تركض إلى داخل الشقّة المتواضعة تاركةً الباب خلفها نصف مفتوح.

هرعت أمّي بسرعةٍ إلى الباب، وكان الفضول دفعني لأسبقها إليه:

-أحتاج إلى مساعدة يا أختي، ليحفظ الله طفليكِ الجميلين، بحقّ يوم الجمعة.

قالت المرأة التي كانت ترتدي ثياباً ملوّنةً فضفاضةً قد أثارت نظري، وتحمل على كتفها كيساً قماشيّاً كبيراً.

-الله يعطيكِ.

قالت أمّي وهي تدفع الباب تريد إغلاقه بينما تحاول المرأة الغريبة منعها من ذلك:

-أرجوكِ يا أختي، أعطني أيّ شيءٍ ولو بسيط.

توسّلت المرأة.

-ليس لدينا شيء..

قالت أمّي وأوصدت الباب قبل أن تقفله مسرعةً بالمفتاح المعلّق بمسمارٍ على الحائط.

اقتادتنا أمّي إلى الداخل وهي تجرّ أختي لمى من يدها بعنف:

-كم مرّة عليّ أن أنبّهكما ألّا تفتحا الباب للغرباء؟

صرخت أمّي موبّخة.

-ولكن يا أمّي، قد تكون المرأة بحاجةٍ إلى المساعدة.

هتفت أختي بعد أن تخلّصت من قبضتها.

-وما أدراكِ أنّها ليست نوَريّةً تخطف الأطفال الصغار؟

صُعِقتُ لهول ما قالته أمّي وازددتُ تنبّهاً واهتماماً. ثم أردفت أمي بغضب:

-نعم، قد تكون نوريةً تخطف الأطفال وتأخذهم إلى مساكن قبيلتها لكي لتبيعهم، وربّما تحمل في الكيس على كتفها سكاكين لكي تقتلني ثم تأخذكما. من الآن فصاعداً لن يفتح أيُّ منكما باب المنزل لأيٍّ كان، وإلا أخبرت أبيكما، مفهوم؟

دارت الأحاديث لأيّامٍ بيني وبين لمى حول تلك الحادثة، ورحنا نحيك الحكايات المرعبة والسيناريوهات الفظيعة التي كان من الممكن أن تقع لو لم تغلق أمّي الباب في وجه العجوز الشمطاء التي كانت تريد خطفنا وتمزيق شمل العائلة. ساورتني المخاوف بدوري لأيّامٍ بعدها وكثيراً ما عجزت عن النوم وأنا أفكر في أن "نَوريّةً" ما قد تقتحم المنزل في أيّ لحظةٍ لتخطفني أو تخطف لمى.

لم تكد أيّامٌ قليلةٌ تنقضي حتّى تعرّضتُ لحادثةٍ لا أنساها ما حييت.

ألبستنا أمّي الزيّ المدرسيّ، وتحته الكثير من طبقات الملابس لاتّقاء البرد القارس، حتّى كنت وأختي لمى بالكاد نستطيع التحرّك تحت كلّ تلك الثياب، وقد دسّت في حقائبنا لفائف الخبز بالزيت والزعتر:

-انتبهي يا لمى إلى أخيكِ أثناء عبور الشارع، وسلّما على خالتكما ندى.

انطلقنا سويّاً، تارةً بأيدٍ متشابكة، وتارةً أخرى نفترق لتجنّب بحيرات الماء والوحل التي كانت تعجّ بها الطرقات والشوارع. كنا نعرج كلّ صباحٍ على منزل خالتي ندى لنصطحب هبة –ابنة خالتي وصديقتنا المحبّبة– إلى المدرسة، وما إن وصلنا إلى شارع بيتها حتّى لمحتُ امرأتين غجريتين على عربةٍ يجرّها حمارٌ ويتقدّمهما كلبٌ كبير؛ قادمتين باتجاهنا. تجمّدت

أطرافي وأنا أراقب الجحيم الذي يقترب منّا، مصفرّ الوجه أكاد أسقط مغشيّاً عليّ. تنبّهت أختي إلى قدوم المرأتين واستشعرتْ خوفي، استجمعتُ قواي الغائرة وبدأت بالركض كالممسوس باتّجاه المنزل بينما لا أنفكّ أنظر خلفي.

عجزت لأسبوعٍ كاملٍ بعدها عن النطق بكلمةٍ واحدةٍ، بينما أصرّت أمّي على أنّني قد أصبت باليرقان على الرغم من نفي الطبيب للأمر وإصراره على أنّ الأمر يتعلّق بصدمةٍ نفسية. حاول والداي استعادة عافيتي بشتّى الوسائل، بالتحفيز تارةً وبالوسائل العلاجيّة الشائعة تارةً أخرى، حتّى وصل الأمر بهما إلى اصطحابي إلى إمام مسجد الحيّ الذي قرأ عليّ بعض الآيات والرّقى. وعندما لم ينفع الأمر توجّهوا بي إلى دجّالٍ يمارس طقوساً غريبةً في مكانٍ مرعب. مكثت في إحدى المشافي الخاصّة لأسبوعين كاملين حتّى أخذت حالتي بالتحسّن تدريجيّاً.

استمر والدي بإيصالي وأختي إلى المدرسة طوال العام الدراسيّ بعد تلك الحادثة.

11

برلين

(شباط- فبراير/ 1989)

فور دخوله إلى غرفته ارتمى فريد على السرير وأغمض عينيه بينما يعتقد أنّه سيغفو خلال ثوانٍ لشدّة إرهاقه. لقد كان قلبه ينبض بقوّةٍ كان يشعر معها بأنّ السرير ينتفض. بعد أكثر من ساعةٍ عجز فيها عن النوم وعن إطفاء دماغه وإيقاف سيل أفكاره؛ نهض لتبديل ملابسه قبل أن يذهب إلى المطبخ لصنع الشاي.

عاد وفتح الكتاب الذي حصل عليه من دافيد قبل سويعاتٍ مقابل سيجارة. أمضى ساعتين في قراءة ذلك الكتاب الصغير، رسالة الابن إلى والده التي أفصح فيها عن كل عذاباته التي عاناها جرّاء معاملة الوالد القاسية. كان يقرأ ويقارب بين سلوك الوالديَن، ويتخيّل والد فرانتس كافكا هو والده نفسه، على الرغم من الاختلافات الكبيرة بين الرجلين. عاد فريد إلى بداية الكتاب وشرع يتصفّحه مرّةً ثانيةً فوقعت عينه على جملة لطالما كان والد فرانتس يوجّهها إليه: "سأفسخك مثل سمكة!"

أغلق فريد الكتاب وبدا له في تلك اللحظة أنّ الخيار الأفضل بالنسبة إليه أن يتعاطى مع وضعه بشكلٍ عمليّ. هو غير مطالبٍ بحبّ أبيه ولن يكون مضّطراً إلى العيش على نفقته بعد التخرّج من الجامعة. حينها سيقطع علاقته معه ومع حلفائه أمثال أيمن ووالده، وسيستقلّ بحياته عن الجميع. فكّر في أنّ موت والدته الذي وهبها حرّيتها وانعتاقها من قيود التجبّر والتسلّط قد يشكّل له خلاصاً هو الآخر، فبموتها لم يعد لدى فريد ما يربطه بتلك البلاد. كان على فريد في تلك اللحظة تذكّر حبيبته نايا التي تركها مرغماً هناك من دون أن يودّعها.

والد فريد لم يفسخه مثل سمكة، بل صنع منه جسراً ليعبر عليه من ضفّة المجرمين إلى ضفّة الأبرياء، كان يعلفه ويكبّره لسنواتٍ، فقط

ليستطيع حمله يوماً ما، وكما كان فرانتس ينوء تحت ثقل جسد أبيه وحضوره، فقد سُحِقَ فريد تحت ثقل بقاء والده حيّاً.

*****

فُتِحَ باب الشقّة وأُغلِقَ من الداخل بقوّة. كان فريد يسمع أصوات القبلات والتأوّهات وكأنّ أيمن يضاجع الفتاة أمام باب غرفته، أغلق أذنيه بيديه مع اشتداد الأصوات قبل أن يتّجه إلى سريره ويدفن رأسه تحت الوسادة.

بعد دقائق خفتت الأصوات، ثم طرقَ أيمن باب الغرفة قبل أن يفتحه وهو نصف عارٍ:

-يا رجل! لقد ظننتُ أنّك لست في المنزل. ولكن شكراً لك، ستنقذني. أريد منك بعض المال حالاً.

تظاهر فريد بالنوم فدخل أيمن، جلس على طرف السرير واستأنف:

-هل متَّ يا رجل؟

-المال على رفّ الخزانة، خذ ما شئت وارحل من هنا.

-لقد كنت أعرف أنّك لن تردّ صديقك خائباً.

قال أيمن واتجّه نحو الخزانة.

-هل عليّ الآن أن أدفع لك نقود عاهراتك أيضاً؟

قال فريد بينما ينهض.

-يا صديقي، ما عسايَ أفعل؟ أنت تعرف أنّني لا أستطيع العيش وفي المدينة فتاةٌ تبحث عن رجل. ها هو المال! آه، اعذرني، لقد كانت ساخنةً إلى درجةٍ لم أستطع معها الصبر حتى أصل بها إلى غرفتي..

قال أيمن وغادر الغرفة مقهقهاً.

*****

خرج فريد من غرفته بعد ساعتين حاول فيهما النوم عبثاً، ليجد أيمن في غرفة المعيشة يدخّن القنّب. دخل إلى المطبخ من دون أن ينبس ببنت شفة، ثم غادره بفنجان القهوة باتّجاه غرفته:

-فريد..

ناداه أيمن فتوقف فريد والتفت إليه صامتاً.

-هل يروقك اسم لؤي أكثر؟

-الأمر سيّان، ما يروقني أكثر هو عدم سماع صوتك.

-لا تَقسُ عليّ يا أخي!

-لست أخاك!

-تعال واجلس معي. صدّقني إنّني أشعر اليوم بالحزن وأحتاج إلى مَن أحادثه!

صمت فريد للحظاتٍ قبل أن يمشي ويجلس على الأريكة المقابلة لصاحبه:

-وما يحزنك؟ هل تدفع المال للعاهرات لكي تشكو الحزن بعدها؟

-أشتاق إلى لورا.

-لم أكن أدري أنّك تشتاق إلى أحد!

-أنت تعرف أنّني كنت أحبّها، قبل أن أكتشف أنّها..

-أنّها ماذا؟

-أنها كانت على علاقةٍ مع رجلٍ آخرٍ، كانت تخبرني أنّها تحبني، وقد أعطيتها كل شيءٍ وقد كنت على وشك تغيير حياتي لأجلها، ولكنّها كانت تخدعني، ببساطة. ليس أصعب على الرجل من أن يثق بامرأةٍ ويتكشّف له لاحقاً أنّه كان حماراً.

-لمَ لا تبحث عنها؟

-أين؟ في الغرب؟ كيف لي أن أعرف في أيّ مكان هي الآن؟

-ولماذا تفكر فيها إذن حتّى الآن؟

-لأنّها الوحيدة التي كان في وسعها أن تغيّرني، الوحيدة التي أحببتها بحقّ!

-ولأنك تحبّها تعاشر عشرات الفتيات الأخريات؟

-تماماً، لقد أصبت! كنت قبل لورا أعاشر الفتيات بحثاً عن المتعة، وبعد لورا فأنا أعاشرهنّ بحثاً عنها، أو انتقاماً منها.

-وهل تظنّها تأبه بانتقامك ذاك؟ ولو عادت واختارتك أنتَ من دون الجميع، هل سترتبط بها وتنسى كل الفتيات الأخريات؟

-هذه أمنيتي يا رجل! أتمنّى عودتها، لأضاجعها بكل حبّ، قبل أن أرمي لها النقود وأمضي.

-لا أفهمك! تقول إنّك تضاجع النساء بحثاً عن لورا بينهنّ، ثم تقول أنّك ستعاملها مثل أي عاهرةٍ أخرى.. إنّه تأثير القنّب بالتأكيد!

-كلهنّ عاهرات، وكبيرتهنّ لورا، العاهرة التي أحبّها.

-أنت مجنون!

-لست كذلك، بل أنتَ الأخرق!

-أخبرني، ماذا ستفعل بالرواية؟ ولماذا يهتمّ شخصٌ مثلك برواية؟

-لست مضطراً لإخبارك، فهي روايتي الآن، لكنّني سأخبرك؛ منذ طفولتي وأنا أتمنّى أن أكون مثل خالي، لقد كان شاعراً مغموراً ويعشق الكتب، وذات مرّةٍ أخبرني بأنّه كان يحلم أن يصبح كاتباً ويريد منّي أن أحقّق حلمه الذي عجز هو عن تحقيقه، وأن أهديه كتابي الأوّل حتّى وإن كان ميتاً. لكنّني كما ترى، لا أملك وقتاً للكتابة.

-وأين هو الآن؟

-لقد توفّي في سوريا قبل تسع سنوات، وكان آخر شخصٍ حيٍّ من عائلة أمّي، وأنا كنتُ الوريث الوحيد لتلك العائلة الغنيّة التي حطّت رحال أموالها في النهاية في جيب أبي. ذاك الرجل لا يشبع! لا أَشبعَه الله.

-وهل تعتقد أن خالك سيكون راضياً عن سرقتك لروايتي؟

-يبدو أنّك بدأت تخلط الأمور، خالي مات، لا يرضيه اليوم شيءٌ ولا يغضبه شيء، ما رأيك بأخذ نفَسٍ من هذه السيجارة لعلك تركّز أكثر؟

-لا أريد.. ما أريده هو أن تدعني وشأني فحسب.

-اسمع يا فريد، أنت مثل الفتيات، مثل كل شخصٍ وكل شيءٍ في هذا العالم بالنسبة إليّ.. أشياء صُنِعتْ لخدمتي ومصلحتي.

-أنت إنسانٌ حقير..

قال فريد بغضب قبل أن يطرق على الطاولة الصغيرة أمامه ويمضي تاركاً أيمن محمرّ العينين من تأثير القنّب غارقاً في ضحكه.

*****

أمضى فريد نصف الأسبوع متوعكاً في فراشه، وكانت الحمّى لا تفارق جسده، ولم يشعر بتحسّنٍ حتّى مساء السبت، أعاد حينها قراءة

رسالة كافكا ليتحدّث بها مع دافيد في لقائهما القادم، ثم شرع يفكّر كيف سيسرد قصّته لصديقه كما وعده. حاول أن يتصوّرَ الموقف عشرات المرّات من دون جدوى، حاول أن يتخيّل ملامح وجه صديقه بينما يسمع تلك القصّة، وحاول أن يتخيّل شكله وهو يرويها للمرّة الأولى بلسانه. فكّر في أنّه ربّما لن يكون مضطّراً إلى الكلام أصلاً، إذ يكفي أن يقدّم روايته لدافيد ليقرأها، وبذلك سيعرف الرجل القصّة كلّها.

اتّجه صبيحة الأحد الماطر نحو غرفة أيمن الذي لم يكن في المنزل، وبدأ يبحث عن مخطوط الرواية ليجده أخيراً في أحد الدروج. تردّد قبل أن يأخذ المخطوط، وخطر في باله للحظةٍ أنّه يأخذ ما ليس له. أمسك الرواية بيديه وشدّ عليها بقوّةٍ غاضباً وحاقداً على العالم الذي صوّر له أسمى ممتلكاته، بل وأوحدها؛ على أنّه مُلْك الآخرين. لم يكن ذلك الإنسان يملك حتّى أفكاره.

أخذ الرواية وغادر المنزل.

*****

بعد رحلة بحثٍ قصيرةٍ استطاع فريد إيجاد المبنى مجدّداً وعند وقوفه أمام الباب راح قلبه يخفق بقوّة، لمجرّد فكرة أن كارولينا ستستقبله. لقد أصابته عدوى الخوف من تلك المرأة على ما يبدو. قرع الجرس أخيراً وأخذ يعدّل ياقة قميصه الأزرق المنقّط بالأخضر متأبّطاً ملفّ الرواية. بعد دقائق من الانتظار أعادَ قرع الجرس ونقرَ على الباب بلطف.

فتحت البابَ سيّدةٌ لا يعرفها ونظرت إليه بصمت.

-عفواً! أين كارولينا؟

سأل فريد بعد ارتباكٍ قصير قبل أن ينتبه أنّ عليه السؤال عن دافيد الذي قد جاء لزيارته، لا عن كارولينا التي قد تكون في عطلةٍ أو ما شابه، فاستطرد:

-أقصد دافيد، السيّد دافيد، أتيتُ لزيارته اليوم.

تابعت السيدة صمتها المريب قبل أن تنطق أخيراً:

-كارولينا في الداخل، تفضّل.

عبر الممر كانت السيّدة تمشي أمام فريد باستكانةٍ ورصانةٍ كأنّها تقيس خطواتها بالسنتيمترات، قبل أن تطرق على باب غرفةٍ في الطابق الأرضيّ تبعد عن المدخل عدّة أمتارٍ وتفتحه له ليدخل. نظر إلى داخل الغرفة فلم يلاحظ وجود أحد، فدلفَ داخلاً بحذر ليجد كارولينا في سريرها تغطي قدميها؛ ويداها على حجرها. رفعت المرأة رأسها فانهمرت من عينها دمعة سريعة علقت على ذقنها.

-متى؟

سأل فريد وقد وجّه نظره إلى الجدار وزم شفتيه.

-قبل يومين.

أجابت السيّدة.

-كيف؟

-توقّف قلبه صباحاً.

صمت الاثنان لبرهةٍ فاستأنفت المرأة بعد أن مسحت خدّها بظهر كفّها:

-غرفته فوق غرفتي تماماً، لقد اعتدت سماع وقع قدميه كل صباح، استيقظت ولم أسمع لساعتين أيّ حركةٍ من غرفته فهرعتُ إليها فَزِعة. هل جئتَ بشيءٍ له؟

قالت كارولينا بصوتٍ خفيضٍ وعينيَن مثبّتتين على الملف تحت إبط فريد.

-أردت أن يقرأ روايتي هذه.

أجاب بعد صمت.

-تأخّرت يا فتى. لقد حكى لي عنك، جلسنا مساء الأربعاء لوقتٍ طويلٍ وقد تحدّث عنك بسعادة، كان يصفك بـ(صديقي الجديد). ما اسمك؟

-لؤي..

أجاب فريد متلعثماً والحزن يقطر من عينيه.

-حسناً، التأبين والدفن غداً إن شئت الحضور.

*****

لم ينطق فريد بعد زيارته لمأوى العجزة بأيّ كلمة. عاد إلى المنزل وفتح مخطوط الرواية وخطّ الإهداء الذي سيبدّله أيمن لاحقاً بإهدائها إلى خاله:

"إهداء: إلى لمى، إلى نايا، إلى دافيد".

أغلق الملف مجدّداً قبل أن يرجعه إلى الدرج في غرفة أيمن.

*****

استيقظ فريد صباح الإثنين بعد نومٍ طويلٍ، ارتدى قميصاً أسود قبل أن يهمّ بمغادرة المنزل باتّجاه المقبرة اليهوديّة (برلين-فايسين زي). وما إن غادر الشقّة حتى التقى بأيمنٍ عند الباب:

-آه! إلى أين أنت ذاهب بهذا القميص الجميل يا كازانوفا؟

قال أيمن معترضاً طريق فريد وراح يمسّد قميصه.

-دعني وشأني، لا وقت لدي!

أجاب فريد ودفع يد صاحبه عنه.

-أعلم أنّك دخلت إلى غرفتي وأخذت الرواية، ولكن لا مشكلة فنحن واحد، أليس كذلك؟

-لا عليك. لقد أعدتّها الآن على كلّ حال، أردتُ إجراء تعديل بسيط، والآن هل يمكنني الذهاب؟

-بالطبع يا صديقي، هل تذهب لمقابلة فتاة؟ الفتيات يعشقن اللون الأسود، أحيّيك على اختيارك.

قال أيمن ضاحكاً وهو يربت على كتف فريد، فما كان من هذا الأخير إلّا أن سدّد لكمةً إلى بطن صاحبه، مما دفعه لأن يجثو على ركبتيه:

-آه يا فريد النسر! لقد لكمتني مجدّداً.

قال أيمن مقهقهاً ومتأوّهاً، فتركه فريد مغادراً الشقّة.

*****

لم يستطع فريد إيجاد المقبرة بسهولة، فقد ضلّ طريقه عند البحيرة عندما أرشده أحد المارّة إلى الطريق بشكلٍ خاطئ. كان عليه أن يعلم أن ذلك الرجل المتعجرف لن يدلّه على الطريق الصحيح، فقد تغيّرت ملامح

وجهه عندما سمع بالمقبرة اليهوديّة وأشار إلى الشارع المقابل على مضضٍ قبل أن يدير ظهره، ولم يكن لدى فريد خيار آخر سوى أن يسلك ذلك الطريق، فمتابعة سؤال المارّة قد تجلب له متاعب أكبر.

عند وصوله إلى المقبرة كانت كارولينا تغادرها برفقة رجلٍ خمسينيٍ وفتاة. عانقته المرأة بحرارةٍ وحنانٍ لم يلمسه منذ زمنٍ كبير، فأطلق تنهيدةً صامتةً وهو يرخي خدّه على كتفها، وعندما أفلتته انتبه إلى الفتاة، لقد كانت هانّا، على الرغم من احمرار عينيها وانتفاخ وجهها استطاع الشابّ التعرّف عليها:

-عزائي لكم..

قال فريد ناظراً إلى الفتاة ووالدها.

-هل كنت تعرفه؟

سألت هانّا.

-تعرفتُ إليه الأسبوع الماضي ولعبنا الشطرنج معاً.

*****

جلس فريد في مقهاه المعتاد في ساحة كارل ماركس، يتأمّل فنجان قهوته الباردة بينما الحزن ينهش قلبه بصمت. شكّلت وفاة دافيد صدمةً أخرى أُضيفت إلى سجّل خساراته، لكنّها لم تكن قادرة على انتزاع دمعةٍ واحدة من عينيه. شرع يتذكّر يوم الأحد الماضي ويبتسم، يحاول التقاط ملامح صديقه وسحبها من بين أحشاء الذاكرة الضبابيّة، كان الوقت الذي أمضاه برفقة دافيد يشبه حلماً سرعان ما انزلق من بين يديه. رفع

رأسه إلى السماء وتمنّى أن يكون دافيد قد التقى بسوزان -زوجته المحبوبة- في السماء.

فكّر في والدته، هل تنتظر والده الآن في السماء أيضاً؟ وأي عدالةٍ قد تجمعهما في الحياة الثانية! فكّر في أنّه قد خاطر بنفسه عندما اختار الذهاب إلى دافيد للعب الشطرنج، كان يغامر بالكثير عندما تجرّأ على التعرّف إلى إنسانٍ جديد، لقد قامر على الحزن من دون أن يدري. إدخال الناس إلى حياتنا هو شيءٌ مثل أي شيءٍ آخر في هذا العالم، لا نعرف كيف ينتهي، مثل رمي حجر النرد، لا نعرف على أيّ وجهٍ سيتوقّف، ولا نستطيع توقّع ذلك أيضاً. أمرٌ نفعله مراهنين على الحظّ وحده، قد تتبعه طامّةٌ كبرى، وقد يذهب إلى النسيان في لحظة من دون أن يترتّب عليه أي شيء. يبقى الخيار لنا في أن ندخل مغامرةً كهذه أو لا. قرّر عدم المغامرة مجدّداً، فكلّ مغامراته قد نتج عنها الحزن والخيبة. اعتقد أنّ السعادة قد تكمن في غياب الألم فحسب، في تجنّب الحزن قدر الإمكان، وأكثر لحظات سعادتنا على الإطلاق تلك التي يكون فيها الألم أبعد ما يكون عنّا.

ضغط فريد على زر الاستسلام وكبتِ أيّ رغبةٍ بفعل شيءٍ بمحض إرادته للمرّة العاشرة بعد الألف، علّه يكون قد تعلّم الدرس الآن.

*****

-لقد عدتَ من موعدك الغرامي باكراً يا (دون جوان).

قال أيمن فور دخول فريد إلى الشقّة.

-يا هذا، ألا تملّ؟ لقد كرهتُ وجودي معك.

-لكُمتُكَ أخبرتني بذلك، لا عليك.. كنت أمازحك فحسب.

قال أيمن ونهض عن الأريكة، ثم استطرد متّجهاً إلى المطبخ:

-ألن تخبرني أين كنت؟

-تأبين أحد الأصدقاء.

-أحد الأصدقاء؟ هل مات؟

-أقول لك إنّني ذهبت إلى دفن الرجل، لا إلى حفلة عيد ميلاده، هل أنت أبله؟

-اعذرني لم أكن أعلم.

-وأنا لم أكن أعلم كذلك أنّك تعرف الاعتذار.

قال فريد وقصد غرفته فلحق به صاحبه.

-أعرف الاعتذار وأعرف كيف أكون طيّباً، صدّقني.

-لست معنيّاً بتصديقك.

قال فريد بعد أن فكّ زرّين من أزرار قميصه وتوقّف.

-ألن تخبرني كيف مات صديقك؟

-وكيف يموت الناس؟ مللاً أو حزناً.

-رحمه الله.

-شكراً لك، هل يمكنني تبديل ملابسي الآن؟

همّ أيمن بمغادرة الغرفة فاستأنف فريد:

-كنت أريد بالأمس أن يقرأ روايتي.

-هل جننت؟ سيعرف كلّ شيء عنك!

-اطمئن، لقد مات الآن من دون أن يعرف أيَّ شيءٍ حتّى، يا لحظّكم!

-لا تجلب لنا المتاعب يا فريد.

-نادني لؤي من فضلك، وما علاقتك أنت بالأمر؟

-أنت تعيش في منزلي منذ سنوات، فكيف يكون لا علاقة لي بالأمر؟

قال أيمن وهو يقترب من فريد.

-إذن عليك عدم نشر الرواية، فقد يقرؤها أحدهم ويعرف أنّها حقيقيّةٌ بكل ما فيها.

-لا عليك، الرواية ستجعل منّا مشاهير نخبويين.

-هل قرأتها أصلاً؟

-بالطبع، إنّها رائعة، رائعة جدّاً.

-هذه معاناتي!

-ولأنّها معاناةٌ حقيقيّةٌ هي بكلّ تلك الأصالة، سنصبح أغنياء يا رجل، دع هذا الأمر لي.

-حقير!

-لا تكن أبلهاً، قد تبكي عشرات السنوات بسبب كلّ ما عشته، لكن ذلك لن يجلب لك إلّا مزيداً من الحزن. عليك أن تشكرني، فأنا سأصنع من حزنك شيئاً مفيداً.

-أنت؟ إذن ما علاقتي أنا الآن؟ الرواية؛ أي معاناتي، ستفيدك وحدك.

-وأنت ستكون بمثابة وكيل أعمالي وسنتقاسم كلّ الأرباح والشهرة مناصفةً، سأعطي الرواية لأحد معارفي ليقوم بتحريرها وسننشرها عن طريق كبرى دور النشر الألمانيّة، وسننشرها كذلك باللغة العربيّة، وقد تترجم للروسيّة وللغاتٍ أخرى.

-لا شأن لي بذلك كلّه، لست وكيل أعمال أحد ولن أكون.

-بل ستكون يا فريد، وستواصل الكتابة من أجلنا.

-أي أنّك ستستمر في استغلالي!

-لا تكن ضيّق الأفق ومحدود التفكير، فكّر بشكلٍ تجاري، أنت من دوني لن تنشر حرفاً، وأنا بدوري لن أفعل من دونك، أمّا إذا ما وحّدنا جهدنا فسنصير فوق الريح، وسأخرج من عباءة أبي القوّاد أخيراً.

-تخرج أنت من عباءة أبيك وأَلِجُ أنا في عباءتك. إن كنتَ ستخرج من مكانٍ ما، فعليك الخروج من غرفتي.. حالاً!

قال فريد ودفع أيمن خارج الغرفة قبل أن يغلق الباب بقوّة.

-بالمناسبة، لا بدّ وأنّك ضربت كثيراً من الناس، قبضتك تلك قوّية، لن أنساها لك ما حييتُ يا فريد موفّق النسر.

هكذا راح أيمن يصرخ في الخارج كالمجنون وهو يلكم باب الغرفة.

12

الجلسة الخامسة

كان الوقت قد تأخّر على عودتي إلى المنزل، وكنت قد تناولت الكثير من ورق العنب وشربت الكثير من الشاي وأمضيت وقتاً ممتعاً لم أرد له أن ينقضي في بيت خالتي التي دعتني خصّيصاً لتناول ورق العنب الذي أحبّه. كنت حينها على الأرجح في الصفّ الخامس الابتدائيّ، عند الساعة الثامنة أرسلتني خالتي إلى البيت وألبستني معطفي السميك وراقبتني بعينيها من النافذة حتّى غبت عن ناظريها في آخر الشارع الخاوي.

كنت أمشي بتأنٍّ على الرصيف ناظراً إلى الخلف بين الحين والآخر، دلفت إلى شارع منزلنا وكدتُّ أصل إلى باب المنزل عندما نهض سليم -ابن الجيران المشاكس- عن الرصيف حيث كان يجلس أمام منزلهم وكأنّه كان ينتظرني هناك، أو ينتظر أيّ أحدٍ ليثير المشكلات، واعترض طريقي:

-ها.. أنت! هل تملك دحل لنلعب؟

-لا ليس لدي شيء.

قلت محاولاً التملّص منه.

-بل لا تريد اللعب معي.

-ليس لدي دحل صدّقني.

-ولماذا تصرخ فيّ؟

-لست أصرخ، دعني أذهب.

-لن أدعك تذهب. هل معك نقود؟

-كلّا.

-سوف أقوم بتفتيشك.

-اتركني وشأني!

تقدّم سليم نحوي وحاول دسّ يده في جيب معطفي فدفعته دفعةً قوّية، فما كان منه إلّا أن صفعني ورماني أرضاً وبدأ بضربي. أفلتُّ منه بصعوبةٍ وركضت نحو المنزل بعد أن أوسعني ضرباً.

طرقت باب المنزل بقوّةٍ لاهثاً بثيابي المبلّلة والمتّسخة وعلى وجهي آثار خدوشٍ أحدثتها أظافر سليم، وعلى كفّيّ جروحٌ من أثر السقوط على الأسفلت البارد. فتحت أمّي الباب وقد حضّرت نفسها لتوبيخي بسبب تأخّري بعد أن توعّد والدي بضربي عندما أعود:

-ما الذي جرى لك؟

-تعثرت وسقطت على الأرض.

-لا تكذب، أين كنت يا ولد؟

-ضربني سليم.

قلتُ مرتجفاً بينما أحاول الدخول إلى المنزل.

-سليم ابن أبو رائد؟

-نعم.

-إلى أين تذهب كلّ يوم؟ ليأخذك الله ويريحني منك! لا تخبر والدك بشيء.

قالت ذلك وهي تهمس في أذني همساً حادّاً وسحبتني بعنف إلى الحمّام.

غضبت أمّي بسبب مشاجرتي مع إبن الجيران وقرّعتني وأخبرتني بأنّ ما جرى لي ما كان ليجري لو عدت إلى المنزل قبل غياب الشمس، وحذّرتني من التعاطي مع الأطفال في الحيّ.

-ولكنّني لم أفعل شيئاً يا أمّي، سألني إن كان معي دحل ثم طلب مني نقوداً و...

-اخرس! لن تخرج من المنزل بعد اليوم إلّا إلى مدرستك، هذا ما كان ينقصني، أن تتشاجر مع أولاد الشوارع.

صرخت بي أمّي وهي تغسل يديّ بالماء البارد والصابون.

-أمّي أنتِ تؤلمينني!

-لا أريد أن أسمع صوتك!

قالت وهي تكزّ على أسنانها وتفرك كفّيّ بالليفة بقوّةٍ أكبر.

*****

تكرّر الموقف مع سليم مرّةً ثانيةً بعد عدّة أيّام خلال عودتي من المدرسة، وقام سليم برمي حقيبة الظهر الخاصّة بي في حفرةٍ مليئةٍ بمياه الأمطار والوحل، رغم أنّني نبّهته لوجود كتاب التربية الدينيّة في الحقيقة، وضربني، حتّى صرتُ أمشي في الشوارع بكلّ حذرٍ، وأتأكّد بشكلٍ مستمرٍ من عدم وجوده في الحي عند خروجي أو عودتي إلى المنزل.

صرت مهووساً به، أكره الشارع والمدرسة، وأمسيت أعيش مع الخوف يومياً وأجد صعوبةً في النوم وأعايش كوابيس تثير رعبي، كما كنت لا أجرؤ على إعلام والدي بالأمر، وحتّى والدتي، أؤلّف لها قصصاً لأبرّر اتّساخ ثيابي أو عدم رغبتي في الذهاب إلى المدرسة.

لأيّامٍ اعتدت ممارسة تمارينَ رياضيّة والتدرّب على حركاتٍ قتاليّةٍ وأصبحت أتخيّل سليم أمامي وأقوم بضربه بالعصا. اتّخذت ذات يومٍ قراراً بأن أواجهه وأردّ له الصاع، فاشتريت القليل من الدحل وتسلّلت إلى الحي بعد الظهيرة لأنضمّ إلى الأولاد وكان سليم بينهم.

-أريد اللعب معكم.

قلت لهم بصوتٍ متردّد.

-لا نلعب مع الجبناء.

قال سليم ونهض عن الرصيف ثم استطرد:

-اذهب قبل أن تتّسخ ملابسك النظيفة لتنجز واجباتك المدرسيّة قبل أن تغضب أمّك.

علا ضحك الأولاد وراحوا يدورون حولي ببلادة.

-لدي الكثير من الدحل.

قلت وأنا أقاوم دموعي وأحاول إخفاء ارتجاف صوتي.

-أرني ما لديك.

قال سليم. وفور إخراجي للدحل من جيبي قام بخطفهم من يدي ورفض إرجاعهم إليّ.

تشجّعت وهاجمته لاستعادة الدحل منه بالقوّة بينما يضحك بدوره بصوتٍ مرتفعٍ مع باقي الأولاد، فصفعته على وجهه ثم رجعت إلى الوراء خائفاً. استشاط غضباً وانقضّ عليّ مع ولدٍ آخر وبدأا بضربي بينما أنا ملقىً على الأرض. لم أستطع إخفاء ما حصل عن أمّي فقامت هي الأخرى بضربي وكأنّ ما فعله بي الأولاد لم يكن كافياً.

التجأت في النهاية إلى الصلاة والدعاء لتخليصي من سليم بعد أن استنفدت كل الوسائل الممكنة للتخلّص منه. فكنت أتفنّن في الدعاء عليه، بالموت والمرض وأنواع ثانيةٍ من البلاء والمصائب. بدا لي حينها أن الله وحده من يستطيع هزيمة عدوّي الشرس ذاك وتخليصي من شرّه المستطير.

*****

لم أكره شخصاً في حياتي كلّها كما كنت أكره ذلك الولد سليم في تلك الفترة، حتّى كرهي واشمئزازي من (أبو دياب) كانا قد تواريا واضمحلّا خلف شرّ ذلك الطفل، ولم أكن أتصوّر أنّني قد أستطيع أن أغفر له كل ما ألحقه بي من أذى. ولكن وعلى اعتبار أن الحياة مفارقةٌ كبيرةٌ يتفرّع منها عددٌ لا يحصى من المفارقات الصغيرة، فقد أصبح سليم ذات يومٍ الصديق الأقرب إليّ.

التحقنا كمراهقين بذات المدرسة الإعداديّة في دمشق، وكنّا نتبادل النظرات بين الحين والآخر خلال الاستراحة. مرّ وقتٌ طويلٌ على شجارنا الأخير، سنواتٌ مرّت. لم يكن سليم تلميذاً جيّداً على الإطلاق، وكان يجمع حوله عدداً من المراهقين الآخرين ممّن تستهويهم المشكلات، فكنت أستمرّ في تجنّبه والابتعاد عنه قدر الإمكان.

في إحدى المرات نادى سليم بأعلى صوته: "فريد!". التفتّ حولي باحثاً عن مصدر الصوت من دون أن أستطيع تحديد صاحبه، "هنا في النافذة" هتف سليم. نظرت إليه وبالكاد استطعت التعرّف عليه في الظلمة التي أطلّ منها. كانت تلك النافذة التي ظهر خلف قضبانها الحديديّة تبدو كأنّها تفضي إلى كهفٍ أسود.

-ادخل من هنا، من باب الدكّان.

قال سليم وأشار نحو اليسار.

تردّدت قبل أن أدخل إلى الدكّان التي كانت تنبعث منها رائحة الخبز إلى الشارع، وتختلط بها روائح بيض مقليٍ مع الطماطم والبصل ورائحة تبغٍ لاذعة.

خلف طاولةٍ خشبيةٍ قديمة تكاد تتداعى؛ كانت تجلس امرأةٌ عجوزٌ تغطّي رأسها بمنديلٍ أزرق ثبّتته إلى ذقنها بعقدةٍ كبيرة، تدخّن وتبصق ما يعلق على لسانها من نتف التبغ.

كانت أمّ غزوان امرأةً سبعينيّةً تعيش وحيدةً بعد وفاة زوجها قبل سنواتٍ طويلة، حيث سقط ذات شتاءٍ في حفرةٍ مفتوحةٍ للصرف الصحيّ لم يلحظها بسبب فيضان الطريق بالماء، فمات اختناقاً، وتقتات من دكّانها الصغير الذي تبيع فيه السجائر وبعض مواد التنظيف والمواد الغذائيّة، كما تصنع أحياناً بعض الحلويّات الشعبيّة الرديئة التي يحبّها الأطفال.

-أردت التحدّث إليك منذ زمنٍ يا فريد..

قال سليم الذي لم يكن يرتدي الزيّ المدرسيّ أو (بدلة الفتوّة) كما كانت تسمّى. ثم أردف:

-آه! نسيت أن أعرّفك بأمّ غزوان، صاحبتي..

تابع ضاحكاً، بينما أنظر أنا إلى المرأة التي كانت تضحك هي الأخرى فاتحةً فمها -الذي لم يتبقَّ فيه سوى النابين العلْويّين- على آخره.

كان دكّان أمّ غزوان ملجأً لبعض الصّبْية في الحيّ، وكانت المرأة تحبّ سليم كما يحبّها، فكانت تبيعه السجائر "بالمفرّق" كما كان يقول، أي أنّها تقوم ببيعه سيجارةً واحدةً أو اثنتين، بحسب ما لديه من المال، كما كان يساعدها في أعمال الدكّان ويتناول معها الطعام أحياناً، ويستطيع في بيتها –الذي اقتطعت غرفةً من غرفه لتحويلها إلى دكّانٍ، والذي كان يبدو مستودعاً رثّاً أكثر من كونه بيتاً– أن يدخّن ويترك بدلته وحقيبته عندما يريد الهروب من المدرسة، أو حتّى أن يتابع نومه.

كنتُ في بادئ الأمر؛ في كلّ مرّةٍ يتودّد فيها سليم إليّ؛ أشعر برغبةٍ عارمةٍ بتنفيذ كل ما كنت أحلم به في السنوات الماضية، وهو إبراحه ضرباً أو حتّى قتله.

-أنت ابن حارتي يا فريد، انسَ أيام الولدنة، لقد سمعت أحد أصدقائي يذكرك بسوءٍ منذ فترةٍ في المدرسة، وقد شتمك أمامي، فقمت بضربه على فمه من دون تردّد، ثم سألتُ نفسي؛ لمَ فعلت ذلك؟ ولم أجد جواباً سوى أنّنا جيرانٌ، وأنّني أعرفُ أنّك شابٌّ طيّبٌ ومسالم، ولا تستحق أن يغتابك أحد.

-حسناً..

قلت له ونهضت قبل أن أستأذن للذهاب إلى المنزل تاركاً تلك الدكّان المظلمة خلفي.

*****

صرتُ أتقبّل سليم مع مرور الوقت، بل وأحبّه أيضاً، وكأنّني ما أزال ذلك الولد الذي ابتاع الدحل ذات يوم، واقفاً على الرصيف بتردّدٍ أريد الانضمام إلى الأولاد باحثاً بينهم عن نفسي، عن شعوري بالانتماء إليهم، عن اعترافٍ منهم بأحقّيتي في الوجود، نابذاً ضعفي ومطالباً إيّاهم باللعب معي.

-أنت هكذا لا تدخّن..

استنكر سليم ضاحكاً ثم تابع:

-عليك أن تسحب دخان السيجارة إلى داخل صدرك هكذا..

قلّدتُ صاحبي؛ وفور إدخالي الدخان إلى صدري بدأت بالسعال حتّى احمرّت عيناي وذرفتا الدموع على خدّيّ إلى أن كدتُ أختنق، بينما أم

غزوان وسليم بجانبي يضحكان. عببتُ سحبتين إضافيتيَن من السيجارة رغماً عنّي فشعرت بتنميلٍ في رأسي ودوارٍ وغثيان.

-لا عليك يا أبا موفّق، هذا طبيعي، ماذا سيجري لك لو دخّنت النرجيلة؟

توجّه سليم بالكلام إليّ وطفق يقهقه حتى بانت أضراسه.

*****

في إحدى المرات؛ بينما كنت أنا وسليم نجلس وندخّن في دكّان أم غزوان في زاويةٍ لا نُرى فيها؛ قال سليم:

-أريد أن أخبرك شيئاً يا أبا موفق..

كنت أغتبط عندما يناديني صاحبي بـ(أبو موفّق)، وموفّق هو اسم والدي، وكنتُ سأحمل اسمه بأن أسمّي إبني البكر على اسمه كما تقول التقاليد. كان يجعلني هذا الاسم أتحرّر مرّة واحدةً من الطفولة وأنسلّ بمنتهى الرشاقة إلى الرجولة من دون عناء، الشعور الذي كانت تدعمه السيجارة وخلع البدلة المدرسيّة كذلك والتخلّص من ثقلها.

-رأيتُ (باسل) من الصفّ الحادي عشر يمشي مع ابنة خالتك بعد الدوام. لو كنتُ مكانكَ لشوّهت وجهه. كدت أهاجمه بعد أن اعتمل الغضب في قلبي، لكنّني فضّلتُ أن أخبرك أوّلاً، لتتصرّف بنفسك.

صمتُّ ولم أدرِ ما عليّ أن أقول. تحدّثت لاحقاً سرّاً إلى ابنة خالتي التي أنكرت الأمر وحذّرتني من التدخّل في شؤونها أو التعرّض للشاب بأذى، فيما أقسمَ سليم أنّه رآهما معاً وأقنعني أن أراقبها لأتأكّد من الأمر بنفسي، فلحقت بها بعد الدوام حتّى دخلت في زقاقٍ صغيرٍ خاوٍ، فاقترب

منها الشاب بعد أن تلقّت حوله بحذرٍ وجعل يحدّثها وهو يمسك يدها. استشطّت غضباً وشعرت بأن الدماء بدأت تغلي في عروقي لسببٍ لم أفهمه، فعدتُ أدراجي مرتجفاً من دون أن أتجرّأ على الاقتراب من العاشقين الصغيرين أو أشعرهما بوجودي.

-لو كنتُ مكانك لما تحمّلت المشهد، كيف استطعت أن تسيطر على أعصابك؟

قال سليم.

-لا أدري..

أجبته وشعور العار يداهم كياني.

-اسمع، سأساعدك، علينا تلقينه درساً موجعاً.

-ولم عساك تتدخّل في هذا الأمر؟

-لا تقل هذا يا رجل، أنت ابن حارتي، والفتاة تخصّك يا أبا موفّق، سأريك ما سأفعل به، بل سأدعك تؤدّبه بنفسك وتأخذ حقّك بيدك!

تبعناه حتّى فارق أصدقاءه واعترضنا طريقه. خلع سليم حزامه وبدأ بتوجيه الضربات إلى الشابّ بينما أقف مشدوهاً قبل أن يستطيع سليم تثبيته إلى الأرض وهو يصرخ فيه:

-سأعلّمك كيف تعبث مع بنات حارتي يا إبن الكلب. تعال يا فريد وخذ نصيبك من هذا الوغد.

اقتربت منهما بتردّدٍ ثم شعرت برغبةٍ لا تُقاوم بضربه بلا هوادة، نظرت مليّاً في وجه سليم الذي كان يومئ لي بعينيه أن أفعلها، قبل أن أنهال على الشاب ركلاً ولكماً بكلّ قوّتي...

*****

-حسناً، يكفي اليوم..

قال الدكتور فوزي وهو ينزع نظارته ويضع الأوراق التي كان يدوّن عليها الملاحظات جانباً.

13

برلين

(أيّار- مايو/ 1989)

إنّها أيام فريد الأخيرة قبل تخرجه من كلّيّة الفلسفة.

كان جالساً على أحد الأرصفة الحجريّة المرتفعة داخل حرم الجامعة، يدخّن ويفكّر في أنّه خلال سنوات دراسته للفلسفة لم يتعلّم شيئاً، لم يكن في برلين للدراسة أصلاً، بل كان فارّاً، بل كان منفيّاً، هائماً على وجهه، يحاول الهرب من فريد تارةً، ومن لؤي أطواراً.

-إنّها المرة الثالثة..

هتفت الفتاة وانتصبت أمام فريد.

-هانّا؟!

قال فريد متعجّباً.

-كيف حالك؟

قالت هانّا وجلست بجانبه وراحت تحدّق في المبنى المقابل.

-بحالٍ جيّدة.. وأنتِ؟

-لا بأس.. ما كان اسمك أيّها الشاعر؟

-لؤي.

-آه صحيح.. لواي، عندما كنت تخطر في بالي كنت أسمّيك الشاعر.

-لست شاعراً! هل كنت أخطر في بالك كثيراً؟

-يبدو أنّك تعلّمت من صديقك الكثير من الأشياء!

-لم يكن أكثر من مجرّد سؤال.

-لا.. لمَ عساك تخطر في بالي؟ وبخاصة أن صديقك تخشاه الجامعة كلها.

-كيف؟

-لا عليك.. عليّ الانصراف الآن.

قالت الفتاة ونهضت.

-لقد قلتِ إنّها الثالثة.

-أجل.

-لمَ هو مرهوبٌ الجانب في الجامعة؟

سألها بعد أن رمى سيجارته على الأرض ودهسها.

صمتت الفتاة قبل أن تقول:

-عليّ الذهاب.

-هانّا..

هتف فريد ثم استطرد:

-أنتِ تعلمين جيّداً، لست مثله، نحن على خلافٍ دائم. بل وكنتِ يوماً شاهدةً على ضربي له.

-وهل ما زلت تسكن معه؟

-أجل، ولكنّه ليس بصاحبٍ لي، صدّقيني، لست مثله.

*****

-أشرب قهوتي كل مرّةٍ هنا، هذا مقهاي المفضّل في برلين.

قال فريد وهو يسحب محفظة التبغ البنيّة من حقيبة ظهره وشرع يلفّ سيجارة.

-يا إلهي، وكأنّها محفظة جدّي!

-أجل، لقد أهداني إيّاها.

قال من دون أن يرفع رأسه بينما يلعق طرف الورقة.

-هل ستلفّ لي سيجارة؟

-أفعل.

أجاب وتذكّر السجائر التي قدّمها لدافيد قبيل وفاته والتي قد تكون لعبت دوراً في موته.

نجح فريد بدعوة هانّا لشرب القهوة بعد أن شعر بأنّه ملزمٌ بالدفاع عن نفسه، وهنا ظهرت له هشاشة مساعيه بأن يتخلّى عن ذاته القديمة، ذاته التي لا تزال تريد إثبات براءتها من كلّ ما تم تلفيقه لها.

-صدّقيني، هو ليس صديقي، ولا أحبّه، ولكنّني لا أريد المشكلات، فأضّطر إلى مجاملته أحياناً، ولكن علاقتنا ليست بالودّيّة على الإطلاق.

صمتت هانّا وأطالت النظر في وجه فريد الذي استأنف:

-لا تخافي منّي، ثقي بي! لستُ بالشخص الذي قد يؤذي أحداً.

-أحسست بذلك في تلك الليلة، لكن شريكك في السكن ذاك شخصٌ سيءٌ إلى درجةٍ تجعل الاقتراب من دائرته أمراً خطيراً.

-أتعلمين، لا أعرف عنه الكثير، لكنّني أعرف أنّه متعجرفٌ وأنانيٌّ إلى درجةٍ لا تحتمل.

-أتمنّى لو يتوقّف الأمر عند هذا الحدّ..

-أفصحي أرجوكِ!

صمتت هانّا فاستطرد فريد:

-أتفهّم خوفك منّي، الجميع هنا يخاف من الجميع.

-وأنت؟ ألا تخاف؟

-بلى، لكنّني أعتقد أنّني أستطيع الوثوق بكِ، كما وثقت بجدّك، لقد كان صديقي، أريد معرفة مع من أعيش منذ سنوات.

-وكم كانت المدّة التي أمضيتها بصحبة جدّي؟

-عدّة ساعات.

-هذا يثير استغرابي حقّاً، سنواتٌ ولا تعرف شيئاً عن الشخص الذي تقيم معه، بينما تصف شخصاً قد عرفته غالباً للعب الشطرنج مرّةً واحدةً فقط بأنّه صديقك!

-بضع ساعاتٍ كانت كفيلةً بجعلي وجدّك الراحل صديقين، بينما ذلك الحقير لن يكون صديقي يوماً ولو عشت معه الدهر كله.

-أنت تعرف أنّه كان يعاشر صديقتي لورا، وكلّ ما عرفته عنه ما كنت لأعرفه لولا أنّها قد أخبرتني به.

-أخبرني أنّها كانت تخدعه.

-اسمع، أنا لا أحبذ سلوك لورا، ولكنّها استغلت أحد أصدقائه لتعرف عنه ما يخفيه هو حتّى عن نفسه. وقد نجحت وفرّت بعيداً عنه وعن حياة الكلاب التي نعيشها هنا.

-وماذا عرفت عنه؟

-أنّه يعمل ضمن شبكةٍ تتبعُ لـ(الشتازي)، وهذه الشبكة ليست ككلّ الشبكات.

همست هانّا بينما تخبّئ فمها براحة يدها.

-هل يقوم بالتبليغ عن المعارضين؟

-ليس هذا فحسب، بل تستهدف هذه الشبكة مجموعاتٍ وأشخاصٍ بعينهم، بقصد تدميرهم نفسياً واجتماعياً، تارةً بنشر إشاعاتٍ من شأنها تخريب حياتهم، وتارةً بملاحقتهم وإرهابهم وإيهامهم بأنّهم مختلون عقلياً.

-لقد لاحظت خلال سكني معه بعض السلوكيات الغريبة، ولكن لم يخطر في بالي أنّ الأمر بهذا السوء!

-سلوكيات مثل ماذا؟

-أنّه يحمل مسدساً على خصره منذ مدّة، وأنّه يزرع جهاز تنصّتٍ في سماعة الهاتف مثلاً، كما يلاحق كل تفاصيل حياتي ويريد معرفة كلّ شيءٍ عنّي، حتّى أنّه يقوم بابتزازي. كنت أعتقد أنّ الأمر يتعلق بي وحدي فقط.

-ابتزازك بماذا؟

-لا عليكِ، أمورٌ تتعلّق بالشبّان.

أجاب فريد بارتباك.

-أها! ألم تقل لي إنّ علاقتكما غير جيّدة؟

-هي كذلك.

-إذن، بمَ يبتزّك؟ هل لديكَ نشاطات سياسيّة؟

-لا على الإطلاق.

-يبدو لي أنّك تخفي شيئاً ما عنّي.

-هل أخبرك أحدٌ من قبل أنّك تشبهين جدّتك كثيراً؟

قال فريد بعد صمتٍ مطوّل.

-جدّتي؟

سألت هانّا مستغربة.

-سوزان..

*****

كاد فريد يخبر هانّا بسرّه، ولم تقتنع هي بدورها أنّه لا يخفي عنها شيئاً. كان أكثر ما يثير رعبه هو أن تضعه الفتاة مع أيمن في بوتقةٍ واحدة. ولكنّه فكّر في أنّها لن تفعل شيئاً كهذا كونها أعطته ثقتها. لا بد

أنّها لمست الظلم تحت عينيه، ولا بد أن صحبته القصيرة لجدّها -ولو لم تعلم هانّا عنها شيئاً- قد شكّلت دافعاً للفتاة لاستبعاد أن يكون فريد شريكاً لأيمن أو متواطئاً معه حتّى، وقد استطاع فريد أن يكسب ودّ هانّا بتحدّثه عن عائلتها، مع أنّه لم يرمِ إلى ذلك في الحقيقة.

لقد زاد كره فريد لأيمن بعد ما سمعه عنه، على الرغم من أنّه كان يعتقد أصلاً أن أي شيءٍ سيءٍ يمكن له أن يصدر عن هذا الأخير، إلّا أنّه لم يُبدِ لأيمنٍ أيّ علاماتٍ تشعره أنّ أمره قد افتضح، هذا إن كان الأمر قد يهم أيمن أصلاً. تردّدت هانّا عدة مرّاتٍ على ذات المكان الذي التقت فيه بفريدٍ في الجامعة، ومرّة على المقهى، عسى أن تلتقي بفريد، ولكن من دون جدوى.

*****

-لم يكن لدي خيارٌ آخر، كان عليّ إيجادك اليوم.

قالت هانّا عندما فتح لها فريد باب الشقّة وصمتت برهةً لتنظر إلى دهشته ثم استأنفت:

-كنت أصلّي لكي تفتح لي الباب أنت، لا صاحبك.

-تفضّلي بالدخول، أنا وحدي في المنزل.

قال فريد وأفسح المجال للفتاة للدخول.

-سأدخل لدقائق، لن نستطيع التحدّث هنا بالطبع.

قالت وأشارت إلى أذنها بسبّابتها، ثم سبقت فريد إلى غرفته وأجالت بصرها فيها:

-كل شيءٍ كما كان قبل سنتين! غير معقول! ألا تشعر بالملل هنا؟ حتّى تلك الكتب ما زالت على ترتيبها ذاك! أشكّ في أنّك قد لمستها منذ سنتين.

-أكره هذه الغرفة.

-أنت محقّ، ومن يريد العيش مع ذلك الإنسان في بيتٍ واحد!

قالت هانّا مطلقةً ضحكةً بالكاد مسموعة، ثم استدركت:

-أوه! لقد نسيت، لا يمكنني التحدّث هنا، فالمنزل كلّه قد يكون مزوّدٌ بأجهزة تجسّس، حتّى الحمّام! ألم تعد تكتب الشعر؟

-أنا لا أكتب الشعر أصلاً، أحاول أحياناً كتابة بعض الخواطر للترويح عن نفسي فحسب.

-كفّ عن التواضع، أراهن أنك تكتب أشعاراً تتفوّق على أشعار (غوته) و(هاينريش هاينه).

قالت الفتاة وجلست على الكرسيّ وأسندت رأسها إلى الخلف وهي تنظر حولها بسعادةٍ غامرة.

-أكتب أحياناً يوميّاتي لا أكثر. هل سنخرج؟ أنا جاهز.

-لماذا لا تسمح لي بأن أعيد ترتيب هذه الغرفة قليلاً؟ أعدكَ أنّني لن أتطفّل ولن أكسر شيئاً، سأعيد ترتيبها فحسب، وستكون أكثر سعادةً فيها بعد ذلك.

-مثلما كانت تفعل جدّتك؟

سأل فريد ثم لاحظ أن الفتاة صمتت وتبدّلت ملامحها، فاستدرك معتذراً:

-أعتذر، لم أقصد إزعاجك. اسمعي، إن ودّدتِ إعادة ترتيب الغرفة فلكِ ذلك!

-حسناً. ستعجبك. أعدك بذلك! ولكن عليكَ المكوث في غرفة المعيشة أو في مكانٍ آخر لكي لا تعيق عملي.

-سأجلس في الخارج، لا تقلقي، إن احتجتِ إلى أيّ مساعدةٍ فنادني!

حضّرَ فريد كوبين من القهوة قدّم أحدهما لهانّا التي كانت قد قلبت الغرفة رأساً على عقب خلال دقائق، واتّجه بالكوب الآخر إلى غرفة المعيشة للتدخين. أغمض عينيه وراح يتنفسُ دخان السيجارة. أحسّ بدفءٍ غريب، بشعورٍ من الرضى والارتياح لم يشعر به من قبل في ذلك البيت، كأنّه عاد إلى طفولته، حيث كان يمضي الوقت مع أمّه وأخته لمى، راودته رائحة العدس يُطهى لإعداد الحساء، وصوت أمّه في الخلفية تنادي أخته.

*****

-كفّي عن الكذب أيّتها الفتاة..

سادت الجلبة في المنزل فجأةً، فهرع فريد إلى الداخل مسرعاً.

-قلتُ لكَ لا أعرف، وإن كنتُ أعرف فلن أخبرك أبداً.

صاح أيمن:

-اخرجي من هذا المنزل الآن.

-ماذا يجري هنا؟ وكيف تمنح لنفسك الحق بطرد الفتاة؟

تدخّل فريد وتوجّه بالكلام إلى أيمن.

-لم أقل لها شيئاً، أردت رقم هاتف لورا أو عنوانها.

قال أيمن.

-وقد قلت لكَ إنّني لا أعرف، ألا تفهم؟

ردّت هانّا.

-كفاكِ كذباً!

أمسك فريد ذراع أيمن وشده إلى خارج الغرفة وأغلق الباب:

-ما الذي تريده من الفتاة؟

-تلك الفتاة تكذب، ثمّ ما الذي جاء بها إلى هنا؟

-كأنّك نسيتَ أنّني أعيش هنا وأدفع لك الإيجار مقابل إقامتي أيضاً، وأنّني لم أستقبل الضيوف هنا يوماً! انتبه لتصرفاتك، لا أريد التشاجر معك.

استدار أيمن غاضباً متوجّهاً إلى غرفة المعيشة ليعود فريد إلى غرفته بدوره ويجد هانّا جالسةً بتوتّرٍ على حافة السرير الذي تغيّر مكانه إلى الجهة الأخرى:

-هانّا، أنا آسف.. آسفٌ حقّاً، لم أتوقّع مجيئه.

-لا عليك يا لواي، كلانا يعرف سوء هذا الشاب، سأقوم بإنهاء الترتيب سريعاً ثم نخرج، اتفقنا؟

*****

بعد ساعة واحدة لم يعد فريد يستطيع التعرّف على غرفته، كانت تبدو مختلفةً تماماً، ولولا أنّه كان موجوداً في المنزل طوال الوقت لظنّ أن هانّا بدلّت الأثاث كلّه.

-يا للروعة!

-هل تعجبك غرفتكَ الآن؟

-بالتأكيد.. إنها الآن أجمل بكثير!

-يسعدني هذا يا لواي، هل ننطلق الآن؟ سأدعوك لتناول الغداء.

-سنناقش هذا الأمر في الطريق، لا أعتقد أنّك من سيدعوني في النهاية. عليّ الاعتراف أن الغرفة صارت تبعث على السعادة بعد أن كانت كهفاً بشعاً.

-على الرغم من أنّني لم أغيّر الكثير.

قالت الفتاة بابتسامةٍ خجولة.

وبالفعل، لم تغيّر هانّا الكثير في غرفة فريد، إنّما مكان السرير فحسب، ما عدا ذلك فقد رتّبت الغرفة وأزالت الفوضى والغبار ليس إلّا.

مضى الشابّ والصبيّة نحو الخارج. كانت شمس الصيف لطيفةً جدّاً ويبدو أنّها خفّفت عن الناس شيئاً ممّا يقاسونه هناك، فقد كانت الشوارع تكتظّ بالبشر، والحدائق بالعائلات التي خرجت للتنزّه. كان فريد يسترق النظر إلى الفتاة ذات الفستان الأحمر بين الحين والآخر، وينظر إلى خصلات شعرها البرتقالية التي تحرّكها نسمات الهواء فتفرّق بعضها عن بعض. تذكّر نايا وطفق ينظر نحو الأفق البعيد ويسأل نفسه، أين عساها تكون؟ هل أحبّت من بعده؟ هل تزوّجت؟ هل ما زالت تعيش في دمشق؟ أم أنّها رحلت مع والدتها إلى بلادها؟

-أستطيع تخمين ما تفكّر فيه!

هتفت هانّا والتفتت نحو فريد.

-فيمَ أفكّر؟

-تفكّر فيها بكل تأكيد.

-كنت أسأل نفسي فحسب، أين هي الآن؟

-وهل يصرخ كلّ شيءٍ الآن: "لمَ ليست هنا؟".

-عفواً؟

-قصيدتك تلك التي مزّقتها قبل سنتين، كنتَ قد كتبت فيها "كلّ شيءٍ يصرخ: لمَ لستِ هنا؟"

-وما زلتِ تذكرين؟!

-أي فتاةٍ مكاني لن تنسى، وستحسد تلك الفتاة على تلك الكلمات والمشاعر، هذا أمرٌ طبيعي، نحن الفتيات نحبّ الكلام.

-لم يكن كلاماً فحسب..

تنهّد فريد.

-أعلم، ولهذا حسدتّها حقّاً في حينها، حين لمستُ الحزن خلف عينيك، عرفتُ أنّها ضيّعتْ حبّاً كبيراً.

-وما أدراك أنّها هي من هجرتني؟

-لا أعتقد أنّك ستهجرها بينما تحبّها إلى ذلك الحد.

تألّم فريد قبل أن يستأنف:

-لقد مضت سنواتٌ كثيرة..

-ولكنّك ما تزال تعشقها ولم يجد الحبّ طريقه إليكَ مجدّداً، أليس كذلك؟

-ليس بعد.

-ليس بعد؟!

سألت هانّا فريد الذي ارتبك وصمتَ حتّى نهاية الطريق.

*****

-هل تحب الـ(كيت فورست) يا لواي؟

قالت هانّا قبل أن تقضم الساندويتش بشهية.

-لا بأس بها، لكنني غير معتادٍ عليها.

-ربما هي وبعض الأصدقاء فقط مَن سأشتاق إليهم إن رحلت قريباً.

قالت الفتاة ونظرت إلى الساندويتش بحزن ثم استأنفت:

-وأنتَ أيضاً، سأفتقدك..

-أنا؟

-أجل يا لواي، قد لا نكون أصدقاء، لكنّني أعلم أنّك أحد الأشياء النقيّة والطيّبة القليلة المتبقّية هنا.

لفّ فريد حزنٌ كبير ولم يدرِ كيف عليه أن يجيب الفتاة. لقد آلمه أن تناديه بـ(لؤي) ثم تصفه بالنقاء! لؤي والنقاء؟ لا يجتمعان! ليتها تدري أنّ هذا الطيّب يكذب عليها حتّى في اسمه. ولكنّه تأمّل للحظات: لمَ يحكم على لؤي بالشرّ دائماً؟ أليس لؤي ضحيّةً هو الآخر؟ ولكن إن كان فريد ضحيّة الآخرين، فلؤي هو ضحيّة فريد بكلّ تأكيد.

-هانّا..

همّ فريد بالحديث إلى الفتاة ليصارحها بكلّ شيء.

-نعم يا لواي.. تفضّل!

-أنا لست.. أنا... أنتِ جميلةٌ جدّاً.

تراجع فريد في اللحظة الأخيرة.

-وأنت كذلك!

-أنا..

-أتدري يا لواي.. (قالت هانّا مقاطِعةً كلامه).. أشعر أنّك مختلف، أنا أكره الذكور، كلّ ما نحن فيه من بؤسٍ في هذا العالم هو من صنع الذكور، كان الأمر سابقاً أشدّ سوءاً، كنت أشمئزّ من جميع الذكور، من أبي، من جدّي، من المعلّم في المدرسة، من الجميع.

-لماذا؟

-هل تستطيع إخباري من يصنع الحروب ويأتي علينا بالكوارث ويجعل من هذا الكوكب مكاناً مرعباً؟ قد لا أستطيع أن أساوي بينهم جميعاً، فهم أناسٌ مختلفون جدّاً في ظاهرهم، ولكنّهم يجتمعون كلّهم بكونهم ذكوراً. لن تجد بينهم امرأةً واحدة، يصنعون الحروب، ثمّ يجرّون الأطفال والمراهقين إليها للقتال ويقولون لهم إنّهم قد أصبحوا رجالاً، ثم يجد كلّ منهم نفسه على الجبهة تحت وابل النيران، يبكي ويريد العودة إلى أمّه أو زوجته، فتصبح تلك الحرب جولات لا منتهية من محاولات النجاة الفردية اليائسة. يطلقون النار على أناسٍ لا يعرفونهم من أجل أناسٍ لا يعرفونهم، أما السبب الذي يقاتلون لأجله فيجهلونه كما يجهلون مصائرهم المتعلّقة بين بنادقهم وحظّهم، وفي غالب الأحيان تُسلَب حياتهم بكلّ ما فيها من أحلامٍ وآمالٍ بواسطة رصاصةٍ يساوي ثمنها ثمن هذه الساندويتش التي نتناولها، وقد يُقتَل بعضهم قبل التوصّل لاتّفاقٍ من أجل إنهاء الحرب ببضعة دقائق، يا لحظهم العاثر.

-ربّما معك حقّ.

-هل شعرتَ بالإهانة كونك ذكراً يا لواي؟

-لا أبداً، لكنّني أعتقد أن الحروب أكثر من مجموعة أطفالٍ يتبادلون إطلاق النار، المشكلة الأكبر تكمن في الرجال ذوي المناصب الذين يدفعون الناس إلى الاقتتال. أنا أكره رجال السلطة، ولربّما من حقّي أن أكره الرجال أكثر منكِ أيضاً.

-لمَ يا لواي؟

-بسبب والدي. والدي كان تاجراً، ثم رجل أعمالٍ مقرّب من السلطة، وهو اليوم عضوٌ في البرلمان، أي أنّ ما كان ينقصه سابقاً قد حصل عليه الآن. لا أدري لمَ يحصل الأشرار دائماً على ما يريدون!

-ربّما لأنّهم يحبّون أنفسهم أكثر ممّا يفعل الآخرون.

قالت هانّا وضغطت الورقة التي كانت تمسك بها الساندويتش.

-وهل يكفي هذا لكي يصلوا إلى أهدافهم دائماً برأيك؟

-بالطبع لا، لكن الحياة تبتسم لهم، ولإصرارهم، ولحسن حظّهم، أو لسوء حظّنا ربّما، أو لأسبابٍ لا يعلمها إلّا الربّ. عليك أن تنهي طعامك.

-كلامك يشبه كلام دافيد.. وكأنّني أراه أمامي يتحدّث.

صمتت الفتاة باغتمامٍ ثم هتفت:

-لقد حلّ المساء وأريد أن أصحبك إلى مكانٍ بالقرب.

لم ينتبه فريدٌ إلى الجملة الأخيرة التي تلفّظت بها الفتاة، نسي حتّى أنّه كان قبل دقائق ينوي إخبارها بقصّته، بل راح يمعن النظر في عينيها كما لو أنّه يبحث فيهما عن شيءٍ ما، أو لعلّه وجد فيهما شيئاً كان يبحث عنه منذ زمنٍ طويل. كان يبحث عن شبهٍ غير موجودٍ بين عينيّ هانّا وعينيّ نايا، وهذا الأمر أثار اكتئابه، إذ شعر أنّ ماضيه يجرّه إليه جرّاً كلّما حاول الإفلات منه ولو لدقائق، كما لو أنّه قد علق هناك من دون مناصٍ إلى الأبد. لم يشأ في تلك اللحظة التفكير في نايا أبداً، بل أراد أن يشعر، أن يشعر أن ما يشدّه إلى هانّا هو هانّا، وليس كونها فتاة يبحث فيها عن حبيبة الأيّام القديمة فحسب، ليس لمجرّد انتمائها إلى جنس نايا، أو تشابه اسميهما، كما أنّ الفكرة بحدّ ذاتها تحمل ما تحمل من الإهانة لكيان الفتاتين. وتذكّر في تلك اللحظة كذلك الشبه الكبير بين نايا ولورا.

وخزه ضميرهُ كما لو أنّه قد أقدم على فعلٍ شنيعٍ لتوّه وراح يفرك عينيه بقوّة.

-المعذرة.. لقد أخذني حوارنا بأفكاري بعيداً.

قال بينما يبتلع لقمته الأخيرة التي يبست في فمه.

-لا عليك، هل سأكون متطفلةً لو سألتك إلى أين قد وصلت بأفكارك؟

-كنت أفكر بكلامكِ ليس إلّا.

أجاب فريد باقتضاب متهرّباً من عينيها.

-لم أكن أدري أنّ حديثاً كهذا قد يجعل عينيكَ تلمعان إلى هذا الحدّ!

قالت هانّا وهي تبتسم بلطف.

اضطرب فريد، فتدخلت هانّا على الفور:

-أنا آسفة، لم أقصد إرباكك!

-لا عليكِ، لم أقصد أنا الآخر أن أطيل النظر إليكِ.

هتف متلعثماً وقد احمرّت وجنتاه خجلاً.

صمتت الفتاة للحظةٍ ثم قالت بصوتٍ خافتٍ بينما تنظر إلى حجرها: "ليتك فعلت"، قبل أن ترفع رأسها هاتفة:

-حسناً، هل سنذهب الآن؟

لم يُجبْ فريد، وبدا كأن ملامحه قد تجمّدت للحظة وهو يحدّق في عينيها مجدّداً. راحت الفتاة بدورها تنظر في عينيه مبتسمة، قبل أن تمدّ يدها بهدوءٍ وتلمس رؤوس أصابعه بأصابع يدها اليمنى. ابتسم وأغمض عينيه وقد شعر بألف فراشةٍ ترفرف في بطنه.

-بمَ تشعر يا لواي؟

همست هانّا.

أمسكَ فريد يدَها بقوةٍ وضغط عليها فور سماعه كلمتها الأخيرة، وتصاعدت ضربات قلبه أكثر فأكثر.

-لواي؟ هل أنت بخير؟

سألت هانّا وهي تراقب فريد بينما يضغط جفنيه بقوةٍ أكبر، وانتبهت إلى الدموع التي تشقّ طريقها خارجاً بصعوبة.

اقتربت منه وعانقته بلطفٍ وهمست في أذنه:

-هل تفكر فيها؟

لم يجبها فريد فاستأنفت قائلة:

-ليس عليك أن تقول أي شيءٍ يا لواي، ولكن يجب عليك أن تعلم أنّني اليوم بجانبك، وسيسعدني أن نمضي هذا المساء معاً، ولن أحزن لو أمضيته أنت باكياً، لن يسعدني بكاؤك بالطبع، ولكن يكفيني أن تشاركني ولو دموعك هذا المساء، وإن أردت التحدّث عن أيّ شيءٍ فسأسمعك بكل سرور.

-هو طلبٌ ليس إلّا..

قال فريد وهو يدفن وجهه في كتفها بينما تمسح على شعره، ثم استطرد:

-لا تنادِني بـ(لؤي)! أنا أكره اسمي.

ثم سمح لنفسه أخيراً بأن ينفجر باكياً.

ما كان قبول هانّا لطلبه أن يعزيه أو يدفع عنه شيئاً مما يعانيه، فحتّى في طلبه ذاك كان يكذب مجدّداً، فهو لا يكره اسمه في الحقيقة. على الرغم من كل التوتّر والهلع اللذين ألمّا به، إلّا أنّه شعر أنّ روحه كانت يابسةً فارتوت في تلك اللحظة.

انتزع فريد نفسه بعد دقائق من حضن هانّا وراح يفرك عينيه ثم قال:

-هانّا، أخبريني أن هذا الوقت سيمضي وأن وقتاً آخر أفضل سيعقبه!

-كل الأوقات ستمضي وأنا الآن لا أقول لكَ ذلك لأنّك طلبت منّي هذا، بل لأنّها الحقيقة.

ابتسم فريد وأمسك يدها مجدّداً ونهض واقفاً:

-والآن، ألن تأخذيني إلى مكانك المجهول كما قلتِ؟

-ما زلتُ أسأل نفسي إن كانت تلك فكرة سديدة.

قالت الفتاة بعدما نهضت بدورها.

-ولمَ؟

-لأنّك حزين، ولستُ واثقة إن كنت في مزاجٍ يسمح بذلك، مع أنّني متحمّسةٌ جدّاً لاصطحابك معي.

-وهل يحتاج ذلك المكان إلى أن أكون سعيداً حتّى أذهب إليه؟ لا تبدين لي اليوم في قمّة سعادتكِ أنتِ أيضاً.

-أنا أحتاج إلى حزني لكي أذهب إلى هناك. لقد قال لي جدّي مرّةً إن الحزن ضروريٌّ للإبداع في أيّ شيء. أمّا أنت، فلا أدري، أنا لا أريد أن يزيد وجودك هناك من حزنك.

-أنتِ تزيدين من حماستي. أنا مصرٌّ على مرافقتي لك، بشرط أن تحكي لي عن التفاصيل، أنا أكره المفاجآت.

-تكره غرفتك، تكره والدك، تكره اسمك، وتكره المفاجآت، سأحاول اليوم جاهدةً إيجاد شيءٍ تحبّه.

-قد أحبّ المكان الذي تنوين أخذي إليه، دعينا نجرّب! كما أنّني أحب وجودي بقربك!

-حسناً..

قالت هانّا مبتسمةً وهي تمنّي نفسها بأن يقبل فريد إمساك يدها خلال الطريق، وقد فعل.

*****

كان العرض المسرحيّ مقاماً في إحدى الشقق البالية العائدة لأحد أفراد فرقة (الوطاويط) المسرحيّة للهواة وسط برلين الشرقيّة. بضعةُ أصدقاءٍ قد صنعوا مكاناً خاصّاً بهم ليقولوا ما يحلو لهم. أمّا الجمهور فكان مكوّناً من حفنةٍ من الشبّانِ والفتيات، إمّا زملاء دراسةٍ موثوقون، أو أصدقاءٌ مقرّبون من أعضاء الفرقة، شأن فريد في تلك الليلة.

*****

كانت هانّا تؤدي دورها في العرض باسم (هيلين) بواقعيّةٍ أبهرت فريد، بينما ترتدي زيّ امرأةٍ أوروبيّة من العصور الوسطى:

-وما معنى أن نحيا أو نموت؟ وما معنى وجودنا؟ وما الفرق بينه وبين عدمه؟ وأنتم.. إلى متى ستعيشون على الهامش؟ إلى متى سيظل خنوعكم أمراً مفروغاً منه؟ الحياة تطحن أجسادكم المستسلمة كلّ يوم وتنهكها أكثر من اليوم السابق، أليس هذا العالم موطنكم؟ أم أنكم عابرو سبيلٍ تقتاتون القهر والعذاب؟ ارفعوا أصواتكم! تبّاً لحياتنا!

يدخل ماريو المسرح مسرعاً:

-هيلين.. هيلين.. لقد مات الملك!

-أحقّاً تقول؟

-أجل، لقد مات الملك وكل من في المدينة عرفوا بالأمر!

-آه! آه! الآن ترتاح أمّي في قبرها، وأبي أيضاً! ولكن، كيف مات؟ هل مات مسموماً؟

-لا

-هل مات مطعوناً؟

-لا

-إذن، كيف مات؟

-لقد راهن وزيره على أنّه يستطيع أكل خروفين محشيين بالأرز، فلم يستطع إكمال إلّا خروفٍ ونصف، ومات.

-ونصف الخروف؟

-سرقه بعض الحرس، ففتح الوزير تحقيقاً في الأمر.

بدا الحزن شديداً على وجه هيلين، جثت على ركبتها وقد حضر إليها طيفا أمّها وأبيها وهما يحتضران جوعاً.

-وماذا صنع أفراد الشعب؟

سألت هيلين.

-إنّهم يتسابقون إلى قصر الملك لتنصيب ابنه.

أجاب ماريو.

-وهل يستطيع ولده أكل خروفين؟ أم سيتم تدريبه على هذا لاحقاً؟

قالت هيلين وانهارت باكية قبل أن تنهض صارخة:

-ما بكم؟ ما حالكم؟ أتحبّون الجوع وتعشقون الأغلال حتّى ألفتم الانتقال من قيدٍ إلى آخر؟ ها هي جرعة السمّ التي أحملها معي منذ سنوات لأدسّها في طعام الملك أو شرابه، والملك قد مات، وعدوّي اليوم ليس ابنه، بل أعدائي أنتم، أنتم من سيصنع من ذلك الطفل عدوّاً لي ولكم وللملايين، وستعبدونه لاحقاً، تتقرّبون إليه بلحمكم ولحم أبنائكم ليسمن أكثر فأكثر. جرعة السم هذه لا تكفي لقتلكم جميعاً، أو قتل الجبن في قلوبكم، ولكنّها تكفيني لتخليصي منكم، تكفيني لأثبت لنفسي أنّني الأشجع بينكم، فليعانقني الموت الجميل، ولترحل عنّي بشاعة عالمكم إلى الأبد.

ابتلعت هيلين جرعة السمّ وسقطت أرضاً، وبدأ الجمهور الصغير بالتصفيق.

*****

لم يتمالك فريدٌ دموعه، فقد كانت كل كلمةٍ نطقت بها هانّا خلال العرض تلامس جروحه، وعندما اقتربت منه بعد العرض كان قد تراجع عن إخبارها بأيّ شيءٍ من قصّته حفاظاً على صورته أمامها، أو أجّل الفكرة على الأقل. ماذا عساها قد تقول عنه لو عرفت؟ وهو المستسلم الذي لا يجرؤ حتّى على وضع حدّ لحياته كما فعلت هيلين في المسرحيّة.

-لقد كنتِ رائعة! من كتب ذلك النصّ؟

-أنا، بمساعدة أعضاء الفرقة.

-يا إلهي!

قال فريد وكادت الدموع تتساقط من عينيه.

-هل لي بعناقٍ إذن؟

هتفت هانّا.

-إن أردتِ ذلك!

تعانقا للحظات، وشعر بدقّات قلبها على صدره، شعر بأنّ روحه كانت تهيم تائهةً في الفضاء ووجدت عشّاً ترتاح فيه أخيراً للحظات، اختفت من حوله الغرفة والمنصّة والكراسي وكلّ الحضور، وتسلّقت ياسمينةٌ دمشقيّةٌ جداراً من الحجر الأسود تعلوه قطةٌ تمشي بتأنّ شديدٍ متلفّتةً حولها. كان يعانقها على درجٍ حجريٍّ عتيق في مدينةٍ تحوّلَ الحبّ فيها إلى مسموحٍ ومباح للحظةٍ واحدة. عانقها وهو يقول في نفسه: "اسمح لنفسك أن تحبّ هذه الفتاة!".

خرجا معاً وطفقا يمشيان في شوارع برلين الشرقية.

-يا لها من نسماتٍ لطيفة!

قالت هانّا فيما أمسك فريد يدها بقوّة وقال بصوت حنون:

-لقد تأخّر الوقت كثيراً، ألا يجب أن تعودي إلى المنزل؟

-للأسف، الليلة بالذات عليّ العودة. ولكن لا يزال لدّي متسعٌ من الوقت، لن أعود قبل شروق الشمس.

-تبقّى بضع ساعاتٍ حتّى الفجر!

-هل تعبت؟

-لا أبداً.

-لماذا يجب أن تنتهي هذه الليلة؟

-لأنّ كلّ شيء يمضي، كما أخبرتني اليوم.

-لا أريد لهذه الليلة أن تمضي، أريد لها أن تبقى.

شعر فريد بقشعريرةٍ تطوف في جسمه كلّه. ثم توقّف ونظر إلى هانّا التي توقّفت أيضاً والتفتت نحوه! قال فريد:

-هل لي أن أخبركِ سرّاً؟

-بالطبع! تفضل.

-أشعر برغبةٍ كبيرةٍ في أن أحبّك.

-تشعر برغبةٍ في ذلك فحسب؟

-نعم..

-أتدري، أنا أشعر بذلك أيضاً!

-وأشعر بأنّني يجب أن أقبّلك هنا والآن..

-ليتنا نستطيع فعل كلّ ما نرغب فيه.

-ليتنا نستطيع فعل كلّ ما نرغب فيه فعلاً، ما نرغب فيه فحسب.

دمدم فريد مغموماً ولم يضف كلمةً واحدة.

مضت الساعات التالية بسرعةٍ كبيرةٍ لم ينتبه لها فريد، وانتهى به المطاف مع هانّا أمام باب منزلها. أمضى الشابّ والفتاة تلك الساعات يداً بيد في شوارع برلين الخاوية في صمتٍ تتخلّله بعض المحاولات المبتذلة لكسر الهدوء والتي كانت تنجح حيناً وتفشل أحياناً.

-ها هو منزلنا.

-لقد وصلتِ إذن، وستتركينني الآن.

-كنت أتمنّى لو نمضي وقتاً أطول معاً.

-لا عليك، ألن نلتقي مجدّداً؟

-دع ذلك للأيام. من يدري!

-لمَ لا نلتقي غداً؟

-غداً؟ غداً لا أستطيع. كما قلت لك، دع الأمور للقدر. أمسِكْ هذه الورقة، عِدني بألّا تقرأها إلّا عندما تدخل إلى غرفتك، اتفقنا؟

قالت ممسكةً بورقةٍ مطويةٍ إلى حدّ جعلها أصغر من حجم كفّها.

-أعدكِ بذلك، على الرغم من أنّني أخبرتكِ بأنّني لا أحبّ المفاجآت.

-لم أكن أعلم ذلك عندما كتبتها.

-إذن، فقد كتبتها قبل قدومك إليّ صباحاً.

-هل لي بعناقٍ آخر؟ أو أخير؟

عانقته وجرت الدموع على خدّيها، فراحت تمسحهما بكتفه.

-لم البكاء يا هانّا؟

-ليس مهمّاً الآن، عليّ الذهاب.

قالت الفتاة وأدارت ظهرها مبتعدة.

-هانّا..

ناداها فريد فالتفت إليه:

-انتبهي إلى نفسك..

جرت الفتاة عائدة إليه وطبعت قبلةً على خدّه، قبل أن تركض نحو باب منزلها من جديد، تاركةً إيّاه مع مزيجٍ من التوتّر والخجل والخوف من القادم.

14

دوسلدورف – ألمانيا

(شباط – فبراير/ 2008)

وقف فريد النسر أمام شهادة الدكتوراه في الفلسفة التي تتوسّط الجدار، وإلى جانبها شهادتا الدبلوم والبكالوريوس وعلى جميعها كُتب بالخط العريض لؤي صالح.

كان قد مرّ أسبوعٌ على فراقه لكلبه (روكي) الذي أخذه بيديه لإماتته في مركزٍ مختصّ. رافقه روكي لتسع سنواتٍ متواصلة وكان المخلوق الوحيد الذي يثق به فريد ويحبّه. لم يبكِ لموت صديقه الوحيد، وقرّر ألّا يحزن عليه، كما قام بالتخلّص فوراً من جميع أشيائه وحتّى صوره، ولكن ما كادت سويعاتٌ قليلةٌ تنقضي حتّى بدأ يشعر بوحشةٍ كبيرةٍ في شقّته في دوسلدورف غرب ألمانيا. الأشهر الأخيرة في حياة روكي كانت صعبةً على كليهما على حدٍّ سواء. نال المرض من الكلب الكهل وفقد كلّ رغبةٍ في الحياة واللعب والأكل، فأوصى طبيبه بالموت الرحيم بعد محاولاتٍ متعدّدةٍ للعلاج. حاول فريد عدم إشعار الكلب بأي شيءٍ بعد أن حدّد موعد يوم موته، الأمر الذي لم يكن سهلاً عليه، فقد اعتاد أن يكذب على الجميع، ولكنّه لم يكذب يوماً على روكي، ويعتقد أنّه نجح في ذلك هذه المرّة أيضاً، فكثّف من إخراجه له إلى الهواء الطلق ومداعبته، واصطحبه لمرّةٍ أخيرةٍ إلى الطبيعة مباشرةً قبل التوجّه إلى الطبيب الذي سيحقنه بمادةٍ ستقتله وتقتل معه آلامه على الفور. هناك، وبينما كانا يستمتعان بلحظاتهما الأخيرة معًا، أدرك فريد أن هذا الاهتمام المفاجئ قد يكون قد نبّه روكي إلى ما سيحدث. كان الكلب السقيم يحدّق في عيني صاحبه بنظرةٍ حزينة، أعمق من المعتاد، وكأنّه يدرك الحقيقة التي أراد فريد إخفاءها عنه. وبعدها، انتهى كلّ شيء، في لحظةٍ قصيرة، صامتة، بلا ألم. نام روكي وهو يمسك بيد فريد الذي كان يراقب عينيه وهو

يغلقهما إلى الأبد، يجلد ذاته لأنّه تعرّف إلى هذا المخلوق منذ البداية، ويقاوم رغبته بمنع الطبيب من غرز الإبرة تحت جلد صديقه.

مشى فريد نحو كرسيّه الخشبيّ الموضوع على شرفة شقّته المطلّة على نهر الراين، سحب من غليونه وعاد بالذاكرة إلى الوراء: دمشق، والده، أمّه، أبو دياب، أخته لمى، حبيبته نايا، دافيد وحفيدته الجميلة هانّا، إلى أيّامه في برلين قبل انهيار جدارها، ثم في كولونيا ودوسلدورف بعد الوحدة الألمانيّة، إلى كلّ المدن التي زارها خلال أكثر من عشرين عاماً وكلّ الذين قابلهم، إلى دراسته وشهاداته وأبحاثه التي سُجّلت باسم لؤي، ورواياته الستّة ومجموعاته القصصيّة التي تحمل على أغلفتها اسم أيمن. أيمن الذي تحوّل بفضل مؤلّفات فريد إلى وجهٍ من أوجه المشهد الثقافي في ألمانيا والدول العربيّة، وقد تُرجِمت المؤلّفات المنسوبة إليه زوراً إلى لغاتٍ عدّةٍ وحُوّلت ثلاثةٌ منها إلى أفلامٍ سينمائيّةٍ وعلى رأسها رواية "الحياة (في) مستشفى مجانين".

مات والد أيمن تاركاً لابنه الوحيد بعض ما تبقّى من ثروته، وقد تزوّج أيمن خلال العقدين الفائتين أربع زيجاتٍ انتهت كلّها في أروقة المحاكم، ولم تصمد أكثرها تماسكاً لأكثر من بضعة أشهر، حيث كانت زوجاته سرعان ما يكتشفن كذبه عليهنّ أو خيانته لهنّ. حتّى عندما كان لديه فرصة إخفاء غرامياته، كان يبدو وكأنّه يقوم بكشف نفسه بنفسه.

نادية، هذا الاسم هو الثابت الوحيد في حياة أيمن العاطفية. وهي امرأةٌ قابلها فريد مرّةً وحيدةً خلال عشر سنواتٍ من علاقة أيمن بها، حيث كوّن عنها صورةً سلبيّةً جدّاً. امرأةٌ سمراء متوّسطة الجمال في الثلاثين من عمرها، تنحدر من أصولٍ عربيّة، تعرّف إليها أيمن عندما كانت متدربةً في أحد المصارف، وقد كانت حينها بالكاد تبلغ من العمر

عشرين عاماً. سرعان ما حطّت الفتاة رحالها في سرير أيمن واستمرت علاقتهما من دون أيّ صفةٍ واضحة، بينما يصرّ أيمن أنّها مجرّد صديقةٍ مقرّبةٍ فحسب.

يمكن القول إنّ فريد قد اعتاد حياته الجديدة مع الوقت اعتياداً تتخلّله انتكاساتٌ متفرّقة يضّطر إلى التعامل معها بين الحين والآخر من دون أن يُشعِرَ أحداً بها، وساعده في ذلك العلاج النفسي طويل الأمد الذي انتهى قبل ست سنواتٍ مع الدكتور فوزي. كما كان قد اعتاد وجود أيمن مع مرور الوقت وانتقالهما معاً إلى القسم الغربي من ألمانيا بعد الوحدة بعدّة أشهر، كما فعل الكثير من الألمان في تلك الحقبة.

أيمن بدوره كان شخصاً متناقضاً تماماً وغير متّزن، يستفزّ فريد أحياناً فيكتم هذا الأخير رغبته في تكسير أسنانه، ثم لا يلبث أن يصبح شخصاً ودوداً يستعطف فريد ويعامله على أنّه صديقه الوحيد. لم ينسَ فريد أن أيمن يبتزّه ويستغلّ معاناته لأغراضه الشخصيّة ولإرضاء غروره، ولكنّه تعايش معه على أنّه أمرٌ واقعٌ لا مفرّ منه، حتّى أنّ فريد كان يتّصل به إذا ما غاب لعدّة أيّام، وكأنّه في باطنه يخشى غياب أيمن عنه، كان تعلّقاً سامّاً في عقله الباطن، حبّ العبد للسيّد بعد أن استساغ العبوديّة، بل عشقها في داخله الدفين.

لقد اعتاد أن يعيش كـ(لؤي) في الخارج وأن يتقبّل تلك الهوية ويحاول من خلالها فعل أمورٍ طيّبةٍ وإنجازاتٍ شخصيّةٍ لم يكن ليحقّقها لو عاش كـ(فريد)، أو أنّه كان يجهد نفسه للاقتناع بذلك. لكنّ ضيقاً عصف به في ذلك اليوم على الشرفة، ضيقاً لم يشعر بمثله منذ مدّةٍ طويلة. لقد كان يوم التاسع والعشرين من شباط! سأل نفسه كم سنةً مرّت من دون أن يذكر صديقه دافيد الذي كان يكره السنوات

الكبيسة؟! هكذا هي الحياة؛ فكّر فريد.. ومن عساه يذكر أشخاصاً ماتوا قبل عقود؟! قدر جميع البشر أن يطوي ذكراهم النسيان.

دأب خلال سنواتٍ طويلةٍ على تمضية معظم الوقت خارج المنزل. كان يبقى في الجامعة حيث يعمل حتّى وقتٍ متأخرٍ، ويخرج في بعض الأحيان للتنزّه مع روكي، أو لتناول فنجان قهوةٍ وحده مساءً. كان يهرب من نفسه ويشغلها بالعمل والكتابة وتقمّص أدوار شخصياته، وحتّى الوقت الذي يمضيه بمفرده في منزله؛ كان يملؤه بالعمل، وقد توقّف قبل زمنٍ طويلٍ عن كتابة مذكّراته الشخصيّة. كان يشارك بالفعل بسرقة نفسه من نفسه، ولعدّة سنواتٍ فعل ذلك بمساعدة الكحول، إلى أن أصيب بالتهاب الكبد وقرحةٍ في المعدة، وساءت صحّته بشكلٍ كارثيّ. بعد معاناةٍ طويلةٍ استطاع التخلّي عن الشرب، فزاد وزنه بشكلٍ كبيرٍ جدّاً. سأل نفسه متى كانت المرّة الأخيرة التي جلس فيها من دون أن يفعل أي شيء؟ حاول إغماض عينيه وعدم التفكير في أيّ شيء، وقد فشل في ذلك تماماً.

سيطرت عليه فكرة أن فريد قد سحقه النسيان وهو حي. كانت (ندى) خالة فريد هي آخر شخصٍ قد تحدّث إليه على أنّه فريد، فريد فحسب، تلك التي فارقت الحياة هي الأخرى قبل تسع سنوات. ولم يتّصل به والده منذ خمس سنوات، حين قرّعه ووصفه بأبشع الأوصاف، كونه لا يسأل عن أحوال أبيه الذي ألزمه المرض فراشه. حتّى حين مرضه وحيث هو أضعف من قشّة وأكثر هشاشةً من ورقة شجرٍ أحالها خريف العمر صفراء يابسة؛ يتجبّر ويصرخ بعد كلّ ما فعله.

اشتدّت الرياح والأمطار بينما هو مغمضٌ عينيه وغارقٌ في وحول نفسه الموسميّة التي راحت تسحبه شيئاً فشيئاً، والتي زادها انهمار المطر

بللاً وطراوةً حتّى تخيّل أنّها غمرته تماماً. ارتعش جسده ففتح عينيه ولجأ إلى الداخل.

مشى إلى الحمام ليجفّف رأسه ولحيته. وقف أمام المرآة ونظر إلى وجهه مطوّلاً كأنّه يراه للمرة الأولى. كان أثر الصبغ قد راح يزول وبدأ بياض شعره ولحيته يظهر بوضوح. شرع فريد بصبغ شعره ولحيته قبل خمس سنوات، عندما بدأ الشعر الأبيض يسيطر على المساحة الأكبر في رأسه وعلى مساحاتٍ متفرقةٍ من لحيته، الأمر الذي جعله يشعر بالكآبة وجعله يكره نفسه، إذ رأى أنّه بشعره المصبوغ صار يبدو مثل معظم الرجال في منتصف أعمارهم: مثيرون للريبة.

حرّك وقوفه أمام المرآة سيلَ الذكريات بشكلٍ أكبر، وتذكّر المنزل القديم في برلين الشرقية، والفترة التي تلت وفاة والدته، حيث رأى أمام المرآة أول شعرةٍ بيضاء في رأسه وتعرّف في تلك الفترة إلى دافيد، ثم التقى مجدّداً بهانّا، تلك الفتاة التي أمضت معه ليلةً يتذكّرها بتفاصيلها، من دون أن تخبره حتّى أنّها راحلة في اليوم التالي، تاركةً لديه خيبة أملٍ جديدة بالحب الذي لم يعرف طريقه إلى قلبه منذ مغادرته دمشق، إلّا في ذلك اليوم. "أنا راحلة، كن بخيرٍ دائماً.. هانّا"، هذا ما كان مكتوباً في الورقة التي أعطته إيّاها في تلك الليلة.

اشتهى فريد خلال سنوات حياته التالية الكثير من النساء، ولكنّه لم يشعر ولا لمرّةٍ واحدةٍ أنّه يرغب في أن يحبّ إحداهن، حتّى زميلته الدكتورة صوفيا التي تحاول منذ عدّة سنواتٍ التودّد إليه، والتي تزوره في منزله بين الفينة والأخرى؛ لم يشعر تجاهها بأيّ نوعٍ من الحبّ.

بدأ يشعر برغبة الدكتورة صوفيا في التقرّب منه قبل انفصالها عن زوجها بأشهر. وهي سيّدةٌ في مطلع الأربعين من عمرها، شقراء بملامح

حادّةٍ وجدّية، وجسدٍ رشيقٍ جميل يثير أي رجل، لكنّ فريد عجز عن إخراجها من زاوية الصداقة، حيث حشرها قبل إنهاء زواجها عندما كان يستمع إلى مشكلاتها بضجرٍ طالما حاولَ إخفاءه عنها.

كان قد ظلّ بتولاً حتّى بلغ منتصف عقده الثالث، عندما قاده الفضول والغريزة إلى أحد بيوت البغاء في كولونيا، حيث دخل مع إحدى الفتيات إلى غرفتها وأنهى الأمر في أقلّ من دقيقتين وعاد إلى بيته خائفاً تعذّبه لسعات ضميره. صلّى يومها وابتهل ليغفر الله له زلّته تلك التي كرّرها مرّتين إضافيتين خلال الأشهر التالية في أماكن أخرى. وقد عاد في كلتا المرتين إلى بيته نادماً ليبكي وحيداً.

كان يتمنّى لو يجد أي امرأة يحبّها ليتزوّجها وتُقاسمه خبزه وبيته وحياته، حتّى أنّه يتمنّى لو يستطيع تقبّل صوفيا التي تدّعي حبّه، ولكنّه كان عاجزاً عن تصوّرها امرأةً تشاركه حياته، بل كان دورها مختلفاً تماماً بالنسبة إليه، على الرغم من أنّها كانت تثير فيه بين الحين والآخر شهوةً يكتمها.

أمسك ماكينة الحلاقة وأدارها ثم وضعها على رقبته وحرّكها سريعاً نحو فمه، بينما يغمض عينيه بقوّة، فتحهما وراح يضحك عندما رأى الطريق الذي صنعه في لحيته التي لم يحلقها بالكامل منذ أربع سنوات. أنهى حلاقة ذقنه وراح يتأمّل الشعر الأسود والأبيض في المغسلة قبل أن يجمعه ويرميه في سلة القمامة.

نظر إلى وجهه الجديد مكشّراً، كان يشبه نفسه في طفولته شبهاً كبيراً، وبدت دهون رقبته جليّة، وهي ما كان يكرهها عندما كان صغيراً.

لم تجمعه بأبيه صورةٌ واحدة في حياته، ولم يسعَ خلال السنوات الطويلة إلى استحضار تفاصيل وجهه البتّة، وكلّ ما تبقّى في ذاكرته

شذراتٌ من ملامح متجهّمةٍ وغاضبة، تلتحم ببعضها لتشكّل صورةً مشوّهةً لإنسان مشوّه؛ شاربان كبيران، حاجبان مقطّبان، شامةٌ على الخدّ الأيسر كادت تندثر من ذاكرته لولا أنّه تركت بصمتها على وجهه، حيث ورثها عنه وعَمِدَ لإخفائها لسنواتٍ تحت لحيته، وحضورٌ مقيتٌ تضيق به حتّى جنّات الخلد. ندم على حلاقته لحيته ورمى المنشفة جانباً بقوّة.

مشى باتّجاه مكتبته الكبيرة وسحب من بين عشرات الكتب دفتراً قديماً بالياً، أخرجَ منه صورةً صغيرةً لنايا وجلس على الأريكة يتأمّلها. "تراها كيف تبدو الآن؟" سأل نفسه. كانت نايا كثيراً ما تزوره في أحلامه، وفي كلّ الأحلام كانت نايا القديمة التي يعرفها، تبدو تماماً كما كانت في آخر مرّةٍ التقيا فيها، بينما هو قد كبرَ وهرِم، وتبدّدت ملامحه القديمة لتحلّ محلّها ملامح جديدةٌ أكثر حدّةً. ملامح قاسيةٌ نحتتها السنوات والصبر، لم يكن صبراً، بل كان تحاملاً ثقيلاً. فكّر في تلك اللحظة في تأثير وجود روكي معه في المنزل، وكيف كان يشغله عن كلّ هذه الأفكار.

أمسك هاتفه النقّال وشغّل أغنية (فكّروني) لأم كلثوم، أسند ظهره إلى الأريكة وأغمض عينيه وراح يضم الصورة القديمة إلى صدره. نسي مكانه وزمانه بينما تعتلي شفتيهِ ابتسامةٌ رقيقة. كانت نايا ترقص أمامه بسعادة الأطفال، ثم ركضت إليه وعانقته عناقاً كاد يطحن أضلاعه.

قاطع جرسُ الباب أفكاره تلك وأمَّ كلثوم بينما تغنّي: "تسوى إيه الدنيا وأنت مش معايا". وضع الصورة جانباً ونهض لفتح الباب.

-أنت؟ ليس من عادتك أن تزورني بشكلٍ مفاجئ!

-لم أشأ إزعاجك، لكنّني كنت بالقرب فرغبت في رؤيتك.

قال أيمن ثم استطرد باستهزاء:

-ماذا صنعت بنفسك؟ يبدو شكل وجهك مضحكاً من دون لحية! لعلّك كنت تركت شاربيك على الأقل.

-لست في مزاجٍ يسمح لي بتحمّل مزاحك.

قال فريد وسبق صاحبه إلى الداخل.

-هل ما زلت حزيناً بسبب الكلب؟

سأل أيمن وتبع فريد.

-شاي؟

سأل فريد.

-اصنعها ثقيلة، أشعر بصداعٍ غريب.

-ما خطبك؟ لا تبدو لي في أحسن أحوالك؟ النساء مجدّداً؟

-ألن تخبرني لمَ حلقت لحيتك؟

-موجة ذكريات..

أجاب فريد باقتضاب من المطبخ بينما يجول أيمن في غرفة الجلوس ذهاباً وإياباً.

-توقّعت ذلك من أغنية أم كلثوم.

قال أيمن وصمت.

جاء فريد بالشاي إلى غرفة المعيشة ليجد أيمن يتأمّل صورة نايا.

-أعرف ما الذي يجعلك تحملق في الصورة هكذا!

قال فريد وخطف الصورة من بين أصابع ضيفه بعد أن وضع الشاي على المنضدة ثم استأنف:

-ولا تكفّ كذلك عن كونك متطفّلاً حقيراً يحاول تقمّص شخصيّة رجل مخابراتٍ من العهد السوفياتي.

-الشبه بينهما لا يوصف!

قال أيمن متعجّباً.

-أعلم، لو كنت رأيت الاثنتين على أرض الواقع لما استطعت تمييز إحداهما عن الأخرى بسهولة.

-هل تعلم أنّها ليست المرّة الأولى التي أرى فيها هذه الصورة؟

-لن يثير هذا استغرابي، فقد كنت وما زلت تقحم نفسك في كل خصوصيّات حياتي.

-كنت مرّةً أبحث في غرفتك عن المال لأشتري الحشيش وكانت الصورة في درج مكتبك، عندما رأيتها ظننت أنّها للورا فعلاً، ثم خرجت ونسيت أمر المال. أَوقِفْ هذه الأغنية أرجوك، أنا أكره هذه المرأة.

-تكره أمّ كلثوم؟!

سأل فريد متعجّباً.

-والدي كان يحبّها، حتّى أنّه بكى عند موتها كالمجانين، مع أنّه لم يبكِ يوم موت أمّه ولا موت أمّي، لأن الرجال من وجهة نظره لا يبكون.

-قد لا نشترك في كثيرٍ من الأشياء، ولكنّك تشبهني بكرهك لوالدك، على الرغم من أنّك لا تختلف عنه كثيراً.

-ربّما أكرهه لهذا السبب، لأنّني عجزت ألّا أكون صورةً مصغّرةً عنه! ولكن انظر أنت إلى نفسك يا رجل. أنت في الحقيقة لا تشبه والدك، لكنّه أجبرك على أن تشبهه رغماً عنك. وكلّ منّا، أنا وأنت، نحمل دماءهم في عروقنا، ماضيهم في حاضرنا، وكرههم في قلوبنا. هذا ما أرادوه لنا، أن يستمرّوا في الحياة عن طريقنا.

-أنانيّون أوغاد..

قال فريد وهو يحكّ أذنه بقوّة.

-أمّي ماتت قهراً من أفعاله يا رجل!

قال أيمن.

-وأمّي كذلك، ولكن صدّقني يا أيمن، لو بقيت إحدى زوجاتك في بيتك لسنةٍ واحدةٍ فقط لماتت قهراً أيضاً.

-معك حق.. (قال أيمن ضاحكاً).. النساء قد تغيّرن كثيراً، أين النساء الصابرات يا رجل؟

-في القبور..

قال فريد مُطلقاً ضحكةً ساخرةً قبل أن يكمل:

-لمَ عساهنّ يصبرن عليك؟

-لا يهم.. فليذهبن كلهنّ إلى الجحيم.

-إذن، أيّ همومٍ قد ساقتك إليّ اليوم؟

-شبيهة حبيبتك صاحبة الصورة.

-توقّعت ذلك.

-قلبت الكوكب كلّه بحثاً عنها يا رجل، أمتأكّدٌ أن هانّا تلك لم تخبرك عن مكانها؟!

-لقد طرحت عليّ هذا السؤال ألف مرّةٍ خلال العشرين عاماً الفائتة، وفي كلّ مرّةٍ كنت أجيبك بالنفي، وإن أخبرتني هانّا بمكانها فلن أبوح لك به.

قال فريد بينما يسكب الشاي في الكأس قبل أن يدفع به إلى صاحبه.

-ليتني أستطيع إيجاد هانّا تلك.

-لا تحاول إيجاد هانّا، أحذرك. وانسَ أمر لورا، أنصحك.

-لا أستطيع، لقد حاولت آلاف المرّات من دون جدوى، لم أقدر على نسيانها ولا ليومٍ واحد.

-إذن كلّ علاقاتك وزيجاتك ومغامراتك العاطفية بين الأسرّة وفي أحضان النساء طوال عشرين عاماً ما هي إلّا محاولاتٌ للنسيان.

-وللانتقام أيضاً، أكره النساء جميعاً، أحتقرهنّ كلهنّ، وأعشق لورا.

-لو كنتَ تحبّها لكنت احترمت حياتها ورغبتها. أنتَ تكرهها هي الأخرى، بالقدر نفسه الذي تحبّ به نفسك، تحقد عليها لأنّها كسرت غرورك وتركتكَ بينما أنتَ تريد بقاءها، على عكس باقي النساء اللاتي كان أمرهنّ سيّانَ بالنسبة إليك.

-وأنت؟

-أنا ماذا؟

-هل تحبّ أحداً؟

-لا

-وصاحبة الصورة؟

-كنت أحبّها، واليوم لا أعرف عنها شيئاً. لم أحاول حتّى. افعل مثلي وانسَ لورا.

-أليست مصادفةً عجيبةً أنّ بينهما شبهاً إلى هذا الحد؟

-كما قلت، مصادفة، يكفي أنّها مصادفة لكي لا نتعجّب من الأمر. لا يوجد مصادفةٌ عجيبة وأخرى ليست كذلك.

-هل تحبني يا فريد؟

سأل أيمن وهو ينظر في عينيّ مضيفه.

صمت فريد لثوانٍ وشرب ما تبقّى من الشاي في كأسه دفعةً واحدة قبل أن يشبك أصابع يديه ويستأنف:

-اسمع يا أيمن، أنت ترى منّي الآن ما أريد أنا أن أريك إيّاه، لم ولن ترى حقيقتي يوماً. عشرون عاماً قد علّمتني كيف أجبر نفسي في كلّ

دقيقةٍ على كتم ما أشعر به لكي أستمرّ في العيش، أن أداري هذا الواقع وأوهمه بأنّني أتقبّله، هذا خارجي فحسب، أمّا داخلي فلنفسي، لوحدتي بين جدراني، وليس لأيّ أحدٍ آخرٍ على هذا الكوكب. وهذا القدر من البراغماتية قد استغرق منّي أعواماً من الجهد، حتّى تراني أظنّ أنّني منفصمٌ تماماً. صدّقني، لو كلّمتني حتّى الصباح؛ لن تستطيع أن تخاطب فريد بكلمةٍ واحدة، وسيجيبك لؤي عن كلّ سؤال، لأنّ عالم فريد خالٍ منك، لا وجود لك في ذلك العالم. ذاك عالمٌ منزّهٌ عنك وعن حياتي هذه برمّتها. ولكنّني سأحاول أن أكون صريحاً معك لمرّةٍ واحدة، كَوني أرى اليوم نقاءً في عينيكَ لم أعهده سابقاً. أنت شيءٌ بالنسبة إليّ يا أيمن، شيءٌ فُرِضَ عليّ غصباً وتعلّمت مع السنوات كيف أتعامل معه على أساس المنفعة المتبادلة، ولك في هذا دورٌ كبير، فلو جمعتني الأقدار بشريك سكنٍ آخر في برلين لكنتُ اليوم إنساناً آخر، ربّما كان لؤي حينها أكثر طيبةً، أو أكثر شرّاً، وربّما كان أقرب إلى فريد. أنت بالنسبة إليّ مثل ألمانيا، مثل الجامعة، مثل رواياتي، مثل هذا البيت ومثل سيارتي وكأس الشاي هذا الذي أمامي.. كلّكم أشياءٌ قد تعثّرتُ بها بناءً على قرارٍ لم أتخذه، ولم يكن لي دورٌ في اتّخاذه، أنتم تنتمون إلى عالم لؤي. أمّا أمّ كلثوم، حبّ المراهقة، دمشق، دافيد، هانّا، أمّي، وحتّى روكي قد لامسوا فريد وعرفوه، كنت معهم كما يريد فريد أن يكون. أنا هنا في حفلٍ تنكريٍّ كبيرٍ ومستمرّ، ولكن ما يعزّيني أنّني لست الوحيد فيه. هذا العالم كلّه مسرح هذا الحفل؛ وكلّ البشر أبطاله.

-أعلم أن الأذى والقسوة اللذين لحقا بك كانا كبيرين، لكن صدّقني يا فريد، أنا أحبّك كما لو كنت أخي.

-لا تكذب على نفسك يا أيمن، أنت الآن في لحظة ضعفٍ فحسب، بل تقول لي الآن بأنّك تحبّني لتثبت لنفسك فقط أنّك تعرف الحبّ، وأنّك تحبّ لورا، ولا تكرهها كما أخبرتك.

-هل تريد منّي أن أكشف الحقيقة للناس جميعاً وأخبرهم بأنّك الكاتب الحقيقيّ وبطل هذه القصة؟ أنت كاتبٌ عظيم، وأنا مستعدٌ لأن أقول هذا للعالم كلّه!

قال فريد ضاحكاً:

-أرجوك لا.. أنا راضٍ هكذا.

-ستكون ضربةً رائعة! سنصبح مشاهير أكثر بعشرة أضعاف!

-حتّى في هذه تفكر في الشهرة والمال، الحديث معك عبث، لا جدوى منك.

قال فريد مبتسماً ثم أضاف:

-ألم يُعلَن بعد عن موعد نشر الرواية؟

-اتصل بي الناشر الأسبوع الفائت وقال إن عمليّة التحرير قد انتهت تقريباً، كما أثنى على الرواية كثيراً. أردت إخبارك بهذا، ولكن..

-لا تكمل.. (قاطعه فريد).. لقد وصلني ثناؤه الآن، ثمّ ما شأني؟ الرواية روايتك وقد تمّ الثناء عليك لا عليّ.

-دعنا من هذا الآن..

قال أيمن متلعثماً قبل أن يتابع:

-يجب أن نستعدّ لإطلاق الرواية خلال معرض الكتاب في لايبزيغ الشهر القادم.

*****

انتظر فريد انصراف صاحبه المكلوم بفارغ الصبر، بينما أمضى هذا الأخير ساعةً كاملةً في التدخين والتحدّث بأحاديث لم يعد يذكر منها فريد كلمةً واحدة، كان يريد اللجوء إلى سريره فحسب، فلقد أرهقته كمّية الأكاذيب التي كان يكيلها لصاحبه طوال الوقت. الكذب مرهقٌ جدّاً، وهذه الحقيقة تلازم فريد في كلّ يومٍ من أيّام حياته. كلّ حديثه عن تقبّله لـ(لؤي) وتعايشه معه كان لا يعدو كونه ادّعاءاتٍ فارغة تحطّمها أغنية قديمة أو حتّى لحظة خلوة.

انسدح الرجل في فراشه وراح ينظر إلى السقف وهو يحكّ ذقنه التي هيّجت بشرتها الحلاقة بعنف؛ ويبحث عن فكرةٍ لروايةٍ جديدةٍ يكتبها، لعالمٍ جديدٍ يختلقه ويهرب إليه. فتح الدرج المجاور لسريره، أزاح علبة مضاد الاكتئاب وحبوب المهدّئ جانباً وسحب دفتره الصغير الذي يدوّن فيه أفكاره التي توقظه من نومه من وقتٍ إلى آخر. كان الدفتر ممتلئاً بالكلمات غير المفهومة والجمل الناقصة، بالتواريخ وأسماء الأماكن والشخصيّات.

لم يكتب فريد بعد آخر رواية قام بتسليمها لأيمن أيّ شيء، وأخبر أيمن أنّه مصابٌ بحبسة الكاتب للتهرّب من إلحاح هذا الأخير، ولمّا حاول الكتابة مجدّداً اكتشف فعلاً أن حبسة الكاتب قد نالت منه ولم يستطع كتابة حرفٍ واحد. على الرغم من أنّه لم يكتب رواياته بشغفٍ كبيرٍ، وعلى الرغم من أنّه يراها رديئةً وما كان لينشرها تحت اسمه قَطّ، بيدَ أنّها لاقت استحساناً قلّ نظيره.

كان عندما يشرع بكتابة أيّ روايةٍ يبدأ برسم ملامح الشخصيّات الرئيسيّة انطلاقاً من ذاكرته الصغيرة التي شحنها في دمشق، ثم يقوم

بتقمّص تلك الشخصيّات ويحاول التفاعل مع قصتّه، ليس لإنجاح حبكة روايته، بل كنوعٍ من الخروج من ثوب لؤي الذي يُقيّد روحه. وهكذا كان فريد هو (عامر) في روايته الأولى، وفي الثانية كان (إيهاب)، وفي الثالثة (هانس)، وفي الرابعة (إدوارد)، وفي الخامسة (سالم)، وفي السادسة (توبياس).. كما كان عليه مرافقة أيمن في كلّ رحلاته التي تخصّ الكتابة على أنّه وكيل أعماله والمشرف على تحرير النصوص، ولم يكن من النادر أن يجيب أيمن عن أسئلة القرّاء والصحفيين بطريقةٍ غريبةٍ وملفتةٍ للأنظار، ولكن لم يخطر في بال أحدٍ طبعاً أنّ أيمن وفريد يخدعان العالم كلّه، وخاصةً وأنّ أيمن ملتزمٌ بعقد احتكارٍ مع إحدى كبريات دور النشر في ألمانيا.

اقتنع فريد بشكلٍ شبه تامٍ بأنّه قد أفرغ ما في جعبته من أفكار.

كتب أرنست همنغواي ذات مرّة: "من أجل أن تكتب عن الحياة، يجب أن تعيشها أولاً"

وكلّ ما كتبه فريد كان قد انبثق من رحمِ سنواتٍ قليلةٍ عاشها تُوّجت بتجربةٍ كارثيّة، إذ أنّ الجريمة كانت نقطة التحوّل في حياته، وحدثاً غيّر مجرى تاريخه؛ كما غيّر اغتيال الأرشيدوق فرانز فرديناند وزوجته صوفيا مسارَ تاريخ الكوكب برمّته.

في يوم مقتل أخته نزل فريد من عالم البشر إلى العالم السفلي، حيث لا وجود إلّا للأشرار والملاعين، في حين أن ملائكة خلاصه من جحيمه ذاك؛ كانوا لا ينفكّون يظهرون ثمّ يختفون بذات السرعة.

طفق فريد يقلّب صفحات ذلك الدفتر؛ لعلّه يمسك طرف خيطٍ لقصّةٍ جديدة، ثم لم يلبث أن أصابه الضجر فأعاد الدفتر إلى الدرج واستلقى على جنبه ونام.

*****

في شوارعٍ حجريّةٍ ضيّقة، حارات دمشق القديمة، كان أبو فريد (الحجّي) يركض لاهثاً وراء ابنه ذي العشرة أعوام؛ واللعاب يسيل من فمه بينما يتدلى لسانه خارجاً ويتأرجح يميناً ويساراً. ركض فريد وركض من دون أن ينظر إلى الخلف، وهو ينادي بأعلى صوته: "روكي". لاحظَ أن اللهاث والنباح قد ابتعد حتّى لم يعد مسموعاً، توقّف ونظر حوله ليجد نفسه وسط الساحة الكبيرة أمام بوابة برندبورغ في برلين ليلة انهيار جدار برلين. شق طريقه بين جموع الناس باحثاً عن روكي بينما يتهامس الجميع وينظرون إلى فريد ويقولون: "ابن الكلب! ابن الكلب!"

*****

صوت جرس الباب أيقظ فريد الذي فتح عينيه مذعوراً، مسح وجهه ثم نهض مسرعاً لفتحه من دون أدنى تفكير:

-لا تبدو لي بحالٍ جيدة! ما الأمر؟ أين لحيتك ولمَ يبدو وجهك هكذا؟ هل أنت مريض؟

هكذا انهالت عليه الدكتورة صوفيا بالأسئلة فور رؤيته.

-أعتذر، لم يكن يجدر بي فتح الباب هكذا، لكنّني كنت نائماً وأفزعني جرس الباب فهرعت إليه ولم يخطر لي أن تكوني أنتِ وراءه.

-من عساه يكون إذن؟

-أحد أصدقائي كان هنا قبل ساعات وظننتُ أنّه نسي شيئاً ما وعاد لأخذه.

-أعتذر، لم أقصد إفزاعك أو إزعاجك، ألن تدعوني للدخول؟

-أعتذر. بالطبع، تفضلي!

عاد فريد إلى غرفة نومه لتبديل ملابسه، لكنّه قبل كل شيءٍ أخرجَ الدفتر الصغير من الدرج، بحث فيه عن زاويةٍ فارغةٍ وكتب بخطٍ صغيرٍ بالعربية على هامش صفحةٍ مكتظّة: "ابن الكلب".

*****

-أعتذر عن قدومي من دون موعدٍ مسبق يا لوي، لم أدرِ إلى أين عليّ الذهاب.

قال صوفيا التي اعتادت مناداة فريد ب (لوي)، باللفظ الفرنسي لاسم لويس.

-لا تكوني سخيفةً يا صوفي، لا داعي للاعتذار. حسناً فعلتِ بقدومك إليّ، ولكن هل هناك أيّ طارئ؟

-كلّا.. هي القصّة نفسها في كل مرّة، كدت أنهار اليوم في الجامعة، الفصل القادم على الأبواب، ورحلتي إلى لبنان بعد أيّام، يبدو أنّني سأقوم بالاعتذار عن إلغائها.

-سيثير هذا الأمر استغراب البروفيسور (هولتس)، وغضبَه كذلك. لقد كنتِ مصرّةً على مرافقته.

-كان ذلك عندما ظننتُ بأنّني أستطيع إقناعك بالسفر معنا، حتّى البروفيسور دعم مرافقتك لنا. فليذهب ذاك الأخرق إلى الجحيم الآن، لا آبه بشيءٍ ولو قاموا بفصلي من عملي.

-ماذا حدث؟ لم أعهدك بهذه اللامبالاة من قبل.

قال فريد وهو يرمق صوفيا باستغرابٍ مصطنع.

غطّت صوفيا وجهَها بكفّيها واستندت على ركبتيها قبل أن تجهش بالبكاء.

نفخ فريد نفخةً صامتةً في الهواء بنفاد صبرٍ ثم اقترب منها:

-ما خطبك يا صوفي؟

اشتدّ نحيبها فأحضر لها كأساً من الماء:

-اشربي، رجاءً!

أبعدت صوفيا يديها عن وجهها ومسحت كفيها ببنطالها قبل أن تتناول الكأس منه.

-أخبريني الآن، ما الأمر؟

قال فريد وهو يعود أدراجه إلى الكرسي المقابل.

-كنت عند أختي قبل أن آتي إليك، لم تسمعني، بل كادت تطردني! أفهمها، لقد صرتُ على ما يبدو عبئاً على الجميع، بما فيهم زملائي ورؤسائي في العمل، أشعر أن حياتي قد تعطّلت وأن جسدي لا يستجيب لي. ما عسايَ سأفعل؟ ما جرى لي في الأشهر الماضية لم يكن هيّناً، انفصالي عن زوجي وما جرّه عليّ من المتاعب، ثم وفاة (كلاوس) قبل ثلاثة أشهر والحزن الذي خلّفه في قلبي، لم يكن (كلاوس) صديقي المقرّب منذ المدرسة الابتدائية فحسب، بل كان شخصاً لا يعوّض وجوده أيّ أحدٍ آخر، حتّى عندما أرادت منه زوجته إنهاء صداقتنا لم يفعل، وتمسّك بي حتّى آخر لحظات حياته. أليس من المؤسف أن يسرقه الموت في هذا السن؟ عشت معه أيّامه الأخيرة لحظةً بلحظة، وكان ذلك السؤال يقتلني عندما أسمع أنين مرضه: "هل يجب أن أتمنّى له الموت ليستريح من عذابه؟ أم أتمنّى أن يطيل الربّ عمره لأنّني أخشى

حياةً تخلو منه؟"، لم أستطع تمنّي الموت له ولا لمرّةٍ واحدة، على الرغم من انعدام آمال شفائه! ألهذه الدرجة كنت أنانيّة!

صمتت المرأة لبرهةٍ ثم تابعت نواحها:

-أكره السرطان! لماذا خلق الربّ هذا المرض؟ أخذ مني أبي ثم صديق عمري.

قالت صوفيا وهي تشدّ خدّيها إلى الأسفل بكلتا يديها.

اقترب منها فريد وأدناها من صدره بينما تربت يده على كتفها، لفت انتباهه أنّ صوفيا لم تنسَ -على الرغم من حالتها تلك- أن تضع عطرها المفضّل من ماركة (ماغنوليا) والذي كان يحبّه كذلك.

هدأت بعد عدّة دقائق فعدّل فريد من جلسته إلى جانبها.

-لوي..

هتفت بعد أن مسحت دموعها التي سالت على خدّيها ساحبةً معها الكحل الذي لطّخ وجهها وراحتيها.

-نعم!

أجاب فريد.

-هل رفْضُك للسفر إلى بيروت يتعلّق بذهابي أنا مع البعثة؟

-كيف خطر لك شيءٌ كهذا؟ بالطبع لا!

-ما الذي دفعكَ للرفض إذن؟

-لا أحبّ تلك البلاد.

قال فريد مطأطئ الرأس.

-ولا تحبّني أيضاً.

قالت وقد ثبّتت عينيها على الجدار المقابل.

صمت فريد مطوّلاً فاستأنفت صوفيا:

-هل تراني قبيحة؟ غير مثيرةٍ للاهتمام؟ أبعث على الكدر والملل؟ أنت تعلم أنّني لم أكن هكذا ولم أكن السبب في انفصالي عن زوجي، طالما تعثّرت بأقذر الرجال في حياتي، كنت في كلّ مرّةٍ أسلم نفسي بكلّ ما لدي للحبّ، ثمّ أتعرّض للخداع والخيانة، أو للاستغلال. لقد أحببتُ (مارتين) كثيراً، حتّى أنّني كنت قبل انفصالنا بأشهرٍ أنوي التحدّث معه عن الإنجاب، أردت طفلاً منه! هي رغبةٌ لم أشعر بها في حياتي قطّ، لأُصدَمَ بعد أيّامٍ فقط بأنّه كان يخدعني طوال الوقت. ولكن أنت.. أنت يا لوي، أنت مختلفٌ عنهم جميعاً! شعوري يخبرني بهذا منذ زمنٍ بعيد، لستَ كأيّ رجلٍ آخر عرفته في حياتي.

-وما الذي يجعلك متأكّدة هكذا؟ قد لا أختلف كثيراً عن مارتين أو عن أيّ رجلٍ عرفته.

-لا، لست كذلك، أنت أنقى منهم جميعاً وأكثر صدقاً، ولهذا أحببتك.

-هل تعترفين لي بحبّك الآن؟

-أنت لا تحتاج إلى اعترافي، أنت تعرف هذا بالفعل وقد رفضتني مرّاتٍ عديدة.

-أعتقد أن الوقت الآن ليس ملائماً للتحدّث عن المشاعر.

-ولمَ ليس الآن؟

-حالتك لا تسمح بذلك.

-وهل تسمح حالتك؟

سألت صوفيا ممتعضة.

-ما هذا السؤال؟

-لقد أخبرتك عن حقيقة شعوري تجاهك وسأعيدها لتسمعها بشكلٍ أوضح: أنا أحبّك!

أطال الصمت فتدخلت صوفيا غاضبةً:

-يا إلهي! كأنّنا في فيلم سينمائي أو روايةٍ خياليّة، لم أسمع في الحياة الواقعيّة عن امرأةٍ تطارد رجلاً بهذا الشكل ويصرّ على رفضها.

نهضت المرأة وراحت تمشي في الغرفة أمام فريد جيئةً وذهاباً بينما يمسك هو رأسه بكلتا يديه:

-صوفي.. أوافقك الرأي، نحن لسنا في فيلم ولا رواية، ولكن هل يوجد في الحياة الواقعيّة حبٌّ كهذا؟ هل تعتقدين أنّني لا أرغب في قتل وحدتي هذه مع امرأةٍ جميلةٍ ومثقّفةٍ مثلك؟ ولكن، هل هذا حبّ؟ هذه في أحسن الأحوال أنانيّة، تشبه دعاءك سرّاً بأن يطيل الله بقاء كلاوس حيّاً ولو أمضى تلك الفترة الإضافيّة يحتضر متألماً.

-حسناً، أنا لا أستطيع إجبارك على شيءٍ بالطبع، ولكن ليكن في علمك يا دكتور لواي أنّني لا أرغب في قتل وحدتي معك، ولو رغبت في الهروب من وحدتي عن طريق رجل لوجدت في الخارج مئات الرجال الذين يمنّون الأنفس بأن أفعل ذلك معهم، ومن دون أي عناءٍ يذكر. وشكراً لأنّك تراني أنانيّةً أيضاً.

صرخت ثم حملت حقيبتها مغادرةً منزل فريد.

تسمّرَ فريد في مكانه لدقائق وراح يفكّر، ألم تصف نفسها بالأنانيّة قبل دقائق؟ ثمّ ما يمنعه من إعطاء نفسه فرصةً في الحب؟ تلك المرأة قد لا تكون بحاجةٍ إليه بقدر حاجته هو إليها بالفعل. امرأةٌ جميلةٌ في قمّة تألّقها وعطائها وأنوثتها، لم تبخل عليها الحياة بالحزن وكالت لها سوء الطالع كما حاله، فما يمنع أن يداوي أحدهما جراح الآخر؟

شرع فريد يشمّ راحة يده بعمق، كانت رائحة عطر صوفيا لا تزال عالقةً بين أصابعه، أحسّ فريد بالشهوة والإثارة ورغب في أن يدسّ يده الأخرى في بنطاله ويداعب نفسه، طفق يفرك عينيه بقوّةٍ ويهزّ رأسه يميناً ويساراً محاولاً قمع رغبته الصبيانيّة تلك، قبل أن يتناول هاتفه ويختار رقم صوفيا ليضرب معها موعداً في المساء في أحد مطاعم المدينة القديمة في دوسلدورف.

*****

عند الثامنة والنصف دخلت صوفيا المطعم مرتديةً فستاناً أسود يكشف عن رشاقتها وجمالها بشكلٍ صارخ، حيث كان فريد ينتظرها. صنع دخولها بذلك الفستان مع سجّاد المطعم الأحمر مزيجاً رائقاً أغرى فريد الذي نهض وسحب الكرسي المقابل لتجلس قبالته فبادرته هي بابتسامةٍ مبتذلة.

-أعتقد أنّ هذا المكان رائع جداً، ألا تظنّين ذلك يا صوفي؟

-بلى.

أجابت صوفيا ببرود.

-تعجبني هذه الثريا جدّاً..

علّقَ فريد وهو ينظر نحو الأعلى إلى الثريا الكبيرة التي تتوسّط السقف الخشبي المزخرف ثم استطرد:

-طالما رغبت في اقتناء واحدةٍ مثلها، ولكنّها باهظة الثمن بالتأكيد.

لم تجب المرأة وراحت تتظاهر بأنّها تبحث عن شيءٍ ما في حقيبتها الجلديّة الصغيرة فتابع هو بإلحاح:

-صوفي، لم أقصد أن أجرحك، صدّقيني!

-هل دعوتني إلى هنا لتعتذر منّي؟ لقد أفسدتَ عليّ موعداً هذا المساء مع رجلٍ أريد كسر وحدتي معه.

-اهدئي أرجوك! نحن لسنا مراهقين، لقد دعوتك لأتحدّث معك وأبوح لك بما في قلبي.

-تفضّل!

-هل نأكل أوّلاً؟ لم أتناول طعاماً منذ الصباح.

*****

-هل ستتكلّم الآن؟

قالت صوفيا وهي تمسح شفتيها بالمنديل بعد أن تناولت بعض طعامها.

-حسناً.. لقد قلتِ لي إنّكِ تحبّينني.

-وأنت بدورك لم يعجبك ذلك!

-صوفي، أنا أعرفكِ منذ سنوات، وأعرف تقريباً كلّ شيءٍ عن حياتك. عدا عن كونكِ امرأة فائقة الجمال لا ينقصها العلم ولا الثقافة ولا المال، بهذا أنتِ تملكين جميع الأسباب التي تجعلني أحبّك، بل وتجعل أيّ رجلٍ في هذا العالم يتمنّاك.

-ظننتُ أنّك أكثر إبداعاً لتخترع أسلوباً مبتكراً للهرب؛ بدلاً من هذه الطريقة المستهلَكة.

-لا، لست أحاول الهرب، ما أريد قوله إنّك لا تعرفين عنّي أيّ شيء، فكيف يمكن لك أن تحبّيني؟

-أقدّر كونك تميل إلى السكوت، ولكنّ هذا لا يعني أنّني لا أعرف عنك شيئاً.

-ماذا تعرفين عنّي؟

سأل فريد بينما يشعل سيجارة.

-يكفيني أنّك رجلٌ شريف، وذو قلبٍ أبيض.

-حتّى في هذه قد تكونين مخطئة!

-حدسي لا يخطئ!

-ما أعرفه أن حدسك قد أخطأ مراتٍ عديدة.

-ليس هذه المرّة

قالت صوفيا بغرور.

-لا، الأمر ليس منطقياً بالنسبة إليّ.

-إذن لمَ دعوتني إلى هنا؟

سألت حانقةً وهي تعلم في قرارة نفسها أن فريد ما كان ليعاود الاتصال بها لو كان يريد تكرار كلامه ذاته فحسب، لا بدّ وأن موقفه تزعزع أو فكّر في الأمر على أقلّ تقدير.

-دعوتك لأبرّر لكِ موقفي.

-لستُ بحاجةٍ إلى تبريراتك. أنا سعيدةٌ هكذا، شكراً لك.

قالت وهمّت بالنهوض.

-صوفي، اجلسي، أرجوك!

همس فريد برقّةٍ بعد أن أمسك بمعصم صوفيا.

جلست المرأة ثم استأنفت بعد صمتٍ قصيرٍ تخلّلته نظراتٌ حادّةٌ إلى فريد:

-لوي...

قاطعها فريد:

-إن لم تكوني بحاجةٍ إلى فهم موقفي، فأنا بحاجةٍ إلى شرحه على الأقل.

-أقسم لكَ أنّني لا أفهم نظرتك الناقصة تجاه نفسك، أنت رجلٌ رائع! وإن كنت تعتقد عكس ذلك فهذا شأنك ولا ينبغي لك فرض نظرتك السلبيّة إلى نفسك على كلّ من هم حولك ودفعهم لاحتقارك! علامَ تجلد نفسك بهذه القسوة؟ أخبرني!

-ليس لأحدٍ الحقّ أن يرى فيّ ما لا أراه في نفسي.

-كما ليس لي الحقّ في أنّ أحبّك كما أراك، صحيح؟

-تماماً!

-ولمَ؟

-لأنّك لا تعرفين من أكون، الأمر بهذه البساطة.

قال بنبرةٍ غاضبةٍ وضرب على الطاولة قبل أن يتلفّت حوله ويهمس:

-أعتذر..

-من أنت يا لواي؟

سألت بصوتٍ مرتعد.

سكت وراح ينظر في عينيها بعد أن شعر بأنّه يورّط نفسه فيما لا يحمد عقباه.

-أنا..؟

-نعم، من أنت؟

-لا أعرف.

-لا تعرف ماذا؟

-أنا لا أعرف من أنا، أنا إنسانٌ بلا هويّة!

-لم أفهمك، ولكنّني أصرّ على سؤالي.

-أنا.. أنا ابن كلب!

-المعذرة؟

قالت صوفيا مستغربة.

-أنا.. ابن زنا، لقيط..

قال فريد متهرّباً، فقد كان اسمه الحقيقي يريد الجريان على لسانه والانطلاق نحو الخارج، قال لها ذلك وقد شعر أنّه على حافة وادٍ لا يُرَى قراره، وأن عشرين خريفاً من الصمود كادت صوفيا تسقطها كأحجار الدومينو، خريفاً يتلو الآخر، فقال ما لا يمكن التراجع عنه وكأنّه يقطع على نفسه كلّ طريقٍ لقول الحقيقة.

*****

مرّت عشرون دقيقةً لم ينطق فيها فريد بكلمةٍ واحدة، ولم تشأ صوفيا أن تقاطع صمته، أو لم تدرِ ما عليها أن تقول. أخيراً استجمعت المرأة كلماتها وقالت بارتباك:

-لوي، أنت تعلم علم اليقين أن وجودك في هذا العالم من دون أبوين لا يعني أنّك بلا هويّة، تخيّل لو أنّني من دون أبوين، وأخبرتك بذلك بكلّ هذا الحزن الذي في عينيك، ماذا كنت لتقول لي حينها؟ أنت تعرف أنّ هذه الحقيقة ليس لها أن تغيّر من حبّي لك وإعجابي بك، بل إنّني أحبّك الآن أضعافاً كثيرة، وهذا يؤكد لي أنّ حدسي تجاهك كان صائباً تماماً. لا يعقل أن عليّ شرح هذا لشخصٍ بعلمكَ وثقافتك.

أراد فريد الهرب من الحقيقة التي ستوقعه في مأزق، فتورّط بقصّةٍ جديدةٍ ينبغي عليه حياكتها بعناية، ليس ككاتبٍ خفيٍّ هذه المرّة.

أمسكت صوفيا يده ونظرت في عينيه المرتبكتين ثم قالت:

-لوي، أنا أحبّك لأنّك لوي، وليس لأيّ سببٍ آخر!

ارتجفت يد فريد، فقام بسحبها سريعاً ثم نهض، ففعلت صوفيا كذلك:

-لن تذهب يا لوي!

-توقّفي، أرجوك!

-لن تذهب

قالت المرأة ووقفت أمامه.

-أرى أنّك تشفقين عليّ الآن كما كنتُ أفعل أنا قبل ساعات!

-لا أشفق عليك، وإن كنت أفعل، فما السيء في هذا؟ أنا أحبّك، ولم أرَ في عينيك حزناً كهذا من قبل. لن أتركك تذهب!

أمعن النظر في وجهها، ثم ردّد من دون أن يحرّك ناظريه عنها:

-هل تقبلين أن نمضي الليلة معاً؟

سألَ الرجلُ مدفوعاً بالخوف والغريزة.

-بالطبع!

هتفت المرأة مدفوعةً بالحبّ والرغبة.

*****

لم يكن فريد يريد العودة إلى المنزل وحده، فقد كان يعرف تماماً ما كان في انتظاره؛ نكسةٌ عظيمةٌ ستعيده عقوداً إلى الوراء وستغرقه مجدّداً في القلق والكوابيس.

لم يشهد الرجل خلال العشرين عاماً الكثير من الانتكاسات، لكنّه كان متأكّداً في ذلك اليوم أن إحداها، بل ربّما أشدّها وطأةً؛ قادمةٌ لا محالة. كان طوال الطريق إلى منزله يحارب فكرة أنّه يستغلّ صوفيا وعواطفها.

أمضيا معاً معظم ساعات الليل في أحاديث عن العمل والطقس والطعام، وقد حاول فريد إقناع زميلته بمرافقة البعثة إلى بيروت، فالتخلّف عنها سيجلب لها مشكلاتٍ هي بغنىً عنها. وعدته البروفيسورة بأنّها ستلتحق بالبعثة إن شعرت بتحسّنٍ في صحّتها، فيما حكى لها هو عن مرافقته لأيمن إلى لايبزيغ لإطلاق (رواية أيمن) الجديدة:

-أريد أن أسألك شيئاً يا لوي.

لم يُجب، فقد كانت مقدماتٌ كهذه تثير ريبته. فتابعت صوفيا:

-ألم تفكر يوماً في كتابة روايةٍ خاصّةٍ بك؟

-ولمَ هذا السؤال؟

-لقد قرأتُ إحدى روايات صديقك ذات مرّة، ذاك ذي النظرة المريبة. صدّقني كنت أراك بين الكلمات والسطور وكأنّك أنت الكاتب. أعلم أنّك تقوم بتحرير النص فحسب، لكنّني أعتقد أنّك تقوم بهذا على أتمّ وجه، وتقوم بسكب روحك في النصّ.

-أنا لا أجيد الكتابة، ربّما كنت محرّراً جيّداً، لكنّني كاتبٌ سيء. جرّبت الأمر ولم ينجح. بينما أيمن.. يعرف ما يفعل.

قال متنهّداً.

-لا أعتقد أنّ صديقك الجلِف ذاك يجيد شيئاً أكثر منك.

شعر فريد بأنّه كان محقّاً تماماً عندما اختار إبعاد الناس عن حياته الخاصّة، لا أصدقاء مقرّبين، لا زوجة، ولا عشيقة. فمن عساه يدخل بيته وحياته من دون أن يشعر بشيءٍ من الشكّ ويسأل نفسه عشرات الأسئلة؟

بدأ يفتّش عن مهربٍ من ورطته تلك، على الرغم من أنّ شيطانه كان يغلي في دماغه، ويرسل الحمم نحو قلبه الذي نسيَ على ما يبدو جميع أعضاء جسمه، وراح يضخّ كلّ الدم نحو عضوه الجنسيّ الذي أخذ بدوره يزداد صلابةً شيئاً فشيئاً.

-لقد بدأتُ أشعر بالنعاس..

قال فريد.

-وأنا كذلك، لقد كان يوماً شاقّاً.

-لا أدري كيف يجب أن أخبرك بالأمر..

دمدم فريد.

-قل يا لوي!

-لم يسبق وأن نام أحدهم في فراشي من قبل.

-على الإطلاق؟

تذكّر فريد كذبة كونه لقيطاً فعزّزها:

-على الإطلاق.

-سأنام أنا هنا..

قالت صوفيا، ومسّدت على الأريكة بحركةٍ زادت من إثارة فريد.

-لا يليق بي هذا، بإمكانك النوم في سريري وسأنام أنا هنا، إن كنت ترغبين في ذلك.

-لا يا لوي، سأنام أنا هنا، يكفي أنّني في منزلك، لن أسرق منك سريرك أيضاً.

لم يلحّ فريد بعرضه، فلم يكن يرغب في أن تبيت المرأة في غرفة نومه على الرغم من ثقته بها، إلّا أن حرصه على سرّه كان أكبر من تلك الثقة.

-هل لي بعناقٍ على الأقل؟

سأل وهو يفتح ذراعيه بخجل.

اقتربت منه، جلست بجانبه على الأريكة وعانقته بقوّةٍ، بينما يتنفس رائحتها بعمقٍ، وكأنّه يريد تخزينها في أنفه لأطول وقتٍ ممكن.

*****

في سريره كان يتقلّب كمن تمدّد على جمر ويشعر برغبةٍ في عناق صوفيا طوال الليل، لم يكن الأمر متعلقاً بالجنس فحسب، بل أيضاً بحاجته الملحّةِ إلى البكاء الذي يغيب عن حياته منذ سنين، إلى حضنٍ يأمن فيه كفريد، أو كلؤي، لا فرق.

*****

نهض عند العاشرة صباحاً، توجّه إلى الشرفة حيث كانت صوفيا، وقف هناك صامتاً بينما ينظر إلى المدينة المنسدحة أمامهما بكل بهائها وسحرها.

-لم أشعر بجمال هذا المنظر من قبل.

همس لها من خلفها.

-صباح الخير

قالت صوفيا مطلقةً ابتسامةً ساحرة بينما يعبث الهواء بشعرها الأشقر.

-صباح الخير يا صوفي

قال ونظر مباشرةً في عينيها.

-لا تبدو لي أنّك نمت بشكلٍ جيّد.

-ربّما، ولكنّ ابتسامتكِ قد أنستني الأرق، قال وجلس على الكرسي المجاور قبل أن يأخذ نفساً عميقاً وتابع:

-أعتذر إن كنتُ خذلتك بالأمس يا صوفي أو كنت قد..

-لوي، كلّ ما يصدر منك يؤكّد لي مدى نقائك ويزيد حبّي لك.

قال صوفيا مقاطعة.

-لقد كنتُ أرغب في معانقتك حتّى الصباح، وهذا كان سبب أرقي.

-ولمَ لم تفعل أيّها الأبله؟

-لا أدري

قال مُشيحاً بوجهه عنها، ثم استأنف بعد أن ابتلع الشتيمة:

-لقد شعرتُ بانجذابٍ كبيرٍ إليك، وهذا الأمر أثار مخاوفي، كان شيئاً لم أشعر بمثله من قبل.

ابتسمت صوفيا بخجلٍ ثم هتفت:

-دعنا نأخذ مزيداً من الوقت يا لوي، هل يعجبك ذلك؟

-لستُ أدري.

-هل أحببتَ أحداً من قبل؟

سألت وهي تنظر في الأفق.

-ليس تماماً..

-هل تزوجت من قبل؟

-كلّا.

-أنتَ بحاجةٍ إلى كثيرٍ من الوقت إذن.

-وهل لستِ بحاجةٍ إليه كونك قد تزوجتِ وأحببتِ من قبل؟

-بلى، ربّما أحتاج إليه أكثر منك، لكنّني فكرتُ في الأمر مليّاً.

-أعتقد أنّني ربّما أحبّك أكثر مما تفعلين.

-حقّاً؟!

-لستُ متأكّداً، لقد مرّت عشرون سنة لم أعرف خلالها النساء، بل كنت أبتعد عنهنّ وأبعدهنّ عنّي، اعتدتُ أن ألجم نفسي وأكبح جماح رغبتي في الحبّ وحاجتي إليه. لم ألمس امرأةً يوماً، حتّى كدت أنسى أنّني رجل، ولا أدري إن كنتُ اليوم أستطيع معاشرة امرأة. شغلت نفسي بالعمل والدراسة على الرغم من أنّني لم أطِقْهما يوماً. الحبّ لم يكن في قاموسي، هي كلمةٌ لا أعرفها، واليوم يجلس ذو الأربعين عاماً هذا الذي ترينه عاجزاً عن تحديد مشاعره، وهو الأمر الذي لن يعجز عنه مراهقٌ في السادسة عشرة من عمره. لقد نسيتُ كيف يشعر المرء عندما يحبّ! أستطيع بكلّ سهولةٍ أن أتظاهر بأنّني أحبّك يا صوفي، ولكنّني لا أريد ذلك، بل أريد أن أحبّك كما قد يفعل ابن السادسة عشرة ذاك؛ باندفاع المراهقين وإصرار الشباب وجنون الأطفال. ولكنّ السنوات العشرين تلك أثقل من أن أدفعها عن كاهلي، صدّقيني.. كيف لي أن أضمن لك أنّني لن أكون مكمّلاً لعقد خيباتك؟ كيف لي أن أتأكّد بأنّني سأكون النهاية السعيدة بالنسبة إليك؟ الخوف يجرفني إلى طردكِ من حياتي. بعد منتصف ليلة الأمس استيقظ المراهق في داخلي، فصرتُ أتخيّل أنّني أضاجعك وأذرف في حضنكِ رغبةً في الحب عمرها عشرون

سنة، وأقذف في أحشائك شهوةً تعذبني منذ بلوغي. تخيّلت تأوهاتك ونشوتكِ تملأ هذا المنزل الذي لا يعرف إلّا الهدوء، أنا أريدكِ بشدّةٍ يا صوفي، لكنّني أخشى عليكِ وعليّ، فما من لحظاتٍ شعرتُ فيها بالسعادة إلّا تحوّلت إلى حسرةٍ وألمٍ امتدّا لسنوات. لقد اعتدّتُ الوحدة وأخشى أنّني قد صرتُ عبداً لها، حتّى صرتُ أرى في غيابها تهديداً. أرغب فيكِ كثيراً يا صوفي، كما أرغب في إكمال حياتي وحيداً، بذات القدر تماماً. أريد أن أموت وحيداً كما تمنيتُ خلال عشرين عاماً، لا أريد لساعة رحيلي عن العالم أن تغيّر من حياة شخصٍ آخر، أو تشكّل له حزناً. أريد أن أمضي بهدوء العشرين عاماً الماضية، بصمتٍ كما عشتها، كغريب، من دون أن يتحرّك شيءٌ في هذا العالم، أو أن تسيل دمعةٌ واحدة.

كان فريد في تلك اللحظات مثل شخصٍ تمّ طَمره تحت كومةٍ من الصخور الضخمة قبل مئات السنين، وكانت الصخور تكثر بشكلٍ يوميّ، فراح مع كلّ جملةٍ ينطقها يحمل عنه صخرةً كبيرةً ويرميها بعيداً. كان مع كلّ كلمةٍ ينزع من جسده سكيناً تمّ زَرعها في لحمه قبل أكثر من عشرين عاماً.

لكنّه بعد أن فرغ من الكلام تاه في شتاتٍ كثيف، إذ اختلطت في حديثه الحقيقة بالادّعاء، والصدق بالنفاق، والرغبة الجارفة في الحب بشهوةٍ عارمةٍ في التملّص ممّا هو فيه والتراجع عن كلّ حرفٍ تفوّه به لتوّه. شعر أنّه يهرب من جحيم ماضيه إلى جحيمٍ أشد وطأةً، فطالما توّجت محاولات هروبه بالندم وسحبته أعمق في مستنقع الأسى.

أنصتت صوفيا بدورها إلى فريد بحواسها كلّها، وراحت روحها تمتلئ بالسعادة مع كلّ كلمة، إذ انتصرت أخيراً لأنوثتها وظفرت بإثارة مشاعر

تلك الصخرة اللحميّة الصمّاء، بل ونجحت في دفعها لاستعادة كينونتها الإنسانيّة والبوح بما ينطوي عليه داخلها الصلب.

نهضت إليه قبل أن تجثو على ركبتيها وتعانقه بكل ما لديها من الحبّ والعطف، ثم اتّفق الاثنان أن يتحدثا بأمر علاقتهما بعد عودة صوفيا من بيروت.

*****

لم يخرج فريد من المنزل منذ دخل إليه مع صوفيا مساء الجمعة، ولم يستطع النوم ليلة الأحد بسهولةٍ حتّى بعد أن ابتلع حبتين من الفاليوم. كانت الليلة مأساويّة، أراد البكاء وحاول استحلاب عينيه طوال الليل من دون فائدة.

شرع الباب يُضرَب ضرباً يكاد يكسره، بالكاد استطاع الاهتداء إليه لفتحه، لقد طرق أيمن الباب مطوّلاً وكان على وشك خلعه، أو طلب الطوارئ.

-حاولت الاتّصال بك عشرات المرّات وقرعت الجرس وطرقت الباب لربع ساعة.

قال الضيف الثقيل.

-لا تقل لي أنّك قد خفت عليّ!

قال فريد ساخراً ورمى بنفسه على الأريكة فيما جلس أيمن على الأريكة المقابلة وقال:

-ما الأمر؟

-كنت متعباً فحسب، ولا أدري كم ساعةً قد نمت. سأحضّر القهوة، رأسي يكاد ينفجر.

عاد فريد بعد دقائقٍ إلى صاحبه حاملاً كوبي القهوة.

-لديك الحق في أن تكون مرهقاً هكذا، وحدهنّ النساء من يستطعن إرهاق رجلٍ إلى هذه الدرجة.

قال أيمن بخبث.

-ماذا تقصد؟

-لا تتحاذق، أقصد الشقراء التي كانت عندك، هل كانت جميلة على الأقلّ لتستحقّ منك كل هذا العناء؟

صرخ فريد:

-كنت أعرف أن وضاعتك لن تتوقّف وأنّك ستستمرّ في مراقبتي! أخرج من بيتي الآن وخذ معك جهاز التنصّت خاصّتك.

-فريد.. ما خطبك؟

-خطبي أنّني سئمت منك يا ابن الحرام.

-إيّاك ووصفي بهذا الوصف! أحذرك!

قال أيمن بغضب.

نهض فريد كالمجنون وراح ينبش غرفة المعيشة ويرمي بكلّ شيءٍ تقع يده عليه على الأرض، وهو يصرخ:

-أين خبّأته؟ أين؟

قفز أيمن وأمسك فريد بقوّة وثبّته إلى الجدار وهو يحاول تهدئته:

-ماذا جرى لك؟ لم أضع أيّ جهازٍ في منزلك! هناك بعض الشعرات الطويلة الشقراء المتناثرة على الأريكة وهذا كل ما في الأمر!

أسند فريد رأسه على كتف أيمن وهو يلهث ككلب، فيما كان هذا الأخير يكتم غيظه بعد سماعه تلك الشتيمة، وهو أمرٌ تمرّس عليه في الحقيقة أكثر من صاحبه، فإن كان فريد يجد صعوبةً في الكذب والتكلّف، فإن تلك كانت هوايات أيمن المفضّلة.

هدأ فريد بعد نصف ساعةٍ قام خلالها أيمن بترتيب الغرفة من جديد:

-ما الذي جاء بك اليوم؟

سأل فريد وهو نصف مستلقٍ على الأريكة.

-أخبرني عن شقرائك أنت أولاً، هل كانت بارعة؟

-لا تذكرها على لسانك وإلّا حطّمت أسنانك.

-ها قد عاد روميو من جديد.

قال أيمن وهو يصفّق بقوّة.

-ما الذي أتى بك؟

-أريد تذكيرك أنّ النساء فضوليات وأنوفهنّ كبيرة، فاحذر جيّداً، تستطيع المرأة كشف كذب الرجل بسهولة، كما لن تقبل أن يخفي عنها جورباً واحداً في المنزل.

-كفاك ثرثرة وأخبرني لماذا أتيت ثم انصرف.

قال فريد وهو مغمضٌ عينيه.

-تلقّينا عرضاً لإنتاج مسلسلٍ تلفزيوني بناءً على الرواية الأخيرة، تخيّل! الرواية لم تصدر بعد حتّى!

-أنا لم أتلقَّ شيئاً. ألست وكيلك؟

-اتّصل بي الناشر صباحاً وأخبرني بالعرض، لقد دفعوا مبلغاً طائلاً لقاء النص! كما أنّ هناك عرضاً آخر لحفل توقيعٍ كبيرٍ في سويسرا هذا الشهر، بعد الإطلاق في لايبزيغ مباشرةً.

-اذهب أنت، أنا لن أذهب إلى أيّ مكان.

-بل عليك مرافقتي، المنتج يريد لقاءنا في لايبزيغ وأنا أحتاج إلى وجودك أيّها المليونير!

15

دوسلدورف

(آذار- مارس / 2008)

وضّب فريد أغراضه في حقيبةٍ صغيرةٍ قبل انطلاقه قاصداً المدينة التي درس فيها الشاعر الألماني الأشهر (يوهان فولفغانغ فون غوته). في كلّ المرّات التي رافق فيها الكاتبُ الحقيقيّ الكاتبَ المزيّف كان يشعر بالغثيان، ليس أسفاً على جهده وإبداعه، بل امتعاضاً من دناءة ما يقوم به.

عندما تتوجّه عدسات الكاميرات نحو أيمن يحاول فريد التواري عن الأنظار، ولكنّه يشعر أنّ شيئاً ما في أعماق نفسه يبتسم بسعادةٍ وفخر، فهو الكاتب الفذّ الذي شغلت أعماله الناس في الحقيقة، وإن جهل الجميع ذلك.

تواصلت صوفيا معه خلال الأسبوعين المنصرمين مرّة وحيدةً لتعلمه بوصولها إلى بيروت، العاصمة التي تشهد أزمةً سياسيّةً حوّلت البلد إلى قنبلةٍ موقوتةٍ قد تنفجر في أيّ لحظة. لم ينفكّ فريد يفكّر في صوفيا، حتّى أنّه شعر بشوقه إلى عودتها ليدخل معها في مغامرة عاطفية لم يتجرّأ حتّى على التفكير فيها من قبل. بدا كأنّه قد فكّر وحسم أمره أخيراً، فإن كانت الحياة لم تمنحه شيئاً مهمّاً بالنسبة إليه، فلمَ لا يمنح هو نفسه فرصةً للحبّ وخوض التجربة مع امرأةٍ جميلةٍ تحبّه؟ قرّر أن يعترف لها بحبّه فور عودتهما إلى دوسلدورف.

*****

قاد سيارته من طراز فولكس فاغن باسات موديل سنة 2006 على الطريق السريع متّجهاً نحو الشرق الألماني، مقاوماً سيل الذكريات الشرقيّة الموجعة. أدار المذياع بهدف إلهاء نفسه؛ فسمع أخباراً سيئةً

قادمةً من وجهته، من لايبزيغ، حيث اندلعت قبل أيّام مواجهاتٌ بالأسلحة الناريّة الخفيفة هناك بين عددٍ من الشبّان في أحد الملاهي الليلية في المدينة، ممّا أسفر عن سقوط قتلى بينهم. أطفأ المذياع سريعاً وطفق يبحث بين الأشرطة عن شريطٍ يستمع إليه قبل أن يرنّ هاتفه النقّال مظهراً رقماً سوريّاً. تردّد للحظات قبل أن يجيب:

-ألو..

-ألو.. ألو.. أتسمعني؟

قال صوتٌ جهوريٌّ عريض.

-أسمعك، من حضرتك؟

سأل فريد بصوتٍ مرتفع.

-فريد؟

قال الصوت.

بتلعثمٍ سبقه ارتباكٌ أجاب:

-نعم.

-أنا أبو عدنان يا بُنيّ.. هل تذكرني؟

صُعِقَ فريد وصمت.

-ألو؟

ألحّ الرجل.

-أسمعك.. تفضّل.

-الوالد متعب.. مريضٌ جدّاً وعليك التحدّث إليه.

اختفى صوت فريد وراح يعض شفتيه.

-سيّد فريد؟

استمرّ فريد في صمته محاولاً التشبّث بمقوّد السيارة بالقدر الذي مكّنته منه أعصابه، أو بما تبقّى فيها من تماسك.

-هل أغلقَ الخط؟ أخبرتك أنّه ولدٌ عاق! مثل أمّه وأخته. الله يغضبُ عليه وعليهم..

قال صوتٌ يختنق قرب (أبو عدنان) فأنهى فريد المكالمة على الفور.

بالكاد استطاع فريد الوصول إلى أوّل استراحةٍ على الطريق وهو يكابد انهياره لهول ما سمع. أشعل سيجارةً ونفث دخانها بقوّةٍ قبل أن ينفجر ضاحكاً. "ذاك كان صوت رجلٌ يحتضر! الحجّي سيموت!" قال للمرآة. "سبحان من كسر جبروته وأضعف حيلته ليتّصل بي! كم هو مثيرٌ للسخريّة أنّه سيموت موتاً عاديّاً مثل الجميع! وكم سيكون ظلماً ألّا تكون هناك حياةٌ بعد الموت!".

حاول مجدّداً اعتصار عينيه من دون جدوى، لا دموع فيهما منذ سنوات، لقد تصلّب محجراهما وجفّا؛ فلم يبلّلهما طوال سنواتٍ سوى النعاس والكحول الذي أقلع عنه بعد عناء طويلٍ كان خلاله في صراعٍ مع الوقت، كان الأمر أشبه بهجران الحبيبة، وفقدَ كلّ قدرةٍ على البكاء منذ بدأ بتناول مضادات الاكتئاب؛ مخدرات الضمير ومسكّنات لدغات الماضي المؤلمة.

دخّن سيجارتين قبل أن يستجمع قواه ويتابع القيادة، وصل عند الرابعة مساءً إلى لايبزيغ بعد أن قاد خمس ساعاتٍ متواصلةٍ وركن سيارته بالقرب من مركز المدينة القديمة.

أمام كنيسة (توماس) كان تمثال المؤلّف الموسيقيّ والملحّن (يوهان سيباستيان باخ) ينتصب شامخاً. وقف أمام التمثال ورفع صدره إلى الأعلى وراح يحاول تقليد تعابير وجه باخ. مضت دقيقتان شعر بعدهما

بالغثيان، إذ انتبه إلى أنّ ملامح باخ تبدو مشابهةً لما بقي عالقاً في باله من ملامح أبيه.

تذكّر معدته الخاوية وقرقراتها الخجولة حالما وقعت عينه على مطعمٍ مقابلٍ للكنيسة مسمّىً باسم باخ نفسه. اختار طاولةً في الخارج وحزم أزرار معطفه بعد أن هبّت رياحٌ باردة. فضّل تناول القهوة أوّلاً.

على الطاولة المحاذية كانت امرأةٌ سبعينيّةٌ قد فرغت لتوّها من تناول طعامها وطلبت كأساً آخر من النبيذ الأبيض بينما تمسح فمها، ترتدي قميصاً أبيضاً رقيقاً بأكمامٍ قصيرةٍ، كأنّها لا تأبه ببرودة الطقس، بينما تحرّك الرياح شعرها الرمادي القصير. أثار حجم أنفها استغراب فريد: "كيف لا يعيقها ذلك الأنف الضخم عن الرؤية؟" سأل نفسه. بدأت المرأة تبحث في حقيبتها عن شيءٍ ما وتابع هو مراقبتها بطرف عينه بفضول، اهتدتْ أخيراً إلى ما كانت تبحث عنه وسحبت من قعر حقيبتها علبة أقراص (بيسوبرولول)، وضعت قرصاً على طرف لسانها وأعقبته برشفة من النبيذ الأبيض. صرف فريد انتباهه عنها وأشعل سيجارة.

-عذراً أيها السيّد المحترم، هل لك أن تعطيني سيجارة؟ لقد نسيت علبتي في المنزل.

قالت السيدة لفريد وبدا وجهها من الأمام أكثر لطفاً وبشاشة.

-بكلّ سرور

قال فريد ومدّ إليها العلبة.

-والولّاعة.. من فضلك.

في الساحة المقابلة للكنيسة كان أبٌ يلاعب ابنته ذات الخمسة أعوام، يركض خلفها وتجري هاربةً منه، تعثّرتْ فحملها وضمّها إلى

صدره قبل أن يقبّل خدّها بينما تضحك. راح فريد يسحب الدخان من سيجارته وقد أخذه المنظر.

نهض فريد وركض باتّجاه الطفلة، حملها وثبّتها بيده على جدار الكنيسة، وباليد الأخرى انتزع حجراً من الجدار وراح يضرب الفتاة على رأسها بكلّ قوّته.

-سيّدي، سيّدي. تفضّل ولّاعتك، شكراً لك.

قالت المرأة.

نظر فريد حوله فلم يجد الفتاة ووالدها، كانا قد اختفيا وكأنّهما قد هربا منه. اشمأزّ لهول ما تخيّل، تناول الولّاعة من المرأة وطلب حساب القهوة من دون أن يطلب أيّ طعام.

*****

في غرفة الفندق وسط لايبزيغ فتح هاتفه النقّال وتأمّل رقم (أبو عدنان)، كاد يضغط على زرّ الاتّصال قبل أن يرمي الهاتف على السرير بعيداً. أراد أن يعرف إن كان الحجّي قد مات، وإن كان كذلك فكيف كان موته؟ كيف كانت لحظته الأخيرة؟ مَن وجد حوله في تلك اللحظة؟

جلس فريد على الكنبة بجانب السرير وأسند رأسه إلى الخلف وفكّر في دمشق، دمشق التي يحكمها ألف حجّي وحجّي. حجّي كبير والكثير من أشباهه الصغار مثل أبيه.

استطاع النوم بعد أن تقلّب في الفراش لساعةٍ كاملة. رأى الفتاة أمام الكنيسة مجدّداً، كانت تهرب من والدها الذي كان يركض خلفها حتّى دخلت في شارعٍ فرعيٍ ضيّقٍ أفضى بها إلى حارة فريد القديمة في

دمشق. لجأت الفتاة إلى دكّان أم غزوان وكان فريد برفقة سليم هناك، نزع فريد منديل أم غزوان عن رأسها وهي تضحك من دون أسنان وأمسك بالفتاة، ثبّتها وراح يخنقها بالمنديل حتّى ماتت بين يديه، بينما يستمتع كلّ من سليم والمرأة العجوز بالمنظر ضاحكين ويدخّنان.

استيقظ وبدأ يبحث عن زر الإنارة مذعوراً. نظر حوله واستغرق الأمر منه لحظاتٍ ليتذكّر أين هو، نهض وركض إلى الحمّام ليغسل وجهه من العرق المتصبّب من رأسه قبل أن يتناول هاتفه ويغادر الغرفة.

جلس في ردهة الفندق شبه المظلمة وشرع موظف الاستقبال يرمقه بين الفينة والأخرى بتوجّس من فوق نظارته السميكة المعلّقة بسلسلةٍ إلى رقبته؛ قبل أن ينفد صبره ويتوجّه إليه بالكلام من بعيد:

-هل تحتاج إلى شيء يا سيّدي؟

-لا شكراً، لقد عجزت عن النوم وشعرت بالملل في الغرفة. أتدري.. أعتقد أنّني أرغب في كوبٍ من القهوة، هل يتوفّر لديك قهوة؟

-قهوةٌ في هذا الوقت؟

-ما الفرق؟

قدّم الموظف كوب القهوة لفريد بعد أن أعدّه له بنفسه.

-ألديك أطفال يا سيّدي؟

سأل فريد موظفَ الاستقبال.

-نعم، لديّ ابنتان.

-هل تحبّهنّ؟

-بالطبع! ما هذا السؤال السخيف؟

أجاب الموظف وأدار ظهره لفريد متظاهراً بأنّه يعمل، فانصرف فريد إلى الخارج للتدخين.

فكّرَ فريد:

"الجميع يدّعون أنهم يحبّون، الآباء والأمهات يدّعون أنهم يحبّون أطفالهم، الأزواج يدّعون أنهم يحبّون زوجاتهم، والزوجات يدّعينّ أنّهنّ يحببن أزواجهنّ، الحكومات تدّعي أنّها تحبّ الشعوب، والأغنياء يدّعون أنّهم يحبّون الفقراء. من أين يأتي كلّ هذا الشر الذي نعيشه إذن؟".

تابع أفكاره قبل أن يبصق على الأرض بعد أن دهس عقب السيجارة وهو يهمس: "خنازير".

*****

رنّ هاتفه عند الثامنة وكان بالكاد قد استطاع أن يغفو، وريثما قرأ اسم المتّصل كانت دقّات قلبه قد تسارعت وكأنّه ركض عشرة كيلومترات. كان المتّصل أيمن.

-لقد وصلت لتوّي إلى لايبزيغ، سأوافيك حالاً، في أيّ فندقٍ أمضيت ليلتك أيّها المسكين؟

كان أيمن قد قدم من برلين، حيث لحق بنادية -التي كانت تزور والدتها هناك- شوقاً إليها على حدّ وصفه.

في ردهة الاستقبال في الفندق التقيا.

-لست وحدك من لم تنم جيّداً. حالي كحالك كذلك.

-كيف حال برلين؟

-كما هي، مدينة كلّ شيء، تناقضات العالم كلّه مجتمعةٌ فيها.

-لم أكن أعلم أنّك فيلسوف.

-معاشرة الفلاسفة يا صديقي..

قال أيمن قبل أن يستطرد:

-ومعاشرة نادية.

-هل ما زالت تطيق معاشرتك؟

-لمَ عساها لا تفعل؟ لست أريد منها أكثر ممّا تريد منّي، بعض السعادة فحسب.

قلبَ فريد شفته السفلى بحركةٍ تعبّر عن عدم اكتراثه ليستأنف أيمن:

-هي علاقةٌ لا تعرف الحدود ولا القواعد، علاقةٌ للمتعة والهدف منها هو المتعة ليس إلا، لا هراء عن الإخلاص والوفاء والالتزام، لا قيود فيها، علاقةٌ؛ كلٌّ منّا يحبّ فيها الآخر كما هو.. وبكلّ حريّة، ولو نظرت إلينا لوجدتنا نحبّ بعضنا أكثر ممّا يفعل معظم الأزواج، وحياتنا أكثر إثارةً من حياتهم المملّة وخلافاتهم التافهة. لا شيء يقتل انبهار العشّاق بمعشوقهم أكثر من الرابط السخيف المسمّى زواجاً، هذا الرابط الذي يصنع منهما مع الوقت أعداءً يتربّص كلٌّ منهما بالآخر. وما الحياة من دون انبهارٍ يوميٍّ يا صديقي؟ أعود مع نادية طفلاً في عمر السابعة، يبهرني كلّ شيءٍ كأنّني أعيشه للمرّة الأولى، علاقتنا هي لشحن طاقاتنا وقتل خيباتنا ثم الانصراف بسلام. لقد فكّرت في الزواج منها عشرات المرّات، ولكنّني متأكّدٌ أنّها ستكون نهاية حبّنا. إن كانت بعد لورا امرأةٌ أعادتني طفلاً بين ذراعيها فهي بالتأكيد نادية.

-لا أدري ما الذي يعجبك فيها، أقلّ زوجاتك جمالاً كانت أجمل منها، ولا أعتقد أنّك ترى في المرأة أكثر من جسدها وجمالها.

-أنت تظلمني، ليس الجمال هو وحده المهمّ يا صديقي، هناك ما هو أعمق، هناك الطعم والرائحة، هناك امرأةٌ تثير فيكَ حاسّةً أو حاسّتين، وهناك نساءٌ يشغلن كل جوارحك وحواسك.

-ها أنت تتحدّث مثل الكتّاب، لمَ أجبرتني على القدوم معك إلى لايبزيغ إذن؟

-لأنّني أخاف من التحدّث أمام الغرباء يا صاحبي.

-مع أنّك أوقح إنسانٌ قابلته في حياتي.

قال فريد فقهقه أيمن:

-يعجبني مزاحك. علينا اليوم إنهاء حفل التوقيع سريعاً، يجب عليّ العودة إلى برلين.

-تنتظرك هناك؟

-مَن؟ نادية؟ لا، بل امرأةٌ أخرى..

أجاب أيمن وانفجر ضاحكاً.

*****

دخل الرجلان عند السادسة إلى مركز المعارض وسط لايبزيغ ليستقبلهما الناشر السيّد (ألبيرت) وكان رجلاً في منتصف العمر، مربوعاً أصلعَ تبدو عليه سمات البلاهة والسذاجة، يرتدي قميصاً أرجوانياً قد رفع أكمامه حتّى عضديه؛ وبنطالاً رمادياً فضفاضاً قد اعتنى بكسرته بشكلٍ جيّد، معتمِراً قبعةً مسطّحةً رماديّة اللون كذلك.

-آه! ها أنت أيّها المحتال، مساء الخير.. مساء الخير

قال (ألبيرت) بعربيّةٍ رثّةٍ قبل أن يعانق أيمن، ثم اتّجه إلى فريد وعانقه هو الآخر بينما يهمس في أذنه:

-اشتقت إليك يا رجلنا الحكيم، ماذا حصل للحيتك؟ تبدو من دونها مثل (كانط).

تابع ألبيرت ممازحاً.

*****

في إحدى زوايا القاعة رقم ثلاثة جلس فريد وأيمن وألبيرت من اليمين إلى اليسار خلف طاولةٍ واطئةٍ تنتشر فوقها نسخٌ من الرواية الجديدة جاهزةً للتوقيع من قِبل أيمن. اجتمع أمام الطاولة عددٌ من الأشخاص لم يتجاوز عددهم الخمسة عشر في بداية الأمر، ثم ازداد العدد مع بداية المناقشة إلى ما يقارب الثلاثين شخصاً. وعلى عادته كان فريد يشيح بنظره كلّما لاحظ أنّ أحد المصوّرين يستعدّ لالتقاط صورة.

انتهت المناقشة عند السابعة والنصف ولم يبرح الرجال الثلاثة أماكنهم حتّى الثامنة والنصف. انشغل ألبيرت وفريد بأحاديث جانبيّةٍ بينما كان أيمن ينشغل بين الحين والآخر بتوقيع الروايات وكتابة الإهداءات بخطّ يده الرثّ الذي كان بالكاد يُقرَأ، ويتخيّر الجميلات من القارئات ليتبادل معهنّ الحوارات ويلقي لهنّ نكاته المكرّرة السمجة. وفي النهاية حضر المنتج التلفزيونيّ أخيراً وتبادل الرجال الأربعة بعض الكلمات المبتذلة لربع ساعة.

افترق فريد وأيمن في مرآب السيّارات، وكانت زخّات مطريّةٌ تنذر بليلةٍ غير هادئة. دخل فريد إلى سيارته، مسح رذاذ الماء عن وجهه وبدأ

يتفحّص هاتفه. كاد يقفز من مكانه عندما فُتح باب السيارة اليمينيّ وصعدت امرأةٌ ترتدي معطفَ كشمير أسود طويلاً، وتغطّي عنقها ورأسها بشالٍ أسود.

-المعذرة من أنتِ؟

تلعثم فريد بالألمانيّة بذعرٍ مكلّماً المرأة التي لم تنظر إليه بعد.

-عشرون عاماً يا لواي..

قالت السيّدة ونظرت في عينيه فعرفها. كانت قد تغيّرت كثيراً، اختفت ملامحها البسيطة البريئة تحت تجاعيد تخبر أنّ السنوات العشرين لم تكن نزهةً لطيفةً بالنسبة إليها هي الأخرى، وقد بدا أنّ عينيها قد غاصتا في جمجمتها أكثر فأكثر، إلّا أنّ جمالاً غريباً كان ينطلق من وجهها، ليس بالجمال الذي يستطيع الإنسان وصفه بالكلمات، بل هو شيءٌ أعمق من ذلك، وقد عرف فريد في ذلك الوجه ملامح دافيد، وأكثر منها ملامح جدّتها سوزان. مرّرت يدها على شعرها البرتقاليّ الخشن المربوط إلى الخلف والذي كان يبدو ككتلةٍ واحدةٍ وقد شحب لونه ممّا أضفى على إطلالتها وقاراً وهيبة.

-ما لك لا تتكلم؟ أم أنّك لم تعرفني؟

-كيف لا؟

قال متشبّثاً بمقود السيّارة وناظراً إلى الأمام.

عدّلت هانّا نظارتها بسبابتها وتابعت صمتها.

-كيف حالك؟

سأل فريد.

-أفضل من حالك بكلّ تأكيد

أجابت بجلافة.

-هل تعرفين شيئاً عن حالي لكي تقولي هذا؟

-يكفيني ما عرفته اليوم، ما زلت ملازماً لمن وصفته ذات يومٍ بالأنانيّة والتعجرف، وأنّك تكاد لا تطيق مشاركتك الشقّة معه. وإذا بي أراكما اليوم -بعد عشرين عاماً- صديقين حميمين، لا تقل لي أنّك احتملته رغماً عنك لعشرين عاماً.

-ما أدراكِ، قد تكون السنوات غيّرته

قال واستدار نحوها ثم تابع:

-كما غيّرت الكثير من الأشياء!

اشتدّت الأمطار وصارت تضرب زجاج السيّارة الأمامي حتّى حجبت الخارج تماماً.

-منذ وقعت يدي على روايته الأولى مصادفةً وأنا أعلم أنّه ليس كاتبها، وعرفت أنّك أنت الكاتب.

ارتبك بشدّةٍ ثم قال لها:

-ما رأيك أن نتناول العشاء معاً؟ أنا جائع، إن لم تمانعي.

-أيّ شيءٍ عدا (الكيت فورست).

*****

قاد فريد سيارته ببطءٍ لنصف ساعةٍ باحثاً عن مطعمٍ؛ والصمت سائدٌ بينهما، وكان في هذا الوقت غارقاً في أفكاره يستحضر ليلتهما في برلين بينما بدا توتّر هانّا جليّاً له.

اهتدى أخيراً إلى مطعمٍ صغيرٍ شرقيّ المدينة، دخلا معاً وجلست هانّا قبالته بعد أن نزعت معطفها وكانت ترتدي قميصاً بوهيميّاً طويلاً

مزخرفاً بالأخضر والأحمر، وبنطالاً قماشياً فضفاضاً بنّي اللون. ما إن جلست حتّى بدأت تتلفّت حولها، ويبدو عليها القلق.

-لمَ تبدين مرتبكةً هكذا؟ هل كانت فكرة تناول الطعام سيّئة؟

-لا، لا علاقة لدعوتك لي لتناول الطعام بهذا، لم آتِ لآكل على كلّ حال، بل لأجد أجوبةً عن أسئلتي التي تحمّلت عناء السفر إلى هنا من أجلها.

-آه، لقد ظننتُ أنّك تقطنين في لايبزيغ. حسناً.. تفضلي!

وضعت هانّا يدها حول عنقها ونظرت نحو الأعلى وتنهّدت:

-أنت الكاتب، صحيح؟

-هل يفيدني الإنكار؟

-كلّا، أعرف أنّك الكاتب، ولكنّه تمهيدٌ للأسئلة القادمة، وإن كنتُ قد استطعت خلال الأشهر الماضية تحليل كلّ شيءٍ بالفعل.

-ألن نتحدث قليلاً عن حياتنا؟ هل تزوّجت؟ أنجبتِ أطفالاً؟ كيف حال والديك؟

-كلّ هذا ليس مهمّاً يا لواي. آه صحيح، أنت تكره هذا الاسم! ألن تخبرني هذه المرّة باسمك الحقيقيّ؟

-ماذا تقصدين؟

سأل فريد مشدوهاً.

-اسمع، لقد قرأت روايتك الأولى التي طُبع اسم ذلك الحقير على غلافها، وقد استطعت ربط كلّ الأمور ببعضها، ويمكنني الآن أن أقول لك إنّني أثق تمام الثقة أنّها قصّتك، كل ما فيها قد جرى لك، ويؤسفني ذلك. لكن ما الذي يدفعك إلى شراكته؟ هذا ما لم أفهمه.. هل يبتزّك؟

-ليس تماماً.

-إذن ماذا؟

-أيمن قد تغيّر، لم يعد ذلك الشاب الطائش الذي كنتِ تعرفينه.

أصرّ على المراوغة وهو يشبك كفّيه على الطاولة بقوّةٍ وبالكاد يستطيع ضبط ارتجافهما.

-تغيّر؟! أنت تُضحكني، خذ هذه إذن: بعض من وشى بهم صديقك خرجوا من السجن معتوهين، ووالد لورا؛ لقد افترى عليه واتّهمه بمعارضة النظام الشيوعيّ وتعرّض الرجل للضرب والاعتقال لأيّام، فقط لأن لورا هجرته. وأنت، صدّقني لو لم يرَ فيك غنيمةً لما سلمتَ من شرّه. أنا واثقةٌ بأنّه الآن في مكانٍ ما يؤذي أحد البشر.

-هل تصدّقين إن قلت لكِ إنّني أكرهه؟

-لا تضحك على نفسك يا... لا تضحك على نفسك. أنت تختبئ خلفه لأنّك تريد أن تستمرّ في الاختباء.

بدأت الدموع تلمع في عيني فريد:

-لقد ألصق بي والدي تهمة قتل أختي، هذا هو القسم الأكثر حقيقيّة في القصة، وهو القسم الذي لم يُذكَر في الرواية. هل اكتملت الصورة الآن؟ فريد.. اسمي فريد.

قال وسالت دموعه أخيراً ثم تابع:

-هذا ما أردت أن أخبرك به قبل أكثر من عشرين عاماً، وليتني فعلت حينها.

-ليتك فعلتَ يا فريد.

قالت هانّا وهي تزمّ شفتيها وتهزّ برأسها قبل أن تستأنف:

-ليتك أخبرتني أنّك تتستّر على جريمة قتل، وقتل مَن! قتل أختك! ليتك أخبرتني، لم أكن لأتذكّر تلك الليلة لسنوات، حتّى بعد أن تزوّجتُ وأنجبتُ أطفالاً. بالمناسبة، لديّ طفلٌ وطفلة.

تابع فريد بكاءه فتدخّل النادل:

-ماذا تودّون أن تأكلوا يا سيّدتي؟

-لن نأكل شيئاً

أجابت هانّا ومدّت للنادل ورقةً من فئة العشرة يورو قبل أن تنهض.

تبعها فريد سريعاً نحو الخارج حيث كانت تقف على الرصيف تزرّر معطفها.

-هانّا. أرجوك!

مشيا معاً صامتَين وكان المطر قد توقّف بعد أن مُلئت الشوارع بالمياه. ثم كسر فريد الصمت:

-كيف حال عائلتك؟

-بخير.. انفصلتُ عن زوجي قبل عدّة سنوات بعد أن سأم منّي.

-لمَ؟

-أعاني من اضطراب القلق واكتئابٍ حادٍّ منذ زمنٍ بعيد، وقد حاولت الانتحار عدّة مرّات، كانت محاولاتٌ خجولةٌ وغير واثقة، إذ كنت في كل مرّةٍ أعزم فيها على إنهاء حياتي، أرغب في أعماقي بمواصلة الحياة. كنتُ اسأل نفسي في آخر اللحظات عن السبب الذي يدفعني لاختيار الانتحار، فلا أجده. وها أنا اليوم أعيش كيفما اتفق، وسأختار الموت بمجرّد أن أجد ما يستحقّ الموت لأجله.

-يؤسفني ذلك..

-وكان مرضي سبباً لخسارتي أطفالي، يعيشون مع والدهم بعيداً عنّي عدّة أمتار، لكنّه يعاملهم بكلّ حبّ وأنا ألتقي بهم كلّ يوم.

-أكلّ هذا حصل في هذه السنين؟

-أتدري من سيسعد إن علمَ بقصّتك مع أيمن؟

بدّلت هانّا الحديث.

-من؟

-لورا.

-لورا؟!

-تعمل كصحافيّة في النمسا، سيكون خبرٌ كهذا ضربة العمر بالنسبة إليها.

-لن تخبريها بالأمر. أليس كذلك؟

-ومن قال لكَ أنّها لا تعلم؟ لقد تحدّثنا حول هذا عندما قامت بزيارتي قبل عدّة أشهرٍ في هامبورغ وعرضتُ الكتاب عليها. تصوّر أنّها كانت تعلم بشهرة أيمن وسمعت عنه، ولكنّها كانت تتملّص من التكلّم عنه، أو التفكير فيه.

-ما زال يبحث عنها.

-أتمنّى ألّا يجدها، لكيلا نسمع خبر مقتل الكاتب المزيّف في الإذاعات وشاشات التلفزة فيزداد شهرة.

-لم أكن أعلم أنّه صنع هذا بوالدها.

-ولو علمتَ ماذا كنت ستفعل؟

سألت هانّا وتوقّفت عن المشي وهي تضع يديها في جيبَي معطفها.

صمت فريد ولم يجب فتابعت هانّا:

-والآن، عليّ العودة إلى النُزل.

-اسمحي لي بإيصالك على الأقل!

نظرت إليه، نظرت حولها ثم هزّت برأسها موافقة.

*****

كانت تشير بيدها إلى الاتّجاهات طوال الطريق بينما تاهت الكلمات على لسان فريد. وصلا عند العاشرة وعشر دقائق، نظرت هانّا إلى فريد وهزّت رأسها بحركةٍ تعبّر عن شكرها له لإيصالها.

-هانّا..

نظرت إليه منتظرةً أن يكمل.

-لا أدري ما عليّ أن أقول، لك الحقّ في أن تشعري تجاهي بمشاعر الكره، لكنّني لست شريراً!

-تحاول منذ البداية أن تكون الملاك في هذه اللعبة وسط الشياطين، ربّما لستَ أكبرهم، لكنّك واحدٌ منهم بالتأكيد. بالمناسبة، ألم تتزوّج؟

-لا.

-ولم تحبّ؟

فكّر فريد للحظةٍ بصوفيا التي كانت قد وصلت إلى ألمانيا في ذلك اليوم وأجاب سريعاً:

-لا.

-كم هي محظوظةٌ صاحبة القصيدة، أتذكرها؟ تلك التي صرخ لأجلها كلّ شيء: "لمَ لستِ هنا"، كم هي محظوظة، وكم هي تعيسة ليحبّها رجلٌ مثلك. بالمناسبة، أين هي محفظة التبغ الخاصّة بجدّي؟

-في بيتي، في دوسلدورف.

أجاب فريد واستحى أن يخبرها بأنّه قد أضاعها قبل سنواتٍ طويلة.

همّت هانّا بالنزول من السيارة بينما يراقبها فريد قبل أن تتراجع:

-لم أعتد أن أخلف بوعودي أمام نفسي، لقد وعدتُ نفسي منذ تلك الليلة أن أحقّق ما لم أجرؤ على فعله حينها، وهو أن أقبّلك، اعذر عجزي اليوم، ولأعتذر إلى نفسي...

قالت وبدأت تبحث في حقيبتها الصغيرة عن شيءٍ ما، أخرجت بطاقةً بريديّةً وكتبت عليها مستندةً إلى غطاء محرّك السيّارة: "لايبزيغ- 14-03-2008" قبل أن تسحب أحمر الشفاه من الحقيبة، استخدمته على شفتيها ثم طبعت قبلةً على البطاقة، أعطته إيّاها ثم مضت.

*****

لم يحتمل فريد ليلةً أخرى في لايبزيغ.

بعد أن افترق عن هانّا عاد إلى الفندق، حزم أمتعته وقفل راجعاً إلى دوسلدورف التي وصل إليها عند الرابعة والنصف صباحاً. قاد على الطريق السريع بسرعةٍ جنونيّةٍ بينما يبكي ويبكي، وكأنّه يريد تعويض سنوات الجفاف في عينيه، قسوة القلب وتصلّب المشاعر. ارتمى من فوره على سريره وغطّ في نومٍ عميق.

*****

جاءت نايا بفستانها الخمري ذي الأكمام القصيرة، تُمسك يد لمى وتمشيان معاً نحو سريره. أيقظته وهي تصرخ: "هل قتلتها؟ أخبرني!"

بينما يحاول هو تجنّب صفعاتها، ولمى واقفةٌ بقربها والدماء تغطّيها. أحكمَ فريد قبضتيه على معصميها وجرّها إلى المكتبة، بدأ يسحب الكتب التي كتبها ويضربها بها على وجهها، ثم بدأ ينزع الشهادات الجامعيّة المعلّقة على الجدران ويكسّر إطاراتها الزجاجيّة على رأسها حتّى سقطت مغشيّاً عليها. دخلت لورا من باب الغرفة تبكي وتضرب على وجهها، نهض فريد عن جثة نايا ليعانق لورا وهي تخبره بموت أيمن.

*****

فتح عينيه عند الثامنة والنصف وراح يحملق في سقف الغرفة. أمسك بالبطاقة البريديّة التي أعطته إيّاها هانّا وراح يفكّر في كميّة احتقارها له، إذ لم تطبع قبلتها تلك على وجهه، بل على قطعةٍ من الورق المقوّى. أمسك هاتفه ليجد العديد من الاتّصالات الفائتة، بعضها من صوفيا وأكثرها من أيمن. اتّصل بصوفيا فردّت على الفور:

-صباح الخير يا عزيزي! لقد اشتقتُ إليك! هل أنت في المنزل؟ سأوافيك حالاً.

-لا يا صوفي، أشعر اليوم ببعض التعب وأرغب في البقاء وحدي.

أغلق الخط ثم دفن رأسه في الوسادة. أمسك هاتفه مجدّداً بعد دقائق وطلب رقم الدكتور فوزي:

-صديقي العزيز! لقد مرّ زمنٌ طويل. كيف حالك؟

قال الدكتور.

-لستُ بحالٍ جيّدة يا دكتور، أحتاج إلى رؤيتك في أسرع وقتٍ ممكن.

-حسناً، نلتقي بعد ساعتين عندي في المنزل.

فضّل فريد الذهاب إلى منزل الدكتور فوزي مشياً على قدميه، وهو أمرٌ لم يفعله منذ فراقه لـ(روكي)، أي منذ ثلاثة أسابيع. كان فريد قد اشترى شقّته في منطقة (أوبا كاسل) في دوسلدورف قبل ستّة أعوام، بينما كان الدكتور فوزي يقطن في منطقة (فريدريش شتاد) على الضفّة الأخرى من نهر الراين الذي يقطع المدينة ويقسمها إلى قسمين، أي أنّ الطريق مشياً لن يستغرق أقلّ من ساعةٍ كاملة.

بعد عشر دقائق من المشي بدأ يشعر بإعياء غريبٍ وضيقٍ في الصدر، ولكنّه أكمل طريقه على مهلٍ وأخذ استراحاتٍ حتّى وصل بعد ساعةٍ ونصف إلى منزل الدكتور فوزي الذي كان يسكن شقّةً في الطابق الثالث في بناءٍ قديمٍ قد تمّ ترميمه مؤخراً.

-صديقي الدكتور فريد.. "ازيّك، عامل إيه؟".

سأل الدكتور فوزي زائرَه بلهجته المصريّة المحبّبة وهو يدعوه إلى الدخول.

-هذا الدرج قد قطع أنفاسي.

قال فريد وهو يلهث.

أعدّ المضيف الشاي لفريد بينما يتلقّت هذا الأخير حوله ويقول:

-لقد تغيّر هذا المنزل كثيراً.

-كم سنة مرّت؟

سأل الدكتور فوزي.

-ستّة أعوام.

-أجل، ليس المنزل وحده الذي تغيّر..

همهم الدكتور فوزي.

-كيف حالك؟

سأل فريد.

-أنتَ من قصدتني اليوم، فحريٌّ بي أنا أن أسألك. لقد تقاعدتُ قبل ثلاثة سنوات ومنذ ذلك الحين أصبحت حياتي عبارةٌ عن حلقاتٍ طويلةٍ ومتكرّرةٍ من الملل. لكنّني اعتدت هذا الحال. أستطيع أن أحكي لك عن الملل لساعات، لكنّني اليوم لا أستطيع قول كلمةٍ واحدةٍ عن السبيل للخروج منه. أخبرني يا صديقي، ما خطبك اليوم؟

-انتكاسةٌ قوّية.

قصّ فريد على طبيبه النفسي السابق ما جرى خلال السنوات الستّ الماضية ثم أخبره بما حصل خلال الأيام القليلة السابقة لزيارته.

-هل تطلب منّي الآن رأيي كوني طبيباً نفسيّاً؟

-لا أدري.

-على كلّ حال، أنا لست طبيباً اليوم، وهذا يعطيني صلاحياتٍ وامتيازاتٍ لم أكن أمتلكها في أثناء مزاولتي المهنة. دعنا نتحدّث كأصدقاء، وباعتباري لست طبيبك الآن فهذا يسحب مني الحقّ بالمقابل في الاعتماد على ما أخبرتني به في جلساتنا العلاجيّة الطويلة، فأنا اليوم قد نسيت كلّ أسرار مرضاي احتراماً لهم ولها. هل داهمك الماضي بشكلٍ أو بآخر مجدّداً؟

-هو لم يتركني يوماً، لكنّني نجحت لفترةٍ طويلةٍ بكتم ذلك الصوت، ودفنه ومحاربته بالأدوية والصبر. وقد قرّرت قبل عدّة أيامٍ فقط منح نفسي فرصةً في الحبّ، فوصلني الخبر بأن أبي يحتضر، ثم باغتتني عودة هانّا، صديقتي القديمة، والتي كانت موجعة بكلّ معنى الكلمة. لا

أدري أيّ قدرٍ هذا ولمَ عليّ السقوط دائماً إلى أسفل الوادي ثم تكبّد عناء الصعود، مثل سيزيف!

-ولمَ تعنيك عودتها؟

-تعنيني لكونها قد أعادتني إلى مقارنة نفسي بنفسي، مقارنة لؤي بفريد، أعادتني إلى السؤال الأزلي، من أنا؟

-للأسف، أنتَ وأنا وجميع البشر عبارةٌ عن كتلٍ كبيرةٍ معجونةٍ من ذكرياتنا ومجبولةٍ بآلامها، وهذا ما لن يخبرك به أيّ طبيبٍ نفسي. أنت تهرب، وهذه مشكلتك منذ البداية، لم تجرّب المواجهة، تُساير التيار وتمشي معه رغم أنفك، لقد وضعت نفسك تحت طاحونة الحياة الغربيّة، ورميت بنفسك في آلة سحق الأجساد الرأسماليّة الخاصّة بها، والتي لا ترحم. أنا أُمضي معظم أيّامي في مصر، ولا آتي إلى هنا إلّا لزيارة الأصدقاء. يبدو أنّك أتيت إليّ لتحكي لي، فإذا بي أغرقك بأحاديثي، لقد اعتدتُ لسنواتٍ أن أستمع للناس، فتحوّلت بعد تقاعدي تدريجيّاً إلى مستمعٍ سيء. أخبرني أكثر عن حبّك الجديد، كيف تراها؟

-صوفيا، زميلتي، لسنواتٍ طويلة كنت أراها امرأةً تثير الشفقة والازدراء معاً، ضحيّة في كلّ الأوقات، مسكينة لا تملك لنفسها شيئاً. لم يكن عدم اكتراثي بها شخصيّاً، بل كان نابعاً من عدم اكتراثي بالنساء ككلّ. اليوم لا أشعر باكتراثٍ تجاه النساء، لكنّني أشعر بانجذابٍ إلى صوفيا، ربّما لأنّها أحيَت فيَّ ما ظننتُ أنّه مات قبل سنوات؛ رغبتي في الحبّ. ثم خبر مرض أبي الذي أحيا فيَّ كرهه، ثم عادت هانّا، وأحيت شيئاً آخراً؛ كرهي لنفسي. فكيف أحبّ صوفيا إن كنتُ عاجزاً عن حبّي لنفسي؟! هذا ما يؤرقني الآن.

-ألن يحزنك موت والدك؟

سأل الدكتور فوزي.

-أبداً، هو أمرٌ لا يعنيني على الإطلاق.

-وهل تعنيكَ صوفيا؟

-بالطبع! هتف فريد من دون تردّد.

-ممم..

نظر الدكتور فوزي إلى فريد نظرةً غريبةً ملؤها التساؤل والشكّ، قبل أن يقول له وهو يحدّق في عينيه:

-تَزوّجْها إذن.

-بهذه البساطة؟!

-إن لم تتزوّجْها بهذه البساطة فلا تحدّثني عن الحبّ؛ قال الدكتور فوزي، وهو يتناول كوب الشاي ويقرّبه من فمه.

-أخشى عليها وعلى نفسي!

-من ماذا؟

-لا أدري.

-تزوّجْها فحسب، وبهذه البساطة وأكثر، لا أتعس من عيش المرء وحيداً بين جدرانٍ أربعة، بالطبع سينال منه الماضي ألف مرّةٍ كلّ يوم، إذ إنّ الفراغ يملأ حاضره.

كان الدكتور فوزي قد تغيّر كثيراً، كبر، وهرِمَ، وبدا غير آبهٍ بشيء، وكأنّه ندم بعد أن دعا فريد إلى منزله، وأراد إنهاء الحديث بأيّ طريقة، لكنّه استأنف مجدّداً:

-لا أعتقد أنّك هنا لأخبرك بما يتوجّب عليك فعله، أنتَ قد تمتلك حلولاً لمشكلات حياتي كلّها. تعامل مع مشكلاتك وكأنّها ليست

مشكلاتك، وتصرّف على هذا الأساس، فنحن غالباً نهوّل الأمور التي تخصّنا، ونحتقر ما يواجهه غيرنا.

استأذن فريد من الدكتور ليدخّن سيجارةً فسمح له بالتدخين في مكانه.

-هل لي أن أطلب منك طلباً يا دكتور؟

-تفضّل، بالطبع.

-هل لك أن تحكي لي أنتَ عن حياتك؟

صمت الدكتور فوزي مطوّلاً قبل أن يسند ظهره إلى الكرسي وينظر إلى أعلى وهو يسحب شهيقاً عميقاً، ثم قال:

-حسناً.. لقد توفيت زوجتي قبل عشرة أشهر.

-يؤسفني هذا، رحمها الله. قال فريد وفكّر في أمّه، في خالته، وفي دافيد.

-لقد خلّفت وراءها فراغاً كبيراً في حياتي، لهذا تراني أتنقّل من مكانٍ إلى آخر لكي لا أفكّر، أشغل نفسي بالحركة كي لا تباغتني ذكراها. أنا من كنت أساعد الناس في تجاوز صدماتهم والتعامل مع مآسيهم، وقفت عاجزاً أمام مأساتي الخاصّة.

-اعذرني، ولكنّ احتمالية أن أتعرّض لحزنٍ كهذا أمرٌ يصرفني عن التفكير في الزواج أيضاً.

-على العكس يا صديقي، أنا ممتنٌّ لها لتعرّفي إليها ولكلّ دقيقةٍ أمضيتها معها. كانت معنى حياتي ودافعي فيها. عندما أشتاق إليها أجد مخزوناً كبيراً من اللحظات الجميلة التي أستذكرها، بدأتُ في الآونة الأخيرة أنسى تفاصيل كثيرة، الشيخوخة حتّت خطاها في روحي بعد موتها، ورعبي الأكبر اليوم هو أن أفقد هذه الذاكرة الملوّنة وأصير

صفحةً بيضاء لن يسمح لها الموت بأن تمتلئ من جديد. لا تخشَ من الحزن لفقدان شخصٍ عزيز، بل اخشَ ألّا يكون لديك واحداً.

*****

خرج فريد بعد ساعةٍ ونصف من منزل الدكتور فوزي، اتّصل بصوفيا وطلب لقاءها على الفور. قرّر المضيّ قدماً إلى اللاعودة. في المكان الموعود سألها: "أتتزوّجينني؟".

توجّه بها إلى مسجدٍ قريبٍ وطلب منها أن تقول نعم فحسب. عقد الإمام قِرانهما، ثم دعاها فريد إلى جولةٍ على نهر الراين، كانت فرحته عارمة، نوعٌ من السعادة لم يختبره من قبل، كان يمسك يدها ويسترق النظر إليها بخجلٍ كمراهقٍ لم يعهد في حياته إلّا لمسة والدته. تناولا الطعام في أحد المطاعم التي تقدّم مأكولاتٍ بحريّة، قبّل يدها وقال: "أريد أن أمضي هذا العمر بجانبك!".

لم يكن يوماً عادياً في حياة رجلٍ أربعينيٍّ اعتاد الملل، بل كان يوماً هارباً من عالمٍ آخر لم تطأه قدماه ولم يقدر على تخيّله حتّى.

*****

الساعة قد تجاوزت العاشرة مساءً. كانت السماء تغنّي والأرض ترقص، حتى أصوات عرير الصراصير ونقيق الضفادع داعبت مسامعه بلطفٍ كأنّها أوركسترا متناسقة، صوت الماء كان كالكورال، وصوت الأمواج التي تضرب الضفّة كالكمان يعزف منفرداً كونشيرتو عذبة،

بينما تداعب الريح الباردة وجنتيه وتدفع الدمع المحتقن في عينيه إلى الخارج. ذاب في كل ما هو حوله ونسي من هو، كما ذابت يد صوفيا في يده، كأنّما هما كونٌ واحد كان منقسماً فالتحم. لقد كانت تلك الليلة بداية فصلٍ جديدٍ في حياة فريد، بل إن صحّ التعبير، كانت بداية حياته.

*****

دخلا معاً إلى منزله وتوجّها على الفور إلى غرفة النوم:

-أعتذر، لم أرتّب السرير قبل خروجي.

-لا عليكَ يا عزيزي.

قالت صوفيا بحبّ.

جلس فريد على الأريكة في زاوية الغرفة يراقب زوجته التي كانت تخلع معطفها المبلّل، قبل أن يدفعه الخجل للذهاب إلى الحمام. غسل وجهه ونظر في المرآة وسأل نفسه كيف تغيّرت ملامحه بهذا الشكل! لقد كان يتبسّم كما لم يفعل منذ أكثر من اثنين وعشرين عاماً.

استجمع قواه وقرّر العودة إليها ليجدها في المطبخ تعدّ الشاي.

-أعرف أنّك تحبّ الشاي الأخضر.

-لا وقت له الآن، تعالي معي..

سحبها من يدها إلى غرفة النوم.

قبّلها لوقتٍ طويل، وهو ينظر في عينيها، بينما هي تغمضهما وتبادله القبلات، كان ينظر إلى وجهها وهي تتأوّه تحت جسده، شعر بأنفاسها الساخنة على جلده وهي تضمّه إليها أكثر فأكثر. لم يستغرق وقتاً طويلاً حتّى بلغ النشوة، إلّا أنّ الشعور أثار استغرابه، إذ لم يشعر بأيّ متعة،

بل على العكس تماماً، ابتعد عن صوفيا من دون أن يشعرها بالأمر وأحسّ برغبةٍ كبيرةٍ في التقيؤ. لم تكد أنفاسه تهدأ حتّى رنّ هاتفه، نظر فريد إلى شاشة الهاتف، وقرأ اسم (أبو عدنان) فرمى بالهاتف جانباً.

-ألا تريد الردّ يا لواي؟

قالت صوفيا التي كانت لا تزال عاريةً بقربه.

-كلّا. أجاب بحزمٍ، وأطال النظر إليها مستغرباً، ثم شدّ على يدها بقوّةٍ وابتذل ابتسامةً قصيرة.

*****

في كابوس تلك الليلة كان (الحجّي) مسجّى على مغسلة الموتى، وكانت صوفيا تغسل جثته وهي عارية، وكان فريد يجلس على الأرض في زاوية الحجرة يسحب من حلقه شَعراً طويلاً، يسحب ويسحب ولا ينتهي، وعندما فقد آماله وقبل أن يشعر أنّه على وشك الاختناق قام إلى صوفيا وخنقها حتّى الموت.

استفاق مذعوراً وذعرت صوفيا معه، حاولت تهدئته وإعادته إلى النوم، لكنّه عجز عن إغماض عينيه، فغادر الغرفة واتّصل بـ(أبو عدنان) من دون جدوى. كانت الساعة بحدود الثالثة ليلاً.

خرجت صوفيا إلى غرفة المعيشة عند الرابعة والنصف، اقتربت منه نصف عاريةٍ وراحت تمسّد شعره:

-بماذا تشعر يا حبيبي؟

-بألمٍ شديدٍ في رأسي، لا عليك، نوبات الصداع هذه تزورني بين الفينة والأخرى.

أجابها وتناول علبة السجائر.

-سأجلب لكَ حبوباً مسكّنة

قالت قبل أن تقفز إلى غرفة النوم كغزالٍ رشيق.

عادت بعد ثوانٍ، وقفت بعيداً عنه، وكانت قد سترت جسدها بصرامة، وراحت تلوّح بيدها -زامّةً شفتيها، مقطّبةً حاجبيها- بالبطاقة البريديّة الخاصّة بهانّا.

ابتلع فريد ريقه وأطفأ السيجارة في المنفضة قبل أن يعدّل جلسته.

-كنت أعلم أنّ المتّصل كان امرأة، شيءٌ ما في داخلي أخبرني بأنّها امرأةٌ لا تريد الردّ عليها أمامي.

-الأمر ليس كذلك. قال فريد، وأنزل نظره إلى الأرض.

فصرخت صوفيا:

-بالأمس فقط! قبل يومٍ واحد كنت معها في لايبزيغ؟ كيف سمحت لنفسك بخداعي بهذه الطريقة؟ كيف كنتُ غبيّةً إلى هذا الحدّ؟!

هرعت راكضةً إلى طاولة الطعام وعادت حاملةً ورقة عقد القران:

-أليس هذا ما أسميته عقد زواجنا؟

صرخت وراحت تمزق الورقة بهستيريّة وهي تصرخ:

-كيف صدّقتُ أنّ رجلاً في هذا العالم يمكن أن يستحقّ الحبّ! كيف لم أتعلّم من كلّ تلك التجارب؟ لقد كنتَ آخر آمالي في هذا العالم! تبّاً لك! تبّاً لك ألف مرّة!

تابعت صراخها وهي تركض إلى غرفة النوم لترتدي ملابسها، وعادت إليه قبل مغادرة المنزل بينما هو يدخّن:

-كم أحتقر نفسي! ليتني أجتثّ أحشائي لأخرج سوائلك من داخلي وأبصقها في عينيك، كم أتمنّى لو أتبوّلها فوق وجهك أيّها السافل.

بصقت قبل أن تصفق خلفها باب الشقّة.

لم يحرّك فريد ساكناً، تصلّب في مكانه، وكأنّه جمادٌ لا يختلف عن كلّ ما يحيط به في المنزل، رفع رأسه ونظر حوله، شعر بوحشةٍ غريبةٍ، بدا له منزله بارداً ومظلماً ومهجوراً كمقبرةٍ في منتصف ليلةٍ كانونيّة ابتلعت غيومُها القمر. رنّ هاتفه، كان أبا عدنان.

*****

-سيّد فريد؟

-نعم. قال فريد بصوتٍ خافت.

-البقيّة بحياتك، توفّي الوالد صباح الأمس.

لم ينبس فريد ببنت شفة فتابع أبو عدنان:

-تمّ الدفن البارحة، دفنتُه وحدي، لقد كانت أيّامه الأخيرة صعبةً جداً، قامت الدولة بمصادرة جميع ممتلكاته قبل شهرين. والدّائنون لا ينفكّون يطرقون بابه صباح مساء لاسترجاع أموالهم، والقضايا ضدّه في المحاكم لا حصر لها، ولهذا اتّصلتُ بك قبل يومين، علّك ترسل بعض المال لكي أقوم...

أغلق فريد الخطّ، وراح يضحك ويضحك ويقهقه، قبل أن يأخذ بالبكاء، وهو يشدّ شعره بكلتا يديه. أمضى في بكائه ساعتين، ثمّ قرّر التوجّه إلى غرفة النوم، كان السرير لا يزال غير مرتّبٍ ويعبق برائحة جسد صوفيا. رمى في فمه ثلاث أقراصٍ من الفاليوم وارتمى على السرير.

نام لست عشرة ساعة، قبل أن يستيقظ، ويقرّر النزول لشراء السجائر والكحول، عاد متهالكاً إلى شقّته يجرّ نفسه جرّاً، وصعد الدرج

الذي قطع أنفاسه، شرب الزجاجة الأولى والثانية، ثم الثالثة وفتح الرابعة. بدأت الأشياء من حوله تفقد حدّتها، وبدت الألوان تفقد زهوّها، كان كلّ شيء يتّجه ليصبح رماديّاً شيئاً فشيئاً. نظر إلى شهاداته المعلّقة على الجدار، رآها تتهالك ساقطةً واحدةً تلوَ الأخرى، فرك عينيه بقوّةٍ فرآها لا تزال معلّقةً في مكانها، نهض وبدأ يُسقطها على الأرض بسبّابته واحدة تلو الأخرى، ثمّ عاد إلى مقعده مترنّحاً، جلس لدقائق يتأمّل الجدار الأبيض الخالي مبتسماً بنشوة، قبل أن يُفرغ ما تبقّى من الزجاجة الرابعة في فمه، نهض إلى مشغّل الموسيقى وأدخل شريط السيمفونية الثانية لـ(غوستاف مالر) المسمّاة (البعث)، عاد إلى الأريكة، تناول الزجاجة ورفعها ونادى: "بصحّة الحجّي.. الإله الميّت".

*****

طرقَ رئيس المحكمة طرقتين على الطاولة العريضة أمامه واستأنف:

-الجلسة الآن للنطق بالحكم.. باسم الشعب، بالتدقيق وبالإجماع وبالتمحيص والتدقيق وبعد سماع الشهود قرّرت المحكمة ما يلي:

أولاً: سقوط جناية القتل القصد المنسوبة إلى المتهم فريد النسر بحقّ المغدورة لمى النسر والحكم ببراءته وإطلاق سراحه فوراً ما لم يكن موقوفاً بجرمٍ آخر.

ثانياً: تجريم المتهم فريد النسر بالجنحة المذكورة في المادة ٢٢١ الفقرة "أ" من قانون العقوبات السوريّ ألا وهي: مساعدة الجاني على التواري عن وجه العدالة.

ثالثاً: ولكون الجاني من أصول المتّهم يستفيد المتهم فريد النسر من العذر المُحلّ للعقوبة المذكور في المادة ٢٢١ الفقرة "ب".

رابعاً: تسقط الدعوى العامّة بحقّ المُدعَى عليه موفّق النسر لثبوت حادثة الوفاة الواقعة بتاريخ الثالث عشر من آذار لعام ٢٠٠٨. قراراً وجاهياً قابلاً للطعن بطريق النقض. صدر علناً.

وبعد طرقةٍ أخرى تردّد صداها في أرجاء الصالة؛ انصرف الحضور بهدوء بمن فيهم (أبو دياب) ونايا ودافيد وهانّا وصوفيا. طفق فريد يصرخ من داخل قفصه منتحباً:

-لا إعدام؟ لا إعدام؟ العدالة أيّها القاضي!

وجعل يضرب قضبان القفص برجليه ويديه. اقترب شرطيان ضخمان، وفتحا باب القفص، وانقضّا عليه، بينما كان أبو عدنان وأمّ فريد لا يزالان واقفَين في مكانهما على منصة الشهود يحدّقان في فريد بصمت، وكان محامي الدفاع أيمن يحاول كتم ضحكاته الشامتة.

*****

الزجاجة الأخيرة كانت على الأرض متكسّرة. نهض وفرك عينيه وهز رأسه يميناً ويساراً بقوّةٍ قبل أن يتناول علبة سجائره ويفتح زجاجةً أخرى. كان يعتريه شعورٌ يشبه اغترابه عن ذاته وانفصاله عنها، كأنّه يراقب جسده من الخارج ولا يراقب محيطه من داخل جسده. شرع يتحسّس وجهه بأطراف أصابعه وينظر حوله مستغرباً، كما لو كان يرى بيته للمرّة الأولى، أو أنّ وعيه بكلّ ما يحيط به قد تمدّد بصورةٍ دراميّة، حتّى دقّات عقرب الساعة كانت بطيئةً وغير مألوفة. فقدَ ذاكرته لعدّة

ثوانٍ فشعر بقلقٍ رهيبٍ وهو يحاول استعادة وعيه واتّصاله بالواقع، شرب المزيد من الكحول حتّى لم يبقَ إلّا زجاجةً واحدةً من كل ما ابتاعه.

دُقّ الباب بعد عددٍ من الساعات لا يعرفه، كانت ساعاتٌ لم يشعر بها، تَحاملَ على نفسه لفتح الباب بصعوبةٍ قصوى. كان أيمن يقف أمام الباب، ويبدو كأنّ مصائب الكون قد ألمّت به:

-ما خطبك أنت الآخر؟

سأل أيمن.

دخل فريد فتبعه صاحبه:

-ما هذه الرائحة؟ هل عدت لشرب الكحول؟ ماذا جرى؟

رمى فريد بنفسه على الأريكة من دون أن ينظر إلى أيمن الذي جلس قبالته.

-يبدو أنّك أسرفت في الشرب، يجب أن تنظف البيت، رائحة الكحول والدخان يملآنه.

-اصمت

قال فريد بإرهاقٍ وهو يشعل سيجارة بينما تعزف موسيقى (مالر) في الخلفيّة، وتتكرّر منذ ساعات.

-يجب أن تسمعني. أنا حزينٌ جدّاً!

همهم أيمن بحسرة.

صرخ وهو يمسك رأسه بقوّة:

-اخرس..

-أنا جادٌّ يا رجل، لقد تعرّضت نادية لحادث سيرٍ بسببي، وهي الآن في المشفى.

رشف فريد رشفةً من الزجاجة قبل أن يقول:

-بالطبع بسببك، أنت أحد أضلاع مربّع الشرّ في حياتي..

تلعثم بهذه الكلمات بلسانٍ ثقيلٍ، وبدأ يستعيد ذكرياته شيئاً فشيئاً.

-ماذا تعني؟

-أبي.. أبو دياب.. أنت.. ولؤي..

ردّد فريد كأنّه يهذي وهو يجيل نظره في فضاء الغرفة الملبّدة بالدخان.

-يبدو أنّك بالغتَ في الشرب حقّاً، لكنّني بدوري أفضّل تدخين الماريجوانا في مزاجٍ كهذا.

قال أيمن وهو يهمّ بلفّ سيجارته بينما يراقبه فريد. تابع أيمن:

-أتذكر عندما أخبرتك في لايبزيغ أنّني عائدٌ إلى برلين للقاء امرأةٍ أخرى؟ كانت إحدى صديقات نادية، استطعت أن أستميلها في حفلٍ جمعنا معاً، ثم راهنتُ نادية على أنّني أستطيع أن أنام مع صديقتها التي لا تعرف بعلاقتنا، وراهنتها أنّها لن تتحمّل هول الأمر وستصيبها الغيرة. استهزأت بي وسخرت منّي، فدعوت صديقتها إلى أحد الفنادق ثمّ أرسلت العنوان لنادية لتأتي فوراً، فأتت ورأتنا وخرجت كالمجنونة تريد العودة فوراً إلى دوسلدورف، ثم تعرّضت على الطريق لذلك الحادث الذي قد يودي بحياتها.

بدأ فريد يهزّ رأسه ويتذكّر كلام هانّا عن أيمن بأنّه كان في ذلك الوقت بالتأكيد يقوم بإيذاء أحدهم:

-صدقت هانّا إذن..

دمدم فريد.

-ماذا قلت؟

اعتدل أيمن في جلسته.

-التقيت بهانّا في لايبزيغ، لقد عرفت عنّا كل شيء، لستَ الكاتب بعد اليوم يا صديقي، ثم إنّ الوحش قد مات.

قال فريد، ونظر في عينيّ أيمن مباشرةً.

-أنتَ تهذي.

-بلى.. بلى، لقد التقيتُ بها، وكانت في المعرض، وأهدتني بطاقةً موقّعةً بشفتيها. شفتاها اللتان خسرتهما بسببك أيضاً كما ستخسر نادية حياتها. وبلى.. الوحش مات. هل ترى هذه الزجاجة وشظاياها على الأرض؟ هذه كانت نخبه ونخب موته، لقد انكشف كلّ شيء، وهل تدري من سينشر الأمر؟ لورا.

-ماذا تقول؟ هل تعرف مكانها؟

-أجل، أخبرتني هانّا، ولكنّني لن أخبرك بالتأكيد.

-أرجوك يا أخي! أخبرني أرجوك..

نهض أيمن.

-اجلسْ، لن أفعل. إلى هنا تنتهي شراكتنا، لن أرضى إلّا أن أكون بطل الرواية اليوم.

-أنت بطل الرواية؟

قال أيمن مقهقهاً قبل أن يستطرد ويعاود الجلوس:

-أنت يا صديقي تجيد الكلام، تجيد تركيب الكلام وكتابته على الورق، ولكنّ الأفعال ليست لك، الأفعال تحتاج إلى القوّة، والقوّة هي آخر ما تملكه أنت.

قال وهو يلوّح بسيجارة القنّب في يده.

تراءى سليم لفريد، سليم الطفل الذي يجلس على الرصيف منتظراً فريداً ليضربه، ويُشعره بضعفه وعجزه عن مقاومته وحماية نفسه،

وبدأت تتردّد في رأسه كلماتٌ قديمة: "لا تخف يا فريد، قد تشعر ببعض الإعياء لأنّها المرة الأولى"، "هذا ليس تأثير الحشيش عليك، بل هي الحقيقة".. "أريد روايتك"، "أنت لا أحد! ليس لك وجود!"، "قد ينفعك أن تعيش في ظل أحدهم!"

اقترب أيمن من فريد ومدّ يده ليأخذ الزجاجة الأخيرة المتبقّية من أمامه، فأمسك فريد معصم صاحبه بقوّة: "اترك زجاجتي!"، صرخ فيه فاستشاط أيمن وحاول أخذ الزجاجة بيده اليسرى فضربها فريد بقوّةٍ مُبعداً إيّاها قبل أن ينهض ويلكمه ويرميه أيضاً وهو يصرخ: "قلت لك اترك زجاجتي".

-أتضربني يا ابن العاهرة!

قال أيمن محاولاً النهوض فما كان من فريد إلّا أن تناول الزجاجة المكسورة المرميّة أرضاً ونزل بها على رأس أيمن قبل أن ينهال عليه طعناً في بطنه طعناتٍ كثيرة.

نهض مترنّحاً وجعل ينظر إلى يده التي غطّتها الدماء بينما يحتضر أيمن أمام عينيه. عاد إلى الأريكة، جلس ثم أشعل سيجارة وأكمل شرب زجاجته وهو يبتسم بنشوةٍ عارمة بينما يشاهد صاحبه ينتفض أمامه. الموسيقى كانت مستمرّة وقد وصلت السيمفونيّة إلى حركتها الرابعة. رفع الزجاجة وهتف:

-"وهذه نخب شراكتنا. بصحّة أيمن الميّت".

عاد إليه شعور الاغتراب، نظر حوله باستغراب، ثمّ إلى الأريكة المقابلة، رأى (أبو دياب) جالساً هناك يضرب على فخذه داعياً فريد إلى حضنه. نظر إلى اتّجاه الباب فرأى والده حاملاً عصاه ومتقدّماً باتّجاهه. نظر إلى الجثّة الغريبة برعب.. "من أنا؟ من أنتم؟ اخرجوا من هنا، لمَ

قتلتم هذا الرجل؟ خذوا الجثّة واخرجوا!"، راح ينادي ويتوسّل، كوّر نفسه على الأريكة قبل أن يبدأ بالبكاء مذعوراً، بدا كلّ ما يحيط به سوريالياً كأنّه في حلم. نهض بعد دقائق مرتجفاً خائفاً من الجثّة المسجّاة أمامه. دفع ما تبقّى في الزجاجة إلى جوفه، ضرب رأسه عدّة ضرباتٍ ثم نظر إلى الجثّة ودمدم: "أيمن مات!". شعر بوحدةٍ وخوفٍ كبيرين، كأنّما لم يبقَ على هذا الكوكب معه إنسانٌ آخر. مشى متثاقلاً إلى المكتبة، أحضر رواياته الستّة ووضعها فوق بعضها على (الطرابيزة) في منتصف الغرفة وهو يغنّي بصوتٍ خفيض والدوار يكاد يسقطه أرضاً. كتب بيدٍ مرتجفةٍ على بطاقة هانّا بعد أن رفعها عن الأرض حيث رمتها صوفيا: "أنا الكاتب، أنا فريد، وقد فعلتُ أخيراً شيئاً بملء إرادتي، أنا حرُّ الآن، حرّ، حرّ! لقد اخترتكَ أيّها الموت، بكلّ حرّية، وكما قيل ذات يومٍ في إحدى شقق برلين الشرقيّة سرّاً: "فليعانقني الموت الجميل، ولترحل عنّي بشاعة عالمكم إلى الأبد".

علّق الحبل في السقف بعناية وصعد فوق الكتب وكأنّه يصعد درجاً إلى السماء، وضع الحبل حول عنقه بكلّ هدوءٍ وأناةٍ والسيمفونيّة تُعزَف..

"باسم فريد، نطبّق حكم العدالة"

قال قبل أن ينظر إلى الأسفل لنصف ثانيةٍ ويركل الكتب الستة بقدمه مبعثراً إيّاها حوله.

راح يحاول تثبيت يديه إلى جسمه متمسّكاً بقراره، مبتسماً، منتشياً بخياره وبمتعة كونه حرّاً للمرّة الأولى، أغرته فكرة أنّه بعد ساعاتٍ سيستردّ ما سُلبَ منه وسيكون هو الكاتب لا الوكيل، أنّه لا ظلّ فوقهُ اليوم يعيش تحته، أنّه خرج من عباءة العبودية إلى الحرّيّة المطلقة.

أعجبته فكرة أن يموت واقفاً بعد أن صرخ صرخةً أولى وأخيرة في وجه حياته، قبل أن يرميها مثلما يرمى عقب سيجارته ويدوسه، لم يرعبه الظلام الذي بدأ يأكل ألوان المحيط من حوله، ولا الصفير في أذنيه الذي كان يزداد مع مرور الثواني ويحجب صوت الموسيقى، كان ينتظر بفارغ الصبر زوال وجوده هناك.

سؤالٌ واحدٌ راود خاطره، بينما هو يتأرجح وينتفض بين السقف والأرضيّة، ما كان السبب في عذابه ذاك؟ ما هو الحدث الذي تمخّضت عنه كل الأحداث اللاحقة؟ ربّما لم يكن ليحدث أيّ شيءٍ من هذا لو عاد يوم الجريمة إلى المنزل باكراً. راح يجلد ذاته وهو يركل الهواء بقدميه في كلّ الاتّجاهات: "لمَ لم تعد إلى المنزل باكراً؟!". أو ربّما لم يكن ليحدث أيّ شيءٍ من هذا لو لم ينهر لمى ووقف بجانبها؟! "لمَ كنتَ حقيراً يومها؟!" ربّما لم يكن أيّ شيءٍ من هذا ليحدث لو لم يكن موجوداً؟! "ها أنتَ تُنهي وجودك، متأخّراً جدّاً"..

هي لحظات، شعر بعدها بأنّه يريد التراجع، بل أراد التراجع فعلاً. شعر أنّ شَنْقَ نفسه حتى الموت لم يكن هو ما أراده فعلاً. ربّما أراد الحياة، بينما هي تدفعه نحو الموت: "هل الاستسلام قرارٌ نستطيع أن نتّخذه؟ هل يمكن للموت أن يكون خياراً لنا، أم هو من يختارنا دائماً؟ حتّى الموت انتحاراً!"

فكّر في صوفيا، رغب في الذهاب إليها ليعتذر منها ويشرح لها ما جرى، جرّب رفع يديه إلى الحبل الذي يكاد يقطع عنقه، لكن من دون جدوى، لم تعد أطرافه تستجيب له، فقد نفّذت ما أراده فعلاً، والآن قد فات الأوان، حاول أن يصرخ، لكن صوته كان يشبه فحيح أفعىً تحتضر، شعر أن عينيه ستخرجان من محجريهما، وأنّ وجهه سينفجر

محوّلاً ملامحه إلى أشلاء، خيّل له أنّه سيرى لمى، سيرى أمّه، ولكنّ ما كان يتجسّد أمام ناظريه هو وجه أبيه فحسب، بكلّ تفاصيله التي نسيها خلال سنوات، أراد الصراخ، هل سيكون هو أيضاً هناك في استقباله؟ هل سيذهب إلى حيث ذهب الحجّي؟ فكّر في أنّه ليس شخصيةً في إحدى رواياته قرّر أن ينهي حياتها بهذه الطريقة، بل هو ينهي حياته الآن بالفعل، ومعه ستموت كلّ القصص التي كان يمكن له أن يرويها. لقد شنق الكاتب نفسه، لتعيش كلّ تلك الشخصيات التي سيجعلها تموت في رواياته، ويموت هو.

حاول مقاومة السواد الذي يطغى على كلّ شيءٍ آخر حوله، كم هو صعبٌ الندمُ بعد فوات الأوان، وأيّ أوان؟ صوّبَ نظره إلى جثّة أيمن بما تبقّى فيه من رمق، برقَ نظرهُ بقوّةٍ أظهرت له كلّ ما حوله محتدًّاً قبل أن تنطفئ الحياة من حوله..

وكان آخر ما رآه قبل أن يستسلم للظلمة؛ وجه أيمن وهو يفتح عينيه.